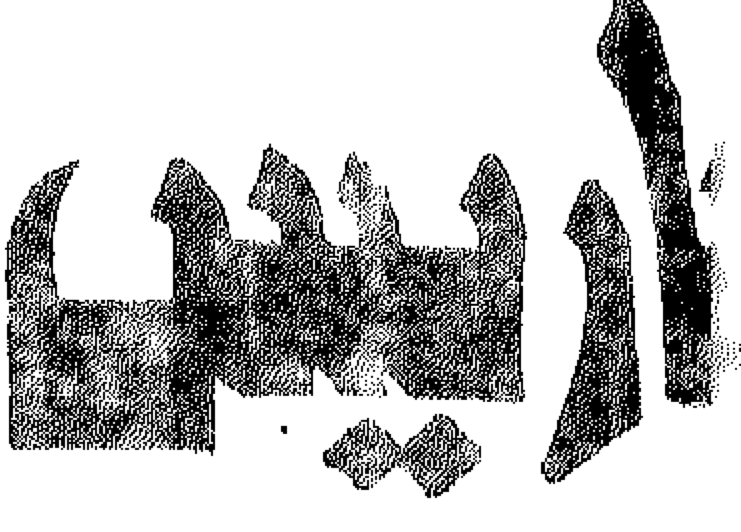
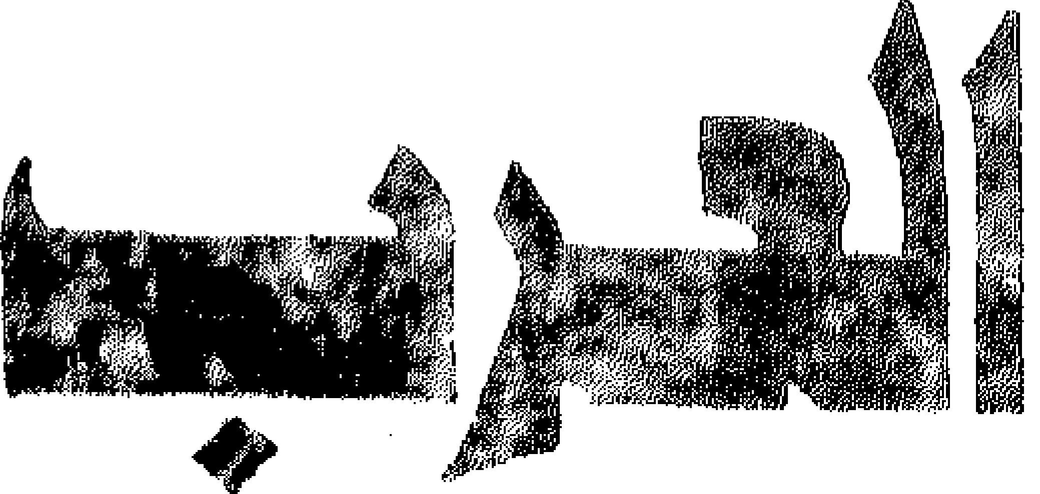
جان سوبلان







ترجمها عن الفرنسية

فريد جحا



دمشق ـــ أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

لاسكاريس العرب

الطبعة الأولى
١٩٨٧

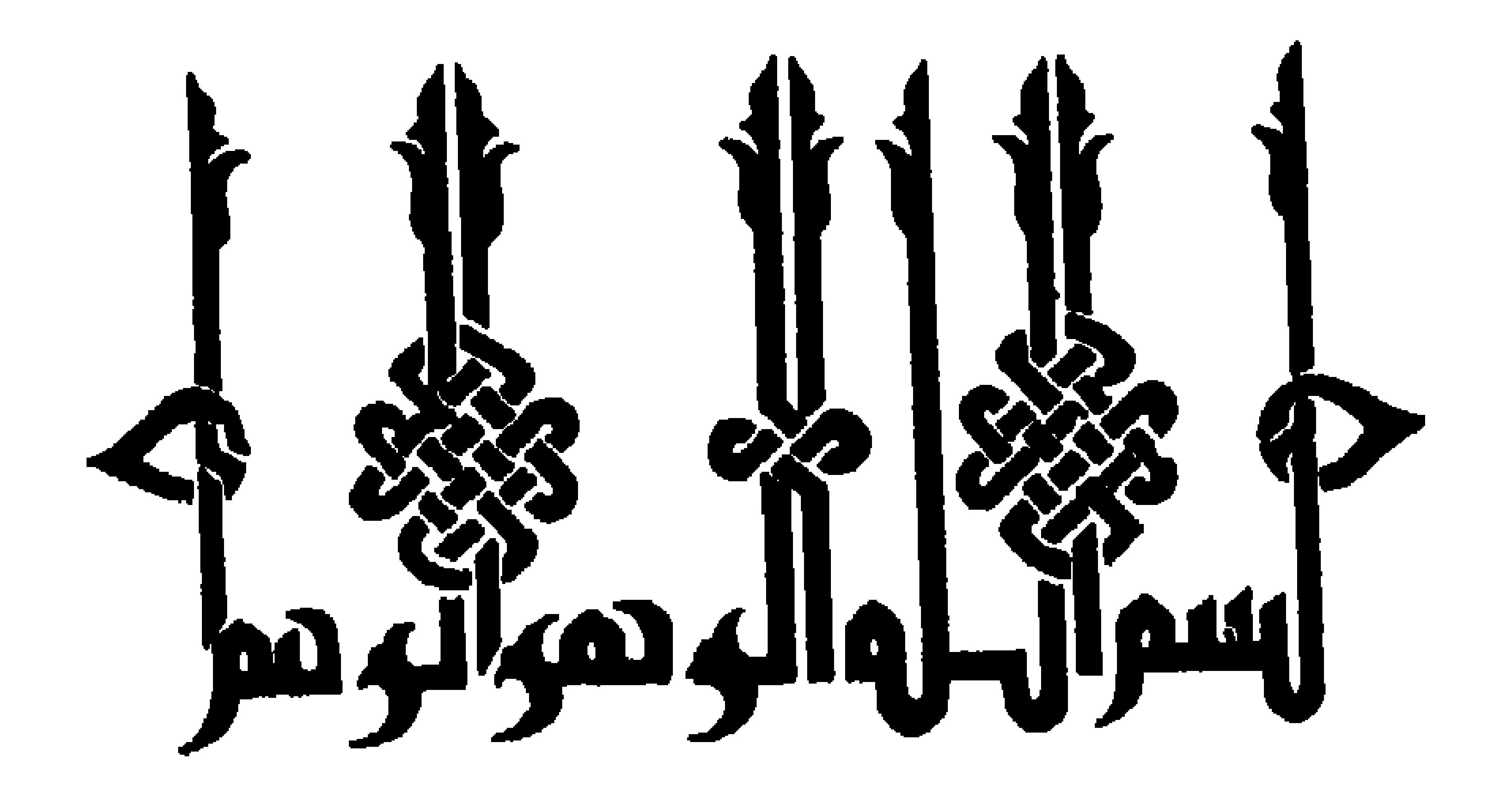
جان سوبلان

لاسكاريس العرب

رواية

ترجمها عن الفرنسية
فريد جحا

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار


بسم الله الرحمن الرحيم

العنوان الأصلي للكتاب

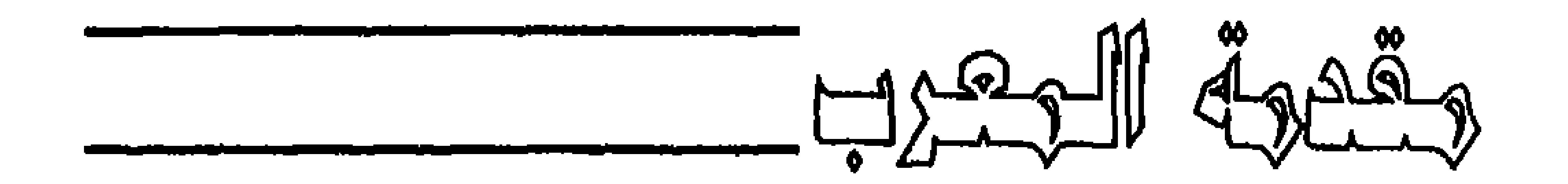
Jean Soublin

LASCRIS D'ARABIE

Roman

Seuil

paris 1983



مقدمة المعرب

نتقل هذه الرواية ، ونقدمها للقراء العرب ، على أنها تضم ، مثل روايات هذا النوع ، أشياء من الحقيقة ، والتاريخ والخيال . نقدمها لما فيها من متعة ، إبّان القراءة ، ونعتقد أن فيها وقائع كثيرة قد حدثت ، وأن فيها أشياء من خيال مؤلفها الذي أدخل فيها فنه القصصي ليدخلها من ثمّ إلى حرم الأدب . وإذا كان الكثير من وقائع هذه الرواية غير مسجل تاريخيّاً ، فإنها ، كما سيظهر لنا بعد قراءتها ، ممكنة الحدوث من جهة ، وفيها من أسماء الأشخاص والمدن والأمكنة مما يقربها من الحقيقة من جهة ثانية .

وتقدم لنا هذه الرواية عميلاً فرنسيّاً كلف بمهمة تمهيد الطريق أمام حملة فرنسية محتملة ، كانت ستنزل ، أيام مجد نابليون ، على الساحل السوري لتحتل دمشق فبغداد فالبصرة ، وتقطع بذلك على انكلترا طريق الهند البريّ . يتطلب التمهيد هذا أمرين خطيرين : أولهما استطلاع الطريق البري عبر الصحراء ، ومعرفة مواقع آبار المياه ، وثانيهما إيجاد أجواء مناسبة ، لصالح الحملة ، بين القبائل العربية الضاربة في هذا الطريق ، وحواليه ، والحجة المزعومة تخليص العرب من نير الأتراك ، وإقامة دولة عربية خالصة عاصمتها دمشق .

وإذا ما كانت المهمة قد قطعت ، والحملة قد أقلع عنها ، فلأن نابليون قد انشغل بأوروبا ، وبحملته على روسيا ، وأمر بالاقلاع عن أيّ نشاط سريّ أو علنيّ ضد الأتراك . وكان بعد ذلك ما كان من أحداث : سقوط نابليون ، وتغير الأجواء الدولية والعربية تماماً ، فأحداث الرواية تعاصر صعود محمد على في مصر ،

وقيام الحركة السلفية : فكرياً بتوجيه من محمد بن عبد الوهاب ، وسياسيّاً بجهود سعود الكبير جد الأسرة المالكة حالياً .

أفاد الكاتب ، كما يظهر أثناء قراءة الرواية ، من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية التي تضم هذا الملف الذي يتضمن مذكرات ورسائل كثيرة جمعتها المخابرات البريطانية ، وقدمتها هدية للحكومة الفرنسية ، التي أبقتها في خزائنها ، حتى نبشت من جديد ، وقدمت في شكل رواية فيها من الفن القصصيّ ، مثل ما فيها من الأحداث التاريخية .

وتبقى للرواية نكهتُها الخاصة ، وتبقى قراءتُها ماتعة ، وسنقول فيها كلمة أخرى بعد الانتهاء من نقلها إلى العربية ، مشيرين منذ الآن إلى أهمية هذا الوطن العربي العظيم الذي تكالبت عليه منذ قرون أطماع الأمم الأوروبية ، وعاش قرون الضعف العثماني مرتعاً

للجواسيس والعملاء الذين كانوا يريدون ، بدعاوٍ كثيرة ،احتلاله وسرقة خيراته .

وإذا ما كانت فصول المؤامرة الغربية هذه قد تمت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى حين استعمرت أكثر أقطار الوطن العربي ، فإن ذلكم الاستعمار لم يقيّض له الحياة الهانئة ، بل خرج يجر أذياله بعد نضال مرير خاضته شعوب أمتنا بين الحربين ، وتوّج بانتصار الجزائر عام ١٩٦١ ثم استقلالها ، وجلاء الجيوش الأجنبية عن جميع أرجاء الوطن العربي ، باستثناء هذا السرطان الصهيوني الذي ابتلينا به نتيجة مؤامرة كبيرة كبيرة ، واتفاق قام بين الصهيونية فكرةً عنصرية ، والاستعمار دليلَ عمل ، وموآزراً كبيراً .

على أن حقائق التاريخ تقدم لنا أكثر من دليل على أن هذه المعركة التي يخوضها العرب ضد أعدائهم من الصهاينة ومن يحمونهم ويمدونهم بأسباب القوة

والحياة ... هذه المعركة الكبيرة التي تخوضها أمتنا ضد أعتى حركة شريرة عنصرية ، سيكون النصر فيها لنا ، لأن الحقَّ والتاريخ معنا ، ولن يكون النصر في النهاية ، مهما ادلهم الليل ، إلّا في جانب من يملكون قوتي الحق والتاريخ .

فريد جحا



تمهيد

تعود النصوص المجموعة في هذا الملف إلى جول لاسكاريس دوفانتيميل (Jules Lascaris de Vintimille) ، من رعايا دوقية ساردينيا ، المولود في مدينة نيس عام ١٧٦٧ ، فارس جزيرة مالطا ، الذي أعلمناكم بنبأ وفاته في القاهرة .

لقد لفتت وزارةُ الخارجية البريطانية انتباهَكم إلى هذه الشخصية الغامضة . فلقد أثار ، خدمةً لأغراض نابليون ، قلاقلَ جمة ، وعظيمة الأثر ، بين أعراب البادية السورية ، مقدراً أنه يفتح ، بذلك ، الطريق أمام القوات الفرنسية التي كان يأمل أن ترسل إلى هناك .

ولقد أمرتموني أن أجمع لكم المعلومات التي تملكها أجهزتنا عن لاسكاريس ، والأوراق ، والمذكرات ، والرسائل التي استطعنا الحصول عليها حوله .

أكثر هذه الوثائق دلالةً ، وأكاد أقول إثارةً ، تلك التي كان الأنكليز قد زودونا بها . أعني تلك المقتطفات ، التي هي نوع من مفكرة يومية ، كتبها لاسكاريس نفسه ، والتي ضبطت مع حاجيات الفارس المتوفى الشخصية. إن كاتبها يؤكد، في هراء ملحميّ ، حدوث أعمال حربية ، قليلة احتمال الوقوع ، بين جماعات اسمها الرنّان يخفي وجوداً مثيراً للريب .

ولقد ضم الانكليز إليها بعضاً من رسائل عميلهم ج . ل . بوركهارت ، الذي تعرفه ، معرفةً جيدة ، مراكزُنا في مصر والشرق ، ولربما عرف بوركهارت هذا ، لاسكاريسَ ، وقابله وخالطه .

كذلك تقدم ، من جهة أخرى ، إلى قنصليتنا بحلب ، شابٌ ماروني يدعى فتح الله ، صايي أو صايغ ، مدعيّاً أنه خدم

لاسكاريس ، طوال عدة سنوات ، وكان يحاول بيعَنا ملاحظاتٍ ومذكراتٍ حول مغامراتهما في الصحراء . لقد سمحتُ بشرائها ، وإننا لنكتشف ، على الرغم من صبيانية بعض هذه الملاحظات ، اتفاقاً بين ما سجله الماروني وبين يوميات معلمه . إنّها تؤكد صدقَ الأحداث المذكورة ، أو ربّما تكشف عن وجود مؤامرة غش بين لاسكاريس ورجل حاشيته . ذلك محتمل ، وعملاؤنا في سوريا قد وضعوا تحت مراقبتهم، فتحَ الله هذا الذي يمكن، إذا ما تطلب الأمر ، القبضُ عليه واستجوابه .

لم تتمكن سفارتنا في الآستانة من الحصول على أيّ شيء من الأتراك .. فحكومةُ الباب العالي ترفضُ إيصالَ أية وثيقة إلينا . تحكّمٌ وتشدد سيّان تعودناهما منها ، وهما يخفيان ، على وجه الاحتمال ، جهلاً مطبقاً بالأحداث التي ذكرها ، أو (اخترعها) لاسكاريس ورفيقُه ، كذلك لم تظهر الشرطة العثمانية أيَّ اهتمام بالموضوع ، ولم تجد أيةَ فائدةٍ في قصة المغامرة هذه .

ويمكن أن تبدو ، بالمقابل ، الأوراق التي ضبطناها لدى

(م . دورفيتي) قنصل بونابرت سابقاً في (الاسكندرية) مبينةً وموضحةً للأمور ، إذا ما قبلنا ادعاءات هذا الساخط على الأعراف ، والمهتم بتجارة الآثار القديمة ، أكثر من اهتمامه بخدمة مصالح فرنسا .

ينسب م . دروفيتي ، إلى نفسه ، مثل الكثيرين ، دوراً قام به . إننا نعرف أنه قد تجمع ، حول (المغتصب)* ، الناجون من حملة مصر (عام ١٧٩٨) ، والذين شكلوا لمدة طويلة بطانةً ، كانت تحن إلى الماضي ، وتتوق إلى الحرب ، كانت تريد إقناع الامبراطور بتهديد الهند من سوريّا ، وبالعودة إلى الشرق ، حتى يتمكن كل واحد منهم ، من رؤية مدنه المعطرة ، واستعادة الأحلام التي قطعها انتهاءُ الحملة ، ثم الحصول على الثروات . إن قولنا إنَّ دروفيتي ، هذا الديبلوماسي الصغير والمشبوه والمبهم ، قد كان روحَ هذه المؤامرة ، يبدو مبالغاً فيه . ذلك أنه يعترض عليه بقراءة

---

* لقب كان يطلق على نابليون ، من قبل السلطة الملكية التي حكمت فرنسا بعد سقوطه عام ١٨١٥ .

مفكرة لاسكاريس التي تذكر أحياناً « مهمة » كلفه دورفيتي القيام بها ، إنني لا أرى شخصياً ، في هذه الإلماعات الخادعة ، سوى محاولة رعناء للإساءة إلى قنصل ، ولتفريغ حقدٍ ناشىء عن نزاع قديم .

وليس هذا كله مغرياً ولا جذاباً ، وهو يشي بتفاهة قذرة لمغامرين غير جديرين بالاحترام ، مغامرين يدّعون القيام بأدوار عجيبة مدهشة لدى جماعات تكاد تكون مجهولة . إن إلحاح الأنكليز في إيصال هذه الوثائق إلينا يظهر لنا رأيهم في صحتها وقيمتها . أهم يأملون التسلي بسذاجتنا ؟ أم يريدون حثّنا على القيام بحملة مغامرة ، مكلفة التقاط ما تبقى لدى الأعراب ، من ولاء كان لاسكاريس ، قد وفق في نثر بذوره ؟ ويبقى الفخُّ ، وإن لم يكن واضحاً تماماً ، محتملَ الوجود .

كلمة أخيرة ، أنصح فيها بالحذر ، إن لاسكاريس ينحدر من أسرة مشهورة ، تحدرت بدورها من زواج تمّ في عام ١٢٦١ بين (غليوم دو فانتيميل) و (أوكسيدي لاسكاريس) ، ابنة تيودور

الثاني ، امبراطور بيزنطة . لقد ارتبط هؤلاء الناس ، مع أسر السافوا وغاريمالدي ، وأشخاص ذوي مكانـة ، بروابـط قربى ، وهؤلاء جميعاً لا يودون البتة أن يتحدث الناس كثيراً عن قضية ابن عمهم المغامر . والأهم من هذا أيضاً ، أن آراء دروفيتي الساخرة في السيد شاتوبريان ، الذي استقبله في عام ١٨٠٦ ، يمكن أن تغضب وزيرَك الجديد للشؤون الخارجية .

ولعلك تفضل ، من دون ريب ، إتلافَ هذا الملف بعد الانتهاء من قراءته مباشرة . إنك تحسنُ صنعاً ، فليسَ لحكايات البداة هذه أيةُ أهميّة .

المؤلف

الفصل الأول

المَطْيِرة

(١٨٠٦ـ١٨١٠)

((أخذت إلى دار السيد دروفيتي ، قنصل
فرنسا في الاسكندرية . استقبلني السيد دروفيتي ،
العسكري المتميز بالبساطة ، التي يتحلى بها
الجندي ، وبالحرارة التي تستمد تأثيرها من شمس
مشرقة .)) .

شاتوبريان في كتابه : (رحلة من باريس إلى القدس)

دروفيتي
مذكرات (تشرين الثاني ١٨٠٦)

أبحر السيد شاتوبريان ، من دون أن يغفل عن معانقتي ، وإغداق جميع مظاهر الصداقة علي ، هو الذي لم ينفك عن إغراقي بها منذ عودته من القاهرة . هل استحق هذا التقدير ، ومثل هذا الاحترام ، في بهو من أبهاء حيٍّ سان جيرمان ؟ ألا يخفي ذلك ، إرضاءً لثرثار لا ينضب معين كلامه ، ثرثارٍ أعجب ، في نهاية رحلته في مناطق قاسية ، باكتشاف مستمعٍ مثقف ، مؤهلٍ للإنصات إليه ، وفهمِ ما يسرده من جملٍ لاتينية ، فهماً عاماً ؟ .

لقد أعجبتُ بثقافته ، وابتسمتُ لدى سماعي وجهاتِ نظره السخيفة حول المسألة الشرقية ، وأننتُ تحت ثقل أوصافه الخُرق للأوهايو وبنسلفانيا . بكلمةٍ موجزة ، قمتُ بالواجب الذي تمليه عليّ وظيفتي . إنهم يدفعونَ لي الراتبَ الذي يكفيني ، للاستماع إلى مسافرين عابرين ، وخاصةً عندما يكونون ذوي صَخَب ، إنّنا قد صُنِعنا ، إذاً ، لكي نستمع .

لقد حرثنا ، من أجل إرضائه ، وجعله سعيداً ، دلتا النيل ، مفتشين عن مِسلّات قديمة . ولقد كان السيد شاتوبريان ، على الرغم من البعوض ، والألبانيين اللصوص ، والساعة المتأخرة ، يُطْنِبُ في الكلام ويطيل فيه ، متحدثاً بصوت عال عن قطوع إقليدس الجوهرية ، ومتجولاً بخطى واسعة حول الأعمدة ، ثم يقفز فرحاً كالأطفال ، أمام كل اكتشاف جديد ، غير ناس أن يسخر من برودتي . فبينَ حرارة قلبه ، وبرودة أعصابي ، من المسافة ، ما يذكر بشاطِئَيْ المتوسط . ووقفنا ، في طريق العودة ، عندما ابتعدنا عن الحكم المحفورة في المرمر ، على التعظيم الذي لا ينتهي لنهر الميسيسيبي وواديه . وكنتُ أنصت إليه طَوالَ الوقت .

على أنني ثأرت من ثرثرته عندما نصبتُ له فخاً بمساعدة عميلي (بادي) ، الذي أبحر ، من وقتٍ قصير من المدينة ، والذي كان يملُّ قليلاً ، عندما يحيا بعيداً عن الديار المقدسة . فلقد قدم نفسه ذاتَ ليلة ، إلى الفيكونت ، متنكراً في زيّ رحالة مغربّي ثريّ، يخفي شخصيتَه الحقيقية يهودّياً إسبانّياً في خدمة نابليون ، لقد امتدح زائري كثيراً ، وأثنى على نتاجه ، وأيّد أقواله بسلسلة من المدائح شفعها بانشاد قصائد طويلة للشعراء العرب . ولقد استطاع ، بذلك ، أن ينقل الفيكونت إلى عالم آخر ، عالمٍ اعتقد فيه ، بأن الأمراء المسلمين يلتهمون كلمات روايته (أتالا) .

خلَّف رحيلُه المنزلَ شِبْهَ فارغ ، لقد أسفتُ ، من دون ريب ، على سماعي هذا السيل المتدفق من الجمل المفخمة التي كانت تهدهدني ، في ليالي تشرين الثاني العذبة ، عندما كنا نصعد إلى سطح المنزل .

كان يحب سطح منزلي هذا كثيراً ، ويعشق المِطْيَرة التي

أقمتها هناك ، من أجل أحمد ، وفي هذا المكان أقضي ، في الوقت الحاضر ، أعذب لياليَّ ، بين أقفاص العصافير ، وقرب مجثم الطيور ، والشباك الممدودة ، ومشارب المياه السريعة الكسر ، حيث مدت حشايا ، فوقها زرابِيٌّ ، تدعو المرء إلى التأملات الليلية . وينتقل البصر المشدود إلى المِشية المَشيقة لطيور النحام والكراكي ... ينتقلُ حتى يصل إلى أنوار القوارب غير الواضحة التي تتلوى في مدخل المرفأ . كانت زقزقة الطيور المبشرة بالمطر ، وزغردات البلابل تَردُّ ، في هذه الساعة الهادئة ، على ضجيج المدينة النائمة . من مِنَّا لا يحب هذا التناغم المتآلف ببطء ، والمتنقل من قفص إلى قفص ، أو هذه الأشياء الأثرية التي أقتنيها ، أو هذه السعادة التي أحس بها حين أبيعها ، أو عندما يوافق القباطنة المحايدون على نقلها إلى فرنسا ، شريطة أن يدفعوا لي الثمن الذي تستحقه .

ليس في مصر الآن شيء ذو قيمة، بعد أن نهبتها إبّان الاحتلال النابوليوني زمرة (جومار) ، ونبشها الجنود المرتزقة الذين غَدَوا علماءَ في الآثار المصرية ، بناءً على أمر من رئاسة الأركان ،

وها هي ذي يمشطها الانكليز أخيراً ، وبدءاً من عام ١٨٠١ . إنهم يعرضون عليّ قطعاً من عهود متأخرة ، أو نقوشاً محفورة مكسرة ، أو مومياء يشك في حقيقتها ، أو برونزيات صغيرات جداً ، أجل لم يعد في مصر شيء له قيمة . وعلى المرء أن يفتش بنفسه في قبور الفراعنة ، جنوبي القاهرة ، أو في منطقة أبعد من ذلك . إلّا أنَّ البريّة يعيث فيها السفاحون فساداً ، ونحن نلتقي الألبانيين في كل مكان ، ولا يرغب العمال الذين يشتغلون لحسابي في مغادرة الاسكندرية .

وقد أتى فرنسيون ، في الأسبوع الماضي ، يعرضون عليّ مرافقتم إلى مدينة ممفيس لقاءَ نفع مادي . قدمتُهم إلى السيد شاتوبريان الذي سحرهم . انني أعرفهم جيداً ، هؤلاء الذين عملوا من قبلُ في الكتيبة الثالثة والأربعين ، والذين غدوا من أتباع محمد علي . لقد أقاموا في القاهرة إقطاعات مدينية صغيرة ، تدر عليهم الرزق ، وكانوا يقطعون ، من حين لآخر ، أُذُنَ صاحبِ حانوتٍ متمرد . ولقد طاردتْهم رئاسةُ الأركان بفتور ، إلّا أنَّ النهاية

أتت أخيراً حولَ العـام ١٨٠٠ ، ففيها فقـدَ الكـــثيرون منهم رؤوسهم . ومن المؤلم القاسي حقاً ، أن يجد المرء نفسه متشرداً في مصر ، بينما قائد الجيش يُمضي وقتَه في تنظيف نفسه من القُمَّل . لقد خَلَفَ الإخفاقُ مجدَ الانتصارات الأولى الرائع ، فمنذ عام ١٧٩٩ أخذنا نعرف أنه لن يُعيّن واحدٌ منا وزيراً ، ولا حتى نائباً لحاكم أو والياً .

وهكذا بدأت أحلامُ الحياة تنهار ، في عام ١٨٠٠ ، ينبغي للتقدم عسكريّاً ، بعد معركة (مارينغو) أن يكون المرءُ في قصر (ماليزون) ، وليس في القاهرة . فلقد غادرنا فرنسا برتبة نقيب ، وسنعودُ برتبة نقيب . إلّا أنَّ الرفاق قد حصلوا في باريس ، على رتبة عميد .

تسلل الرعبُ ، بعد مقتل كليبر ، إلى الثُّكنات . كانت المُدَى تلتمع في ظلمات الأسواق ، وطلقاتٌ نار متفرقة تمزق سكون الليل . وكنا لا نخرج إلا قليلاً ، وضمـن جماعـات ، محترسين ، نرقُبُ شجرَ النهر ، فمنه تتصاعد أحياناً القعقعـة المبهمة لبنادق تلقَّم .

وغادر بعضنا مصر ، وبعضنا الآخر ينتظر السلام ، والإعادة إلى الوطن، تلاحقهم عيونُ الانكليز الساخرة الذين حلوا محلنا .

وفضّلتُ البقاء . فساعدي يؤلمني وهو ذكرى معركة جبل طابور ، ولن يجد ضابط أقطع أكتع برتبة زعيم مكاناً له في رئاسة أركان (الكابورال الصغير)* .

وجاء السلام أخيراً ، وعُرِضَ عليّ منصب قنصل مدينة الاسكندرية فقبلته ، ووجدتُ منزلاً رخيصَ الثمن ، بغرف واسعة ، فابتعتُه . وتركني الانكليز أعيش بهدوء . أنا أحب منزلي ، وطيور النحام التي أمتلكها . وهناك ، من بعدُ ، أحمد ذو العينين اللوزيتين ، والشباب المتهور الطائش .

لم أتوقع عودةَ الحرب سريعاً ، الحرب التي عرقلت أمر إرسال تماثيلي الفقيرة إلى باريس ، وعقدت صلاتي مع الزبائن

* لقد كانوا يتهكمون به على نابليون .

الأنكليز، الذين كانوا، وحدهم، يدفعون الثمن من دون مناقشة .

ولم أتوقع كذلك صعود محمد علي ، ولا تجاوزات ألبانيّهِ التي لا تحتمل ، ولا وحدتي في الاسكندرية .

ولم أتوقع يا إلهي أيضاً ، ذهاب أحمد وجميع هؤلاء الفتيان الشباب الذين يحيطون بي في هذه الأيام ، والذين غدوا يكلفونني غالياً .

ولقد كان عليَّ أن أغادر ، إلّا أن مماليك القاهرة الفرنسيين كانوا يسحرونني . فعبد الله الكبير مثلاً ، وهو ابن صاحب خان ، كان يقص مغامراته لدى بدو مدينة العقبة ، وهم جماعة محاربة يسميهم الحويطات ، أو اسماً قريباً من ذلك .

وياله من إنسان يحسن الحديث عن الصحراء . وكيف يستطيع أن يبتدعَ مع هذه الكلمات الفظة الخشنة لصف ضابط ، صوراً تحيِّر ، وتثير الاضطراب .

إنّه مصور عنيف ، يرسم أولاً شبكةً من الألوان والنور ، ثم يستحضر ، في الحال ، جَلَبَةَ الصحراء ، صريراً وصريفاً خفيفين ، وأنّاتِ الريح ، ودعواتٍ مفاجئة لطيور لا تُرى ، وانفجاراتٍ لصخور محترقة . وهو يسكنُ ، مع دقة عالم طبيعة ، مملكتَه المعدنية بحياة لا شك فيها ، فالشجيرات الميتة تَخْضَرُّ من جديد مع مطر العواصف الأولى ، وينبثق العشب العابر الزائل ، الذي تتمرغ فيه النوق ، وطاقات الزهر المعطرة بين الصخور ، ثم تأتي بعد هذا الحشرات والعِظايات ، والقوارض ، الجوارح الصغيرة . وهكذا يثير ، مندفعاً مع حماسته ، الحياةَ في الصحراء التي تسكنها جماعاتٌ لا تُعْرَف ، ويلوّن لطخَة الأطلس البيضاء ، خالقاً فيها طرقاً تنبثقُ بسرعة ، ومدناً ممنوعة ، وشعوباً برمتها .

ويبقى هذا كله قليلَ الاحتمال ، فالشمس قد أحرقت دماغ الجوّال ، إلّا أننا نضطرب بهذا السلام الداخلي الذي يدّعي وجوده في الفراغ الكبير . وهو يعود في غالب الأحيان ، إليها ، قائلاً في أيام الاحباط « هناك يمكن التفكير بشكل أجود ياسيدي . وهناك

يمكن أن يداوي الرومانسيون سوداويتهم ، والصحراء تموت عندما تُحْرَمُ من الماء ، مثل سلطة الخضار ، وحيوانات الماعز » .

أأرحل ، أنا أيضاً ؟ لو كنتُ صحيحَ الجسم ، وأقلَّ سعادةً وراحة في إقامتي ضمن شرف هذه الديبلوماسية الصغيرة ، وفوق أرائك سطح منزلي ، لفعلتُ ذلك ؟ إن ذراعي المقطوعة تردد على مسامعي ، كرهي للألم ، وعدمَ احتمالي إيّاه ، وعدمَ ملاءمة المغامرة بالنسبة لي ، أو هذه المغامرة على الأقل . إنَّ مغامرتي الخاصة ، في الوقت الحاضر ، هي شحذ الرمل الحذر عن جوانب تمثالٍ كان مطموراً في الرمال ، والمقابلة العويصة بين الأسر ، والتجارة مع الهواة ... ورتابة العلاقة مع باريس .

هذا هو مجرى حياتي اليوميّ ، وهذا هو مستقبلي . إلّا إذا ما عاد الامبراطور يوماً ما ، من هنا ، بالطبع . سنجد عندئذ الفرصة للتسلية ، وللغِنى . وليس لديَّ حول هذا الأمل الخيالي أيَّةُ كلمة أقولها ، ولا أيُّ فعلٍ أقوم به . وانني لأداعب هذا الحُلُمَ ،

بصورة آلية ، كما نداعب ، ونحن ندخن ، كتف زنجي . إنَّ هذا الحلم لم يعد ملكاً لي ، ولقد وضعتُهُ بين يدي أستاذ اللغة الفارسية في (الكوليج دو فرانس) . فهل أحسنتُ صنعاً ؟ وهل يستطيعُ نقلَ أفكار دروفيتي حول المسألة الشرقية إلى نابليون ؟ وهل بإمكانه أن يقنعه بالعودة؟.

رسالة إلى السيد دروفيتي، قنصل فرنسا في الإسكندرية

من م. سيلفستر دوساسي، الأستاذ في مدرسة اللغات الشرقية الامبراطورية (آذار ـــ ١٨٠٧) .

لقد سحرتني ، ياسيدي ، رسالتُك الأخيرة ، وهأنذا بدوري ، أخبرك بأنباء تقدم مشروعاتنا . أصدقاؤنا يفهمون ، بشكل ممتاز ، قلقَك ، وقلة صبرك ، وإننا ، جميعاً نأسف ، للعقبات التي يسببها لك ألبانيّوك ، والإهانات التي يلحقها الباشا بك ، ولرقة الحال التي آلت إليها أمورك المالية . عليك أن تتأكد

أننا لا نستطيع الحركة بنشاط ، وأنت تفهم الصعوبات التي نمر بها . وتخيل المكائد وأحابيل السياسة التي يمدها أمامنا أعداؤنا ، ولدينا منهم الكثيرون الأقوياء ، فعلينا أن نتحرك بحذر ، والحذر يعيق تحركاتنا ، والسريّة هي ما يجب أن نتمسك به . لقد تغير الزمن ، ولم نعد نقترب من الامبراطور الذي كان من قبل قائداً للجيش . فحول جلالته أمناءُ للسر ، ووزراء ، وماريشالات ، وأقاربُ خاصةٌ ، أقارب غيورون على قوتهم الجديدة ، وهم يقلقون من أدنى طلبٍ لاجتماع خاص ، ويشكّون بالرفاق القدامى ، ويشتتون توسلاتِهم ، ويخفون أو يدمرون كل ما يمكن أن يُحيي ، لدى جلالته ، أسفَه على الشرق .

نحن نتقدم ببطء إذاً، عارضينَ أفكارنا، مع بعض الاحتياطات على هؤلاء الذين يَبْدُونَ قابلين لمشاركتنا إيّاها . وعلى رأسهم زملاؤنا في مصر .

لقد استطعنا ، مؤخراً ، إقناع السيد (جوبر) الذي عاد من فارس . فالتطوع له الأفضلية والأهمية . وهكذا تبدأ مؤامرتنا ،

واسمح لي بأن أسميها كذلك ، فهي تُشْعِرُ ، إلى حد ما ، بصُفرة أيامنا ... تبدأ مؤامرتنا بالاتضاح بانضمام السيد مونج ، والجنرال سافاري إليها .

وسنبدأ سريعاً ، وخاصة إذا ما توصلنا إلى التعامل جيداً مع الروس ، بمضاعفة مقالاتنا في صحيفة (المونيتور) ، ومشاريع خططنا ... والتحريض على المواجهة .

أمُقَدِرٌ لنا النجاح، يا عزيزي العميد؟ أمقدر للإمبراطور أن يتذكر أخيراً ، وبفضلنا ، أنّ ، في الشرق ، إنّما يلتمع نجمُه ؟ .

إنني أرتعش وأنا أفكر في آمالنا . فمن خلال ضباب خيالي أكاد أميز مراكبَنا مربوطةً على سواحل سورية زاخرةً بفرق جيشنا ، وكتائبَ الهجانة الجوّالة فيها ، والتي أعيد تشكيلها ، تدخلَ سريعاً إلى دمشق . إننا لن نتأخر أبداً ، فمن عاصمة بني أمية إلى مدينة العباسيين ، سيخط الجيش درباً من نار على صحراء من نار ،

وستلتمع زينة خُوَذِ الخيّالة في شمس (القريتين) ،بينما يخيّم خيّالة (برسييه) في خرائب تدمر ... وعلى نهر دجلة يُلقي النقابون جسورهم ، ويناوش الرماةُ المدافعين عن جدران بغداد ... وها نحن أولاء ، أنا وأنت يا عزيزي دروفيتي ، في حديقة المسجد الجامع ، نتكلّمُ باسهاب عن شعراء هذه المدينة المعجونِ ترابُها بعطور دَنِفة .

وسيغدو ، كل شيء ، بعد ذلك سهلاً ، كما يدّعي السيد جوبير . فالفرس الذين سنكسبهم أخيراً إلى جانب فرنسا سيستقبلوننا بالترحاب . وهكذا ينقضُّ جيش كبير بانضمام خيالتهم ، وجنود إضافيين يصحبوننا من لبنان ، ينقضُّ هذا الجيش ، الذي غدا يعد مائة ألف رجل ، نحو نهر الهندوس سالكاً طريق شيراز ... ويكون كل ما قد قيل قد نفذ .

لقد تسرعنا ، أليس كذلك ؟ ... فلنكن صابرين ، وكتومين . جلالةُ الامبراطور يناور في بولونيا ، وفي غياب جلالته لن تدخرَ صاحبةُ الجلالة الامبراطورة جهداً ، ومعها إخوة جلالتهِ ، في إفشال مشاريعنا ، إذا ما عرفوها .

وأنت تعرف ، من جهة أخرى ، كم يتمسك سمو الأمير (بينوفن) بسياسته العثمانية . إنّنا سنقعُ في شر أعمالنا لو تحدثنا إليه بفكرة اقتسام البلاد التركية بين فرنسا وروسيا . والمكاتب مغطاة بفكرة قوة القيصر ، وهم متمسكون كثيراً ، على العكس ، بمساعدة الباب العالي عند الاعتداء عليه في جبهة القوقاز . وهكذا يجب أن تبقى وزارتُك ، كما فهمتَ مما تقدم ، على جهلٍ تام ، بأفكارنا ، في الوقت الحاضر . وها هنا ، كما هو شأني دائماً ، أعتمدُ اعتماداً كليّاً على صمتك .

لقد تلقيتُ الرسوم التي أرسلتها لي ، إنّ دقتها مذهلة ، وأعتبر ، مع شيء من الحسد ، أن مجموعتك من الآثار تنمو ، على الرغم من قسوة الزمان . ويملأني هذا الرأس العائد للإله حورس بالفرح ، حين أتمكن من شرائه ، بعد عرضك له ، لو أنني كنت أملك المال اللازم . إلا أن السعر الذي تريده ثمناً له يبدو مبالَغاً فيه حقاً ، واعذر لي هذا اللوم الذي أوجهه لحاجات يمكن أن تفسر ، لدى الآخرين بالجشع ، أ ألام إذا كان صاحب الجلالة يدفع

لقناصلِهِ مرتبات قليلة ؟ . أنتَ ترى أنّه ، في (النُّوبَة) المسالمة ، قد اكتُشِفَ مؤخراً من الكنوز ما حمل الباعة على تقديم تنازلات ، فلتكن عاقلاً يا سيدي ، ولتتأكد من حبي وتقديري .

رسالة إلى السيد دروفيتي القنصل في الاسكندرية

من م. سيلفستر دوساي الأستاذ في الكوليج دو فرانس

(آب ١٨٠٩)

الأمور تتسارع ، يا عزيزي العميد ، فلقد وقّع جلالته من جديد معاهدة مع القيصر ، في مكان ما في أعماق (مورافيا) . انكلترا ، وحدها ، تبدو المهددة بالحلف الجديد ، كما تصرخ صحيفة (المونيتور) بأعلى صوتها ، إلّا أنهم قد أخبروني بوجود بنود سرية متعلقة بالشرق ، أنا أعرف محتواها . وهكذا ، يغدو كل شيء ، فجأة ، ملائماً لنا .

في انتظار عودة الامبراطور نعجل بتهيئة الأمـور . لقـد أعددت الدراسات المائية والجغرافية التي ستسمح لنا ، في اللحظة المناسبة ، بتقديم المصورات الأكثر تفصيلاً لرئاسة الأركان حول صحراء سوريا . ولقد كلف (جوبير) دراسة طريق فارس .

هناك مسألة تشغلنا : إنَّ تقدم قواتنا يمكن أن يكون معاقاً أو مُيسَّراً حسب موقف القبائل العربية الذي سيكون معادياً أو غيرَ مبالٍ ، أو إذا كان بالامكان ملائماً . إنَّ باريس تجهل كل شيء عن هذه الجماعات ، إلَّا أن هناك مشكلة أرغب منك أن تفكر فيها منْ دون تأخير .

أنت تعرف الفوضى التي سببها المحاربون البداةُ لقواتنا حين زحفنا على القاهرة ، ألا تذكر مناوشاتِهم التي لم تنقطع تحت شمس تموز ؟ ولعلك لم تنسَ بالطبع مطلقي النار هؤلاء ، ذوي الثياب الرثة ، الذين كانوا يخرجون من وراء كل قناة . أمّا ذكريات تراجعنا السيئة ، بعد معركة عكا ، فانني أكره إعادتها على مسامعك . لقد كنتَ أنتَ نفسك في قافلة الجرحى ، وكم خلَّفنا من الموتى وراء

ظهورنا . ومهما يكن من شيء ، فإننا نفكر بأن الامبراطور يمكن أن يتردد في تعريض أحسن قواته لهؤلاء المحاربين الذين يتعذر الإمساك بهم، والذين يحاربون من دون أن يَغْلِبوا أن يُغْلَبوا أبداً . ولقد كان لنا كثيرٌ من المضايقات مع هذا النوع من الحرب الصغيرة ، حرب العصابات كما تسميها التقارير في الوقت الحاضر .

وهكذا يبدو من المهم جداً ، بالنسبة لأصدقائنا ، التأكد من مساعدة هذه الجماعات لنا . وإنني لأرى ، من جهة أخرى ، فائدةً كبيرة في دراسة معمقة عن قبائل سوريا البدوية . إنَّ في مثل هذه الدراسة ، تقدماً للعلم في ميدان أجده اليوم مهملاً تماماً . فليس هناك ، فيما أعلم ، رحالةٌ قام بتعداد هذه القبائل ، أو بوصف عاداتها وتقاليدها : إنَّ معرفتنا ، بهنود بنسلفانيا الحمر ، أجود . ويضاف إلى عدم معرفتنا الدقيقة بشعوب سوريا هذه ، جهلُنا التام بأمثالهم في بوادي جزيرة العرب ، فالتقارير التي تردنا من ولاية بغداد تجعل منهم نوعاً من طائفة قاسية شديدة المراس تسمى الوهابية . إنَّهم هم أنفسهم الذين أرهبوا عميلك (بادي)

على طريق مدينة الرسول . أمن المعقول أن تمتد سيطرتهم من مسقط إلى العقبة ؟ إنني أرتاب في هذه الشائعات . إلا أنها إذا ما تأكدت ، بسبب عدم معرفتنا ، فإن هؤلاء الوهابيين يسيطرون اليوم على أراض أوسع من الأرض التي تسيطر عليها جيوشُنا الخاصة . إنَّ ذلك يمكن أن يلدغنا في الصميم إذا لم نعرف حقيقة الأمر .

ويتطلب هذا كلُّه ، بالطبع فحصاً يُكشف عن صحته . ولكن كيف ؟ انني أجهل ذلك . ولكن معرفتي بسعة الصلات التي أقمتها في الشرق تسمح لي بالالحاح في إيجاد رجلٍ جدير بأن يقود هذه المهمة الكبيرة ، التي هي علمية وديبلوماسية في ان واحد .

إنّ هذا العميل ينبغي أن يتدخل ، متى كان ذلك ممكناً ، لدى هذه القبائل البدوية ، وأن يقاسمهم حياتهم ، ويكسب ثقة رؤسائهم . يجب عليه أن يضع حداً للصراعات الأخوية ، وأن يقنعهم بالاتحاد ، وأن بامكان فرنسا ، يوماً ما ، أن تساعدهم في

قذف نير الأتراك عن أعناقهم . ثم إنَّ عليه ، من بعدُ ، وإذا كان ذلك ممكناً ، أن يفحص قوة هؤلاء الوهابيين ، وأن يتعرف أسرارَ أواسط جزيرة العرب ، وأن يحدد هوية الرؤساء الذين يقودون شعبها ، وأن يتعامل معهم ، ويوقع معهم معاهدةً ما .

اننا نعتمد عليك ، وأعيد ذلك ، في إيجاد الرجل الجدير بهذه المهمة : إنّه سيكسب شكر الامبراطور ، وعرفان جميل العلم .

دروفيتي ، مذكرات (آب ١٨٠٩)

النزول على الساحل السوري بينما ينحدر الروس من القفقاس . اقتسام الامبراطورية العثمانية مرة واحدة . ومن هناك اقتحام الهند . هذا بالتأكيد الحلم القديم للواء القائد العام الذي غدا ، بفضلي ، مشروعَ الامبراطور . إلّا أننا للوصول إلى ذلك ينبغي أن نتوصل إلى التحالف مع البدو . إنّنا نستطيع بقرار من

مجلس الشيوخ تقنين الدنيا بين نهر التيبر ومفاتيح جبال الألب ، والاصطدام هنا ، في هذه الزاوية المحرومة من الكرة الأرضية ، بشعب مجهول ، لا يستطيع أحد أن يفهمه أو يعرفه ، لا الامبراطور ولا أنا ، ولا المواطن دوساسي خاصة . وأقل منا معرفة عملاؤنا في سوريا ، الذين أدفع لهم الرواتب لأمور أخرى غير رواية مفصلة ، كل شهر ، عن أمزجة الباشا الذي يعيشون حوله .

لقد قرأتُ تقاريرَهم مرةً ومرات ، تقارير ولاية دمشق حيث أملك في الموانىء عملاءَ فاسدين ، أغنياء جداً ، وهم يقبضون من الأنكليز من دون ريب ، وكذلك تقاريرَ جماعات أطراف العراق التي تعلن مدنها البصرة وكربلاء وبغداد والموصل ، منذ عشرين عاماً عن اكتساح جيوش فارس المفترض . يا لبؤس جماعتنا وضآلة شأنهم ، وكم أود لو كان بإمكاني أن أرسل سريعاً ، من وقت لآخر (كبوشي باجي)★ ، في مهمة خاصة ، يكلف فيها خنق التنابلة الكسالى ، وخصي الخونة .

★ شرطي خاص للتحقيق لدى الأتراك .

ان البدو ، بالتأكيد ، ومن أعماق صحرائهم يُرْهِبُون جميع هؤلاء الذين عدموا حسّ الكرامة : كائن خلف الكثبان ، وسطو دام على القوافل، ومسافرون تائهون يسلبون ثم يخنقون... هذه هي الصورة الدامية التي تلطخ التقارير . إنّ البدوي ، كما يقولون ، ليس إلا غولاً مجرداً من كل شفقة ، وخاطفاً قاسياً بالتأكيد ، وعقبةً لا تحتمل في طريق تجارتنا بجميع أشكالها ، وأمام إغناء عملائنا القنصليين م . م . تاييوت ، وبالافوان وشركائهما .

وبإمكاني، مع ذلك، أن أحدسَ بوجود شيء ما، في هذه الصحراء ، شيء آخر غير السلب الدامي ، شيء يشبه التنظيم ــ ربما كان تنظيماً إقطاعياً ــ أو مخططاً إجمالياً لتوازن قومي ، شيء ما أخيراً يمكنُ إقامةُ نوعٍ من الديبلوماسية عليه . ولكن كيف نتأكد من ذلك ، بما أننا لا نعرفُ شيئاً ما ، أو ما نعرفه هو أقل من القليل .

فهؤلاء البداة يملكون الخنجر السريع . ولا يحبون البتة أن يأتي إنسان ما ليتجول قريباً من خيامهم ، إنّ عبد الله الفار كثيراً

ما حدثني عن هؤلاء النصارى الذين حاولوا اختراق أسرار الصحراء المحرقة . وهكذا يتنكر الواحد منهم في وهم إقناع الناس بأنه مارق من دينه ، ثم يصل إلى قبيلة ، تكون مضيافة في أول الأمر . ثم يدفعهم أمل النجاح ، وإثارة البريق عند جمعيات الجغرافيا في لندن أو برلين ، فيغادرون المخيم في المساء ، لكتابة ملاحظات ، وخربشة رسيمات ... ثم يفاجئون ، ويستيقظ حقد البادية الأزليّ ضد الشيء المكتوب : فيقطع العنق ، وتنثر الملاحظات مع ريح الصحراء ، وتبقى أسمال النصراني مرغوباً فيها .

ويقص عليك بعض الذين تمكنوا من الهرب أنّ قبائل متعددة تتحارب من دون سبب آخر سوى الغزو ، ومن دون قانون آخر سوى قانون الأخذ بالثأر : وليس هناك ، في الحق ، مادة لترتيبات سياسية واسعة .

إنّ بإمكاننا توقيع معاهدة مع الأتراك ، وبإمكاننا التفاوض مع الفرس ، فها هنا دولتان منظمتان ، الفَرَمانُ فيهما ، الصادر من أعلى ، يطبق ويحترم ، إن عاجلاً أو آجلاً ، أما بين هذه

الجماعات غير المحسوسة من الأسر المتعادية فيصعب الاختيار ، وتصعب المراهنة كذلك .

إنّ أيّ رئيس قافلة يعرف أنه قبل الدخول إلى الصحراء ينبغي شراء رضى القبيلة التي تراقب الطريق . وهو يعرف أيضاً قصر أجل هذا العطف لأنه بَلاهُ ، وبقسوة ، مراراً : فظهور قبيلة أقوى ، وتعني غياب الحامي مع الأتاوة ، تاركاً محمييه لجشع الغالب .

وهكذا يحتاج الجيش الامبراطوري ، وهو قافلة محاربة بهرها الشمس والعطش كالآخرين ، يحتاج بدوره إلى جواز مرور ، ولكن إلى من نتوجه ؟ وأيّ القبائل نختار لنغرقها بالذهب ؛ فكل القبائل المتآلفة الأخرى ستهاجمنا للحصول على حصتها في رسم العبور .

يلزمنا رجلٌ ، كما يقول سيلفستر ، ولكن من يكون ؟ من يستطيع التعرف إلى هذه الجماعات ، ومن بامكانه ، من ثم ، أن يميز فضائلها العميقة من مظاهرها التافهة ، فسيان قطاع الطريق من أفرادها ، واكتشاف رؤسائها الحقيقيين ، وجنودها الأصلاء ؟

من سيملك الطاقة الضرورية لالتقاط عظمة المخطط ، ومن سيوهب فضيلة السكوت ، وإنكار الذات من أجل تحمل العبء ؟.

لن يذهب أحد إلى هناك ، لن يذهب أحد ، فلا عملاء الوكالات والموانىء ، ولا الفارّون من الجندية الأغنياء الذين يديرون حريمهم في القاهرة ، ولا الجنود الضائعون الذين ذهبوا للخدمة في النوبة ... ليس هناك واحد بين الحكامِ الذين خلفهم الجيش الفرنسي على شواطىء الشرق من يستطيع القيام بهذه المهمة . إنّ من نحتاج إليه ينبغي أن يكون مجنوناً .

ينبغي أن يكون مجنوناً ، لأنّ الأتراك سيغضبون عند أول خطوة خاطئة . وأية حركة رعناء ، أو مراسلة معترضة ، أو وشاية من بدويّ مهان ، ستقود إلى أسنان شرطة الباشوات ، وهي آلة بطيئة وموسوسة ، مزودة بأرشيف عمره مائة عام ، يسكنه كتبة عنيدون ومحققون دهاة .

انها الآلة التي تشبه حيواناً أزعج من رقاده فهو يرتجف ، ثم

ترف عيناه أمام المزعج الذي أقلقه واستثاره . إنّها كسولة ، تتمدد في أطراف الامبراطورية الأربعة ، ثم تحرك أعضاءها المخدرة ، مراقبة من ظلال المكاتب التطورات الرعناء لعنيد ملحاح . وتتحرك ، من خلال هذا الجسم الثقيلِ المشاعر ، وتبدأ الأحاسيس في التحرك ، رسائل محترمة ، برقيات حرفية ، فرمانات إرهابية . ويتحرك كل شيء ببطء شديد ، ولا ينقص المذكرات خاتم رسمي ، ولا عنوان مفخم من أعلاها ، فالدابة قد أفاقت وغدت شديدة الانتباه . إنّها تتبع ، خطوة خطوة ، الرجلَ الذي أزعجها وتزن بدقة المصير الذي تهيئه له ، أيكون سمّاً سريّاً ؟ خازوقاً احتفالياً يهدىء لوقت ما المطالبين ؟ ولكن لا ، فالرجل ذو صلة ما بنابليون .

عند ذاك تخبر الشرطة التركية الانكليزي، ويفرّق الباشا إنكشارييه على التجار الفرنسيين، ويعدم بعض المسيحيين، ويضحك الناس من سذاجة باريس .

عند ذلك يثور الامبراطور المهان ، ويهيأ الاسطول ويبحر الفرنسيون لاعادة الأمر إلى نصابه .

وإنني لأتساءل : أفي الحق أنني بحاجة إلى هذا الجاسوس الذي يفتش عنه المجنون دوساسي ؟ إننا بحاجة حقاً إلى أن ينجح في مهمته ؟ وماذا يسمى إذاً ، هذا الجابي المعتوه الغريب الأطوار والذي كان بيننا في العام الثامن ، والذي يتقن العربية ؟.

رسالة إلى الزعيم البارون لالومان ، من فرقة الرماة الخيالة في سالامنكه

من السيد دروفيتي في الاسكندرية (مقتطفات ، آب ١٨٠٩)

هل تعرف أين يوجد لاسكاريس ، زوج جورجينا ، فارس جزيرة مالطا ، الذي يتكلم العربية ؟ أنا بحاجة ماسة إليه ، وبحاجة إلى أن تبلغني بأخباره بما هو معروف عنك من هوس هاوي المجموعات الذي يجب أن يعرف على الأقل ما حلّ به من قبل تلك المرأة التي تعرف ...

رسالة إلى السيد روسو ، قنصل جلالته في حلب

من م . دروفيتـي ، الاسكندريـة (مقتطفـات ، كانـون الأول ١٨٠٩)

أرسل إليّ ، متى كان ممكناً ، رسالة مفصلة حول الفارس (لاسكاريس دوفانتيميل) . لقد علمتُ أنه يقيم في مدينتك . أريده لعمل تجاري محض لا أهمية له : لذلك يكون من غير المفيد الاحتفاظ بصورة ما تكتب إليَّ ، لإرسالها إلى باريس .

رسالة إلى السيد سيلفستر دوساسي الأستاذ في الكوليج دو فرانس

من السيد دروفيتي ، الاسكندرية (آذار ١٨١٠)

سيدي المهمة التي كلفتني القيام بها في رسالتك الأخيرة تلذُّ لي على الرغم من صعوبتها . ستسنح لنا ، كما آمل ، الفرصة

للحديث عن البداة ، لكن اسمح لي أن أذكّرك ، مع التقدير ، أن عصر النبي قد مضى ، وأنّ توحيد هذه الجماعات ، التي هي اليوم مجزأ متفرقة، صعبٌ جداً، شأنها في ذلك شأن الأمارات الايطالية .

لقد عدتُ إلى ملاحظاتي الخاصة بجميع الرجال الذين أعرفهم ، وإنّ بامكاني التأكيد بأنه لا يوجد بين واحد من أبناء باريس المقيمين في الشرق ، من يستطيع القيام بالواجب المطلوب . فالمهمة التي تواجهها تتطلب رجلاً من وزن آخر ، وانني لجد سعيد إذ أخبرك أنني قد وجدته .

إن الفارس (لاسكاريس دوفانتميل) الذي عرفته مديراً لشؤون الضرائب في القاهرة ، قد عانى ، منذ معركة مصر ، من مصير سيء جداً . أنت تعرف أنه كان يقيم في مالطا فارساً من نظام القديس جان ، عندما أقبل جيشنا على مدينة (لافاليت) في عام ١٧٩٨ ، ولقد أعد لاسكاريس هذا ، أفكار رفاقه في النظام لاستقبال أسطولنا، مجنباً إياه حصاراً كان عليه أن

يفرضه ، وكانت دفاعات الجزيرة ستجعله طويلاً وصعباً : كنا ذاهبين إلى الشرق ، وليس هناك وقت نضيعه في مقاتلة هؤلاء الاقطاعيين الذين يمثلون عصراً آخر . إنَّ المكيدة التي نفذها هؤلاء الأصدقاء قد مكنتنا من كسب الوقت . ولقد حملهم بونابرت ، مكافأة لهم على ذلك ، إلى مصر ، على باخرة (القديس زكريا) فيما أعتقد .

إن مزايا لاسكاريس الادارية وتذوقه أمور الشرق (تعلم العربية أسرع من الكثيرين منا) قد ساعدته في الحصول على تقدير قائد الجيش . إنَّ جلالة الامبراطور يذكر ، ولا شك آراء هذا الفيلسوف ووجهات نظره العميقة ، التي تجعله جديراً بأباطرة بيزنطة أجداده : كان يرى أنه ينبغي بناء سدٍّ قوي كبير على النيل لتأمين سقاية ولاية مصر من أعالي البلاد ، وأن علينا أن نتابع العمل الذي بدأناه في القاهرة ، وإخضاع شعب السودان : فمن هناك يمكن أن تزود الزراعة وتربية الحيوانات مصرَ بكل ما تحتاج إليه من أجل التغذية . وعلينا أخيراً ، أن نفيد من عواطف المسيحيين الأقباط لتشكيل فرقة من جنود هذه الجماعة التي

تستطيع بها بسهولة مراقبة العرب* . ولقد ابتسمنا آنذاك عندما سمعنا هذه الترهات ، وربما كنا مخطئين في تقديراتنا .

وإذا ما كان عليّ أن أساعد ذاكرتكم ، فانني أُذكر بالعابثة (جوزجينا) التي عثر عليها هذا الرجل الشيطان في حريم (مراد بك) والتي تزوجها على الرغم من السمعة التي اكتسبتها إبّان حفلات القداس بين ضباطنا . إثنان أو ثلاثة أشهر خطوبة صاخبة : يا لجمالها يا سيدي ! إن مثل هاتين العينين كانتا صالحتين لحكم مصر أكثر من ذلكم التعس (كليبر) .

ولقد طلب السيد لاسكاريس بعد عودته إلى باريس مع زوجته التي لا تنسى ، منصبَ والٍ من القنصل الأول ، ولقد كان يستحق هذا المنصب عن جدارة ، كما أعتقد . أما وقد خاب أمله ، كما يظهر ، نظراً لعقوق وطنه المتبنى (إنه من نيس وليس

---

* آثرنا ترجمة هذه الجملة كما وردت للتدليل على تفكير الغرب تجاه أشقائنا من المسيحيين العرب ، الذين هم مثلنا أبناء البلاد ، ولقد كانوا دائماً إلى جانب وطنهم وأشقائهم في وجه الأجانب المستعمرين . (المترجم) .

فرنسياً) ، فانه قد نفى نفسه إلى جزيرة القرم ، ثم إلى سوريا . ويصفه قنصلنا في حلب ، الذي يجهل كل شيء عن ماضيه ، استاذاً بسيطاً للكمان ، فقيراً حداً ، غير سعيد بحياته الأسرية (أسرتُه مؤلفة من عدة أطفال ، بعضُهم يمكن أن يكونوا قد تحدَّروا منه) .

إن بإمكاننا اقناع السيد لاسكاريس بمباشرة المهمة الخاصة التي تريد ، فلعله وهو الفقير المنسيُّ من الجميع والمتقنُ للعربية ، لا يزال عاشقاً الأفكار الكبيرة التي كانت تلد في ذهنه من قبل .

وإذا ما أخفق ، أو إذا ما كشفته إحدى المناورات فإن بامكاننا التنصل من كل مسؤولية ، وتعليق ذلك بسمعته الغريبة الأطوار . وإذا ما نجح ، بمعجزة ، وإذا ما قاد لنا يوماً ما قبائل الصحراء منضوية تحت راية النسر الامبراطوري ، فإن منصباً قنصلياً ، ووسامَ الصليب ، كافيان للتعبير عن شكر جلالته . وأخيراً إذا ما أدار النجاح رأسه ، فانني سأجد في إدارته ضرائب

مصر ، بعضاً من الأمور المظلمة التي تسمح لي بإسكات ادعاءاته .

وقد كتبتُ للسيد لاسكاريس بطاقةً لا قيمة لها ، حاولت فيها إعادة الصلات التي كانت تربطنا في القاهرة : وسنرى من جوابه إذا كان مستعداً . (علينا أن نحرص في هذه المراسلات ، على عدم كتابة أمر يمكن أن يُقلق الأتراك) .

رسالة إلى السيد لاسكاريس روفانتيميل ، فارس مالطة ، حلب

من السيد دروفيتي ، الاسكندرية (مايس ١٨١٠)

عزيزي الفارس

رسالتُك الطويلة ، المملوءة حياةً ، وانسانيةً ، قد حملت إليَّ الحماسة . إنّني أعترف ، بأنني لم أكن أتوقع جواباً بمثل هذه الحيوية عن بطاقة مرسلة بطريق المصادفة إلى صديق كان عزيزاً

جداً عليّ ، صديق فرقت الحياة ما بيني وبينه . فيا للفرح الذي أشعر به ! بإعادة الصلات إلى هذه الصداقة العذبة، التي لم أنسها ، والتي لم تنسها أنتَ أيضاً .

إن ظلم القدر الذي قادك إلى حالتك الحاضرة قد أذهلني وأرعبني ، فبعد الإدارة اللامعة في القاهرة ، نرى السيد لاسكاريس يحيا الحياة الكئيبة لإحدى المدن السورية ، وهل يلزم رجل السد على النيل ، وغزو السودان ، بتقييد طاقته الجموح ، ومفاهيمه العظيمة ، لكي يحيا في الظلام الحياة الباهتة التي وصفتَ لي .

ليس هناك أكثر إيلاماً من رؤية معاناة صديق وخـادم لقضايا الامبراطورية مثلك .

وليست مرارةَ رسالتك ، مهما كانت مشروعة في الظاهر ، مؤيدةً، ولا ثابتة. فليس صحيحاً، يا عزيزي الفارس، قولُك إنّ أصدقاءك قد أهملوك ، وليس صحيحاً أنّ صاحب الجلالة الامبراطورية قد قدم تجاهك الدليل على ما تسميه ، بتهور ، إهمالاً أو عقوقاً ثابتين .

.

وليس ما أكتبه هنا كلاماً عديم الأهمية يقدم ، بلا تروّ ، عزاءً لصديق خاب ظنه : أنا أعرف ، منذ أيام ، أنهم في مقامات عالية ، وعالية جداً ، يركزون الأنظار عليك . وأنا أعني تماماً ما أقوله لك: إنهم بحاجة ماسة إلى رجل مثلك. وبإمكاني، من دون أن أستطيع كشف الأسرار التي لا يعود أمرها إليّ ، والتي لا أعرفها الآن ، إلّا بشكل ناقص ، أن أعلمك أن باريس تفكر في أن تعهد إليك بمهمة تناسب مزاياك ومؤهلاتك ، وهي بمستوى النظام العظيم الذي خدمت ، والأسرة الجليلة التي تحدّرتَ منها .

.

ولتعرف ، قبل أن نذهب إلى الأمام أكثر مما فعلنا ، أنني أعتمد على كتمانك المطلق . إن المهمة التي أعرضها عليك تتطلب سرية شديدة ، لا بالنسبة لأعداء الامبراطور فحسب ، بل وأيضاً بالنسبة لعملائه الخاصين في مدن سوريا . وهذا هو السبب الذي من أجله أرسلت إليك هذه الرسالة مع أحد رجالى من الإنكشارية، وليس عن وساطة الطريق الطبيعي، بوساطة قنصلنا في حلب .

ولنتفق ، من جهة أخرى ، أن عليك ، بحضور خادمي هذا ، أن تتلف هذه الأوراق بعد قراءتها .

إنّ بعضاً من الشخصيات ، التي تشغل في باريس مراكز عالية ، قد أعلموني بالقلق الذي يشعرون به إزاء المكانة التي تشغلها انكلترا لدى باشوات دمشق وبغداد ، وكذلك ، لدى الوهابيين الذين يكتسحون الجزيرة العربية . ففرنسا ، المخلصة دائماً لسياسة تحالفها مع الامبراطورية العثمانية ، لا ترغب في أن ترى أعداءها يُقْلِقون ، أو ربما ، يخدعون أتباعَ الباب العالي . إنّ بإمكانها ، إذا ما اضطرتها الظروف ، أن تهرع لنجدة القسطنطينية ومعاقبة هؤلاء الذين يخونون مولاهم ، ولإخماد فتنة طلب الحكم الذاتي التي يمكن أن يثيرها المثال المصري المزعج .

إنّ تدخل قوة صغيرة نجدةً للترك (يفكر في أمر بسيط ، ربما في لواء من الجيش فقط) ، يمكن أن يلقى بعض الصعوبات وخاصة إذا ما حملتنا طبيعة العمليات على اختراق الصحراء الكبيرة أو جزيرة العرب كما تسمى : إنها مناطق مجهولة تسيطر

عليها جماعاتٌ عربية لا نعرف إلّا فكرة ناقصة عن المزايا التي يمكن أن يجلبها النظام الذي ستقيمه قواتنا .

إنَّ مهمة قواتنا ستكون بالطبع سهلةً إذا ما تمكنا من الاعتماد على حياد هؤلاء الناس ، أو على معونتهم إن أمكن .

لقد فكَّروا بك من أجل الإعداد ، لدى هذه القبائل التي هي أقل وحشية وخطراً مما يزعمون ، للمَقْدَم المحتمل لبعض سرايا فرنسية مرسلة ، كما أكرر ، لنجدة حلفائنا العثمانيين .

يجب عليك ، إذا ما وافقت على القيام بهذه المهمة الصعبة ، أن تتوجه ، من دون تأخير ، إلى الصحراء ، وأن تقيم علاقات وصداقة مع أكثر قبائلها أهمية ، وأن تحدد هوية أُمرائها ، وأن تدرس قوتها العسكرية . وينبغي عليك ، من جهة أخرى ، أن تحدد ، بدقة كبيرة ، أماكن آبار المياه الموجودة بين دمشق وبغداد ، وأن تدرس حالة الطرق ، وتتعرف التحصينات التي يمكن أن تتخذ منها هذه الجماعات مخابىء لها .

السادة م . كاتافاغو ، من صيدا ، سيتلقون تعليماتي بالموافقة على دفع الفواتير التي ستطلبها ، ضمن شروط معينة وفي حدود المبالغ التي سنحددها عندما أتلقى جوابك الذي ، أنا متأكد ، من أنه سيكون بالموافقة . ويمكنك ، في هذه الحالة أن تعد نفسك للرحيل في الحال .

رسالة إلى السيد لاسكاريس دوفانتيميل ، فارس مالطة ، حلب

من السيد دروفيتي ، الاسكندرية (تموز ١٨١٠)

عزيزي الفارس،

فَسَّرتُ رسالتك على أنها بالموافقة ، كان نصُّها غامضاً ، إلا أنني أرى في ذلك علامة حذر ؟ وهذا تصرف ممتاز . ممتاز . أما الولاية التي تطلب ، فستستحقها فيما بعد ، سيكون ذلك من

مهامي ، ولا تفكر فيه ، وأكمل ، بسرعة ، استعداداتك للرحيل .

لن تكون غاية الحملة المحددة من قبل رئاسة الأركان ، وكما سجلتَ بنعومة ، مقبولةً لدى الأتراك . إننا قد نضطر أحياناً ، وحتى مع الأصدقاء الأعزاء ، إلى التزام الحذر . والحق ، أنها يمكن أن تكون ، كما تنبأت ، عملية أوسع ، كما يمكن أن تشارك فيها القوات الروسية ، لتحل المسألة الشرقية إلى الأبد . لا تطلب مني أكثر من هذا ، ولنبق مع هذه القضية ، في حدود أنصاف الكلمات .

ولنلاحظ ، مع ذلك ، أن الوقت يضغط علينا ، فالاستعدادات الأولية قد بدىء بها ، ونحن نقدر أنك ستنجح في مهمتك إبّان عام تقريباً . إنني ، حوالي نهاية العام ١٨١١ ، أعتمد عليك في إقامة التحالف المنشود مع أكبر القبائل البدوية ، ذلك التحالف الذي سنستعمله أحسن استعمال خدمةً لمصالح جلالته .

ينبغي ، حتى أتعرف إلى تقدم خطواتك دون أن أُعرّضها لأعين المتطفلين ، أن نتفق على طريق سليم للاتصال . سيتلقى السيد كورانسيه في بغداد ، والسيد روسو في حلب التعليمات بوضع شيفرتهما بتصرفك : وهكذا يغدو بامكانك ، ومن هاتين المدينتين ، إرسال برقيات إليّ كلما كان ذلك ممكناً .

ولما كان من غير المرغوب فيه أن يطلع قناصلنا على نصوص البرقيات هذه ، فلتحلّها بنفسك ، حسب الشيفرة المرافقة ، التي يجب أن تتلف بعد أن تحفظها .

وسأعنى، من جهتي، بإبلاغك التعليمات والأخبار عن طريق هذين الديبلوماسيين ، وبوسائل أخرى موضوعة بتصرفنا ، وخاصة في دمشق .

قال لي مقيم في هذه المدينة ، أعرفه من زمن بعيد ، أن باستطاعته أن يصل خلال خمسة عشر يوماً ، إلى أية قبيلة من قبائل الصحراء . إنه يمتهن الحصول على جوازات مرور من أمرائها ، جوازات يبيعها مرة ثانية بثمن غالٍ إلى رجال

القوافل . سنرى إذا كانت هذه الوسيلة مؤكدة . انتبه دائماً إلى رسائلي ، وأكرم كثيراً حامليها ، وإذا ما قررت شيئاً فلا تنسَ مصالح الامبراطورية .

أُضيف ملاحظة شخصية . ربما ، كنت تعرف كم يحرص تجار الآثار مثلي على الأشياء الجديدة . لاتتأخر ، في ملاحظة ذلك في تدمر ، وفي شراء ما تجده منها . عندما نحتل هذه المناطق ، أُقدر أنني سأفتش برفقتك عن هذه الكنوز الهيلينستية المدفونة تحت رمال سورية . باريس وفيينا ترغب هذه الأشياء وتشتهيها . ويمكن أن تكون لندن كذلك ، وأن تدفع أكثر . وإن كانت سبل الاتصال بها صعبة في الوقت الحاضر . أُحب ، عند ذاك ، كما آمل ، أن تقاسمني هذا الوقت المجزي ، والذي هو ، في مجموعه ، خدمة جلّى للتاريخ .

الفصل الثاني

الصحراء

(١٨١٠ - ١٨١٢)

((قابلتُ ، للمرة الثانية ، في اللاذقية ، فتح الله الصايغ ... الذي رافق الرحالة لاسكاريس دوفانتيميل ، البيمونتي ، والمرسل في مهمة لدى بدو الصحراء من قبل الامبراطور نابليون ...
كان فتح الله الصايغ ، الذي سار في أعقاب الرحالة ، يكتب من جهته ما رآه ، وما سمعه .)) .

ميشو دوبو جولا
مراسلات الشرق (باريس ١٨٣١)

فتح الله ــ ملاحظات (تشرين الأول ١٨١٠)

ياسيدتي العذراء . لو رأتني أمي . كم أنا بعيد عن حلب ، التي كنت فيها أبيع ، الفستق الحلبي للأغراب ! وهأنذا أضرب بالسوط حماراً حروناً خاملاً ، على طريق مغبرة ، وراء طائش أحمق ، مجنون ، أقسم بالله أن يقدم رقبته للبدو ليقطعوها . إنني أبغي الثروة على الأقل ، إلّا أنَّ الأمر قد اتخذ شكلاً آخر : فالنقود تلتمس لدى الفرنجة في المدينة ، لا عند البداة في الصحراء . فلننتظر نهاية هذا الأمر على كل حال .

ولنعد القهقرى : لقد بدأ كل شيء أمام بيت لطف الله . مررتُ هناك ، بهذا الغريب ، ذي اللحية ، الذي يحمل علبة

كان . ولقد أدرت رأسي : صحيح أنني أحببت الموسيقى دائماً . والأمر بعيداً جداً عن الفستق ، إلّا أنَّ علينا الاعتراف بأن الأغراب ، فيما يتعلق بالموسيقا ، هم أكثر كفاية منا نحن المارونيين، ومن إخواننا المسلمين أيضاً. اقتربت، عند ذاك منه ، وعرضت عليه فستقي ، وأحسست ، في ذلك الوقت ، حقاً بشيء من الحرارة تشدني إليه . ذلك أن هذا الرجل يملك في عينيه شيئاً ما . ما هو ؟ شيئاً من السحر حقاً .

الخلاصة ، أننا بعد خمس دقائق ، كنا جالسين جنباً إلى جنب ، نقرض حبات الفستق ، فوق تخم بستان . لم يدفع لي ثمن ما التهم منها ، إلّا أنه باعني ، بعد ساعة ، خمسة دروس كان ، لقاء ما تناول منها . وما أصعب أن أخدع على هذا الشكل ، وفي مثل سني . لكن الذي يجب أن أقوله هو أن هذه الدروس لم تكن غالية ، ثم إنني أحب الموسيقى ، كما سبق أن قلت .

وكانت دروساً ساحرة حقاً ، فالسيد لاسكاريس يتقن

العزف على الكمان ، إلّا أنه ، معلماً ، غير قادر على كسب معاشه ، وعلى الحصول على الدراهم التي تعينه على إصلاح بلاط بهوه ، الذي كان بحاجة إلى الاصلاح . كان يحلم باستمرار : كنت أحس بأنه كان يطير إبّان تقليبي سلم الأنغام ، إلى مسافة عشرة آلاف ميل بعيداً عن حلب . قد تكون رحلته إلى نيس ، حيث ولد . فالله يعرف كم كان يحب مقاطعته نيس . وهكذا كنا نثرثر بدلاً من أن نتعلم (الصولفيج) . وهكذا أصبح بوسعي أن أقص عليه قصة شجرات الزيتون ، وشجرات الزينة ، وأن أتباهى مثله بروائع قصر آل (فانتيميل)، فهذا اسمه (الشوفاليه لاسكاريس دوفانتيميل) .

وكان عليَّ أن أصغي إليه ، آسفاً على ما دفعت من ثمن لقاء دروسي . فأنا أحب ما يرويه لي ، مع ذلك : ولقد كنت أحب الفرنسيين دائماً ، وأحب ثورتهم ... وكنت أهتم بحكايات نيس هذه . ثم إنني كنت أقول قد أذهب يوماً ما هناك ، وسأكون بحاجة ، بالتأكيد ، إلى تعلم ما أستطيع حول تلك البلاد .

وكم كنت أحمق . فيما يتعلق بأمر الرحلة ، فها هو ذا ما كان بانتظاري : حمار عنيد ، وغبار كثير .

ولقد سألته يوماً ما إذا كان يعرف نابليون ، فأجابني وهو يتدفق في حديثه : « أنت تتساءل فيما إذا كنت قد عرفت الامبراطور ؟ نعم لقد عرفته منذ خمس عشرة سنة ، إلّا أنني خالطته في الوقت الذي لم يكن فيه سوى جنرال بسيط مغضوب عليه . » . وقصّ عليّ ، انطلاقاً من هذا الحديث ، قصة مصر . لقد قام بكمية كبيرة من النشاطات السرية ، حين صحب حملة نابليون على مصر (كان ذلك مفاجأة ، فقد شككتُ ، عندما استمعت في بادىء الأمر إلى لهجته ، في كون السيد لاسكاريس قبطياً .) ، ولقد مارس ، كما قال ، أعمالاً في منتهى السمو ، مستشاراً ومديراً ماليّاً ، وناصحاً لقائد الجيش . إلّا أنني عندما كنت أرى قذارة لحيته ، وبلاط غرفته المقلوع ، كنت أقول « هل من الجائز أن يحكم هذا الانسان مصر ، ثم يأتي ليموت جوعاً في حلب ؟ » .

وكنت أقول لنفسي « ربما كان السيد لاسكاريس يبالغ قليلاً » ، لكنني في الحق ، أرى الغرباء الذين يعرفونه يظهرون له الكثير من الاحترام ، عندما يلتقونه في الشارع . ثم توجد هذه النظرة التي صعقتني أول مرة ، والتي لا تزال تصعقني حتى الآن . فعيناه السوداوان ، الملتمعتان ، الغائرتان خلف أجفان ثقيلة ، لم تكونا أبداً كابيتين . والناظر إليهما يقرأ دائماً فيهما السرور ، السرور الصريح الذي يدعونا إلى مشاركة رقة الجو في المساء ، أو الغرابة في حالة مدهشة . إلّا أنّنا ، نلحظ فيهما أحياناً غضب حيوان وحشي مجروح ، أو شيئاً ما يرعبنا بشكل غامض . ولقد رأيت هذه النظرة مرتين أو ثلاث مرات تكتسي ثوباً من حزن مضن ، أشد حزناً من نحيب العذراء على الجلجثة .

هذه النظرة على كل حال مؤثرة : فإلى جانب هذا الانسان الذي يظهر أكثر حيوية من الآخرين ، لا يمكن أن أبقى عابساً عندما يكون فرحاً ، أو أن ألهو عندما يكون مقطباً ، إنني أرتجف عندما يعتريه الغضب البارد . إنّه ، على الجملة ، قد استعبدني .

بسبب عيبيه بالتأكيد ، مشيتُ عندما حدثني عن مشاريعه . فلقد قلت لنفسي : في التجارة لا يمكن لهذا الانسان إلّا أن ينجح وهو إنّما يريد أن يتعاطى التجارة ، تجارة جديدة ، بالتأكيد ، تجارة متوهمة ، ولا بد لهؤلاء البداة القساة الذين يعيشون في الصحراء من أن يشتروا أشياء في النهاية ، أليس كذلك ؟ وإذا ما كنا أول من يصل لبيعهم ما يريدون شراءه ، فإن بامكاننا أن نفرض السعر الأعلى . كما يحدث الأمر في تجارة الفستق .. عندما كان السيد لاسكاريس يتكلم ، بدأت أحلم في هذه الغرفة الصغيرة الضيقة . فكل شيء يبدو بسيطاً . هأنذا أرى نفسي أغوي القبائل كلها بمحارمي ، ومُدايَ ، وطناجري . فإذا ما أغناني البداة ، كان لي جيش من التجار المتجولين الذين يبيعون مرة ثانية للبدو ، ما اشتريته ، بالجملة في اللاذقية . كنت ، في خيالي ، أموّل قوافل ، وأثير الباشا بأقمشتي القطنية ، وأفتح الوكالات من دمشق إلى البَصرة ، بينما تقلع بواخري إلى قبرص وأزمير . ولقد عدت إلى نفسي بتأثير نظر أستاذي الحاد ، الذي كان شديد الانتباه إلى أحلامي التي يظهر أنه رافقني فيها من سوق

إلى سوق، وحتى أغنى المصانع وأكثرها ثراء أقول لك الحق، هذا الرجل يشبه عشبة يدخنها الانسان بلذة .

عند ذاك ، وافقتُ ، وبدا كل شيء سهلاً . كان علينا تدبير ألفى (تالير)★، أو أحد عشر قرش، لشراء بضائع السيد لاسكاريس وبغله وحميرنا . ولكن أين يمكن أن يجد السيد لاسكاريس ألفي تالير ؟ وهو في ثوبه القذر ، وأرضية غرفته التي ينبغي أن يعيد تبليطها ! وهل نفكر جيداً ، في أنه لو ملك ألفي تالير لغادر حلب ، ولأقلع عن تعليم دروس الكمان ، أو بدّل مسكنه ؟.

والآن إليك ما تمّ معي ، يوماً ما ، مع خرج مملوء بقطع النقود . قطع نقود مكتوب عليها بحروف فرنجية ، ومصور عليها رأس ملكة من ملوكهم ، قال لي « مئتان من التاليرات كل يوم ، يا فتح الله ، في أثناء عشرة أيام ، اذهب ، يا فتح الله ، يابني ،

★ نقد ألماني كان يستعمل في تلك الأيام .

عند (معلوف) فاشتر الكفيّات ، وعند (صفرة) من أجل الطبول والمُدَى ، ولا تنسَ اللآلىء المزيّفة ، والنِقابات ، والمَراهم . واذهب عند (صفدية) من أجل السُكّر ، وعند (خليل) من أجل القهوة . اشترِ ، يا فتح الله ، اشترِ ، اليوم مئتا تالير ، ومئتان منها في الغد . » .

وليس هناك ما أستطيع أن أقوله تُجاه هذا كله : فهناك الكثير من الدراهم فجأة . هذا تاجر كبير ، قلت لنفسي : إنه واسع الأفق السيد لاسكاريس هذا . ذهبت عند اليهود ، وذهبت عند العرب ، وذهبتُ عند الاغريق ، وذهبتُ عند أهلي . كنت أناقش ، وأفاصل ، وكان أبناء عمي يموتون حسداً .

وهكذا مضينا بعد خمسة عشر يوماً . وحضرتُ صباحَ ذات يومٍ لانتظاره أمام بيته مع دوابي وبالاتِ بضائعي . قال لي « السيدة لاسكاريس خرجت لتقوم بزيارة مع أبنائها الصغار . ولم يبق سوى (كاتينكو) » ، ابنتِه الكبرى ، الشقراءِ التي كان والدُها مولعاً بها والتي لا تكاد تفارقه . عانقها طويلاً ، والتفت

ثلاث مرات لينظر إليها ، بينما كانت قد تسمرتّ في وسط الشارع وهي تلوّح بمنديلها . وتركنا الأسوارَ ، وحلبَ وراءنا ، من باب دمشق .

والخروج من حلب باتجاه حماة أعرفـــــه: نسير بين البساتين ، والقنوات ، والبرية . وبعد هذا يأتي المجهـول . كان معلمي مستثاراً ، إلا أنّهُ كان لطيفاً أيضاً . كان يدندن وهو على بغله : سريعاً ما نغدو أغنياء ، يا فتح الله ، أغنياء ، أغنياء ...

وفي حماةَ بدأت الشكوكُ تنتابني ، أولاً عندما أراد أن يدفع رسم الدخول عن جميع بضائعنا، بينما كان بإمكاننا أن نتسلل بهدوء من بين البساتين ، كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر ، وجميع رجال الجمرك ينامون في الساعة الثالثة . الخلاصة كان علينا أن ندفع : خيّل إليّ أنه كان يسخر مني . ولقد وجدت غرفة ، لطيفة تقريباً ، إلّا أنه لم يكن هناك من وسيلة لابقائه في مكانه . كان يريد أن يخرج في الحال ليتنزه ، كما قالَ لي . أنا أعرف جيداً ما تقوله أمي « الماروني الصالح في السوق ، أو في

بيته ، ليس له أن يخرج في نزهة » . فقد نلتقي فصيلةً تركية ، أو جماعة من اليهود مصادفة ، وعند ذاك نتعرض للخطر . إنني أطلب إليك أن تقول لي ما نفع التنزه في الشوارع ، أو الذهاب لتناول القهوة في مقاهي حماة ، أو المشاركة في جميع هذه المحاورات ، والاتصال ، بغباء ، بجميع هؤلاء الذين كان يسأل عنهم دائماً .

أما الذي بدأ يقلقني حقاً فقد كان مع حكاية القصر ، لاحظوا ، كلمة كبيرةً جداً عليه ، لقد كان خراباً ، أو بالحريّ كومة من الحجارة ، يلتوي فيها العرقوب ، أو عشّاً للعقارب ، ووكراً للأفاعي . إلّا أنّ المعلم كان يردد أنه يعود إلى زمن الحروب الصليبية ، وأن عليه رؤيته . ولقد بدأ يركض كعنزة على ركام الأنقاض ، ثم يمشي طولاً وعرضاً وهو يطلب مني أن أعد خطاه ، ثم يخرج دفتراً صغيراً ويبدأ بالتسجيل فيه : مائة وعشرون في الطول ، وستون في العرض ، وثلاثة في الخندق ، وارتفاع البرج عشرون ، والجدران من الآجر ... هل تفكر أن هذا كله لم يجلب الناس .

كان الأطفال قد ركضوا أول القادمين ، ثم حضر بعض النسوة ، ثم الشيوخ ، وأخذ الجميع يهذرون حول السيد لاسكاريس الذي دعا بحركات غريبة ، بأن يذهبوا إلى الشيطان ، سرعان ما وصلت المفرزة التركية ، كنا قد وجدنا أنفسنا ، فجأة وحيدين . لقد ألقَوا القبضَ علينا ، ثم سجنونا ، بكل بساطة ، في البرج ، ووضعوا على بابه قفلين ، مهيئين لنا ، بذلك ، الوقتَ لقياس السجن ، الذي كان أربعة أمتار عرضاً ، وخمسة بالطول . وكان الفارس لاسكاريس دوفانتيميل مرتاحاً، غيرَ مشغول البال ، لا على مصيرنا ، ولا على بضائعنا ، أو دوابنا . وكان يرى بوضوح ، أنه لم يتح له البتةَ رؤية إنسان ما يخوزق على أيدي العثمانيين . وإذا ما كان صحيحاً أنهم أطلقوا سراحنا في الغد ، فإن الصحيح أيضاً أنَّ ذلك قد كلفنا غالياً جداً . كان علينا أن نبيع كثيراً لنتمكن من استرجاع ما قدمناه ، رشوة للضابط الذي سجننا ، ثم أطلق سراحنا .

لاسكاريس ، مفكرة يومية (تشرين الأول ١٨١٠)

فجأة وجدنا أنفسنا في الصحراء العريضة . لقد تخيلتُ

جفافاً بطيئاً للطبيعة ، وحقولاً تتناثر فيها الأشجار شيئاً فشيئاً لتغدو قليلة ، ثم نادرة ، وحرباً طويلة غامضة بين حياة البساتين الصاخبة ، وموتِ الرمال الصامت ، بين الخضرة واللون الأصفر . على أن شيئاً من ذلك لم يوجد .

فليس هناك ، من أشجار الصفصاف التي تحازي العاصي ، وحتى الحصى الذي يحيط بي ، أيّ تطور تدريجي ، يمكنني ، وأنا أعد خطوات بغلي ، من تعويد عيني وروحي على هذا التجريد الذي أتوغل فيه . ففي لحظة واحدة توقف كل شيء ، وجفّ كلُّ نبت ، وماتَ كلُّ عشب .

هأنذا أسير راكباً ، أمتطي الطريق الذي يصل الآستانة بدمشق ، وهو محور الامبراطورية المزدحم بالعربات ، والسبّاخين الذين يئنون تحت ثقل سلالهم القصبية ، والخيالة الذين يفتحون ، بضربات سياطهم ، الطريق أمام عظيم ما . كانت أشجار الصفصاف ، تخفي ، على حوافي النهر بقلاً مائيّاً ظليلاً ، وأسْلاً مائلاً للصفرة يهتز برفق . وكنا نميّز النبك خلفَ غابة من أشجار

الزيتون ، ونتخيلُ دمشقَ وحياتَها الزاخرة ، التي يغذيها ريفها الغنيّ . فدمشقُ ، تقومُ في نهاية هذا الطريق .

إلّا أنني استدرتُ يساراً . لقد غادرتُ الزحام ، وسرتُ في طريق ، يكاد يكون رئيّاً ، وربما قاد إلى (صدد) أو إلى (القريتين) . وفجأة ، على بعد خطوتين أغلق الطريق على الأشجار وعلى الماء ، وأغلق على صراخ الحوذيين ، وصرير العجلات ، وأغلق على ماضيَّ كلِّه .

ليس هناك أيةُ ضجة ، ولا همسة ، ولا طير ، أنا في العراء . لقد أخترتُ ، وأخذت قوة التناقض تُشير إلى اختياري هذا ، وتجعله محتوماً ، متعذراً تغييره ، مثلما كانت هذه الأحجار البيض التي تلتمع أمام العين ، تحتم علينا أن نلمسها ونمسها مساً خفيفاً ، ثم نمسَّ هذا الغبار الأكدر الذي يدور في البعيد ، ونمسَّ أخيراً هذه الشمس .

لقد اخترتُ طريقي هذا بناءً على رسالة غامضة من عسكريّ قديم ، عديم الاستقامة ، وبناءً على بضعة مقاطع

تدعوني من الاسكندرية للقيام بمهمة تبدو بوضوح صعبة التحقيق ، وربما كانت قاتلة . لقد اخترتُ ، في الخمسين من عمري ، وللمرة الأولى ، وأحب أن تمنح هذه الصحراء اختياري هذا بريقاً خاصاً ... لقد اخترتُ طريقي مُشيداً بولادة جاسوس ، وموت من كان يدعى لاسكاريس .

لاسكاريس . يا اسماً كبيراً لأباطرة نيقيا أجدادي ، كم كنت ثقيلاً علي . وأنتِ يا (اكزوريا) العذراء البورفيية التي زوجت ، من خمسة قرون ، من فرنجي متوحش يسمى فانتيميل ، لأنه يعرف كيف يحارب . وأنت يا تيودور أيها الأمير العالم ، الذي ساس عالماً ، وأنت يا جان ، أيها المعلم الكبير في مالطا ، المنزلُ الرعبَ بأعدائه ... كم أثقلتم عليَّ يا أجدادي ، وكم كان حاضري قاتلاً ، حين لم أكن إزاءكم سوى قيّم منزل لدى كورسيكي* أو مجالِ هزءِ أطفالِ الشوارع في حلب .

ألا إن لاسكاريس قد مات على هذه الطريق ، طريق

---

* يعني به نابليون ، عندما عمل إبّان حملته على مصر موظفاً في إدارة المخازن .

دمشق . وطير الكوكو المشهور دمرته امرأته الشرسة ، وخبله أولاده الصارخون ... لاسكاريس هذا قد اختفى في الرمال . فلم يعد هناك أجداد ، ولا رفاق ساخرون ، ولا زوجة خوفة حاقدة . لم يعد هناك سوى جاسوس . فالباب قد فتح على مستقبل عريض .

ولقـد أحسستُ بأنـنــي تغيرتُ عندمـــا وصلنـــا إلى (صدد) ، فلقد كنت أكثر استقامةً على سرجي ، وأكثرَ انتباهاً لتفاصيل الدرب ، متعلماً كيف أتعرّف ، في الوحدة والصمت ، إشاراتِ الخطر أو الأمل . وهكذا بدأ نور ما بعد ظهر هذا اليوم الخريفيّ وريحه الحارة في إبعاد الكآبة وأحقاد حياة من الإخفاقات . فلاسكاريس الذي غادر جلد عازف الكمان المتجعـد ، فوق شجرات المشمش في حلب ، والذي غيّر ريشه ، قد تكشف عن مغامر حيٍّ وصلب ، لا يحمل وساوس ، ولا شرفاً ، ولا أحلاماً ، إنما يحمل في نفسه موهبةً تؤهله للحياة من جديد .

كان الحَدّاد ، الذي نزلنا عنده في (صدد) ، قد عاش لدى البدو . كان سادةُ القرية يروون ، بصوت خافتٍ ، حولَ

ناره . مغامراتٍ مرعبة نزلت بالتجار الذين كانوا سذّجاً بتعاملهم مع الأعراب . وهكذا كاد خادمي يموت رُعْباً وخَرَقًا .

لقد أخذ يفتش ، من جديد ، عن وسيلة لهجراني ، كما فعلَ ذلك بعد هذا الحادث المضحك مع رجال الشرطة في حماة . كان الحداد يدخل بصمت ، زاجراً أحياناً ، بكلمات قليلة ، الرواة الذين كانوا يسرون كثيراً مما تسببه حكاياتِهم من رعب . الآن بالامكان ، حسب رأيه ، الحياةُ والعملُ تحت مخيم من القماش . والبداة قساة ، من دون ريب ، إلّا أن قصصَ القتل هذه كانت تثير الابتسام لديه . قال لي « نم قليلاً ، وراقب أقمشتك القطنية ، واخف تاليراتك ، إذا كنت تملك بعضاً منها . تكلم أقلَّ ما يمكن من الكلام ، وأنصحك ، خاصةً ، بألا تخاف أبداً . فالتسليم بضعفك يمكن أن يقودك إلى أكبر المخاطر . » .

استجوبني ، في صباح اليوم التالي ، وبعد أن تخلص من المتطفلين ... استجوبني مطولاً ، محاولاً معرفة النزوة التي قادتني

إلى ممارسة تجارة خطرة مثل هذه . ولقد سعدت بهذا الاستجواب الأول ، وبهذه الثرثرة ، وهذا التحقيق الذي كان البدو يضايقونني به . أعتقد أنني استطعتُ التخلص منه ، وإقناعه بأنه لم يؤوِ سوى قبرصيّ ساذج ، يحلم بجمع ثروة بعيداً عن المزاحمة .

ولقد أعاد عليٌّ نصائحه ، وحدد ، بعد مناقشة طويلة ، وباشارات أعادها عدة مرات ، وصف الطريق إلى بئر منعزل تخيم حوله ، كما قال ، قبيلةٌ ، قليلة القسوة . ولقد شكرتُه بحرارة . كان فتح الله ينتظرني ، وهكذا توغلنا أكثر في الطريق المغطى بالحصى ، عليّ أن أترك على يميني الهضبة التي تطل على صدد ، وأتبع سرير نهر جاف ، وأمر بين صخرتين ، يمكن تشبيهها بكبشين ، وأحاذي سهلاً حتى أصل إلى بئر يمكن أن يكون مخيماً حولها رجال مرعبون يتجنبهم الجميع ، كان عليّ أن أتعرف إليهم .

كنا نمشي منذ الساعة الثامنة في الشمس العالية الحامية من دون أن نشرب الماء ، أو نرتاح قليلاً إلّا لبضعة لحظات . كنا نحاول فيها معرفةَ الاتجاه الذي كنا نقصد . كان فتح الله يتذمرُ

على حماره ، مُنْهَكاً بسبب الحر والقلق . إلّا أنني كنت أسيرُ تحت نور الشمس الذي غدا عذباً دون أن أحس بالتعب أو بالعطش ، تغمرني الثقة الحزينة بأنني سأجد سريعاً البداةَ . وسأجد لديهم حريتي ، وموتي من دون ريب .

لمحناه سوية ، أنا وفتح الله . كان يركب بعيراً وحيد السنام واسعاً ، وسط مسيل ماء كانت تنبت فيه باقات من أعشاب كامدة اللون . كان متمدداً تماماً على الردف ، وساقاه تنزلقان على جانبي الحيوان ، بينما تعلقت يداه بخصل من وبر السنام البني ، حيث كان رأسه يرتاح . كان لوضعية الجسم الخائر القويّ على الدابة مظهر مضحك ، ومقلق أيضاً ، ذلك أن جمود حركة البدوي التام حملني على الاعتقاد للحظة ، بأنه كان ميّتاً . (عرفت فيما بعد أن هذه الوضعية الأكثر راحة بالنسبة للجمّال ، هي التي يعتمدها عادة الرعاة والحراس ، فهم يبقون ساعات طويلة جامدين على حيواناتهم ، إلا أنه باستطاعتهم ، بقفزة من الصلب ، أن يعودوا إلى السرج ، ليعيدوا عنزة أو لينذروا بالخطر .) .

لم تكن العينان اللتان تراقباننا ، بالطبع ، عيني ميت . كنا نقدر ، على العكس من ذلك ، أنَّ في هذا الجسم المسترخي كليّاً ، انتباهاً ويقظة ، وطاقةَ سنّوَر كامنة . ولقد أحسست فيه ، كلَّ قسوة العالم المجهول الذي سأغرق فيه بعد قليل ، عن عَمْدٍ ، وبعدَ تروٍّ .

وفكرتُ فيما يمكن أن نفعل وأنا أدفع بغلي باتجاه الممر الضيق الذي كان جمله قد تركه حرّاً في الدرب . أيطلق صرخة وحشية ؟ أم يستلُّ خنجراً من غمده ؟ أم أنه سيفر أمام هذين البائعين المتجولين اللذين لم يكونا ليثيران ، مع ذلك ، كثيراً من القلق والخشية ؟ انتظرتُ كلَّ شيء ، ماعدا هذا الصمت ، وهذا الجمود المقيت ، فالرجل لا تصدر عنه أية حركة ، والدابةُ لا تكاد تتنفس . أما العينان السوداوان الصغيرتان فقد تابعتنا قدرَ استطاعتها ، ثم استدارتا لتركزا على الكون الواسع . كنا قد مررنا ، وقد سكن روعُنا بعد هذا الاتصال الأول ، الذي كان في مجمله سلميّاً ، وحتى مهيناً ، لم نستحق معه كلمتي « مَنْ هناك ؟ » يطلقهما خفير .

وانفتحَ أمامَنا سهلٌ صغير في نهاية سرير النهر . وهناك إلى الشمال قليلاً قريباً من القريتين ، وفي أمسيةٍ حارةٍ من أماسيّ شهر تشرين الأول ... رأيت للمرة الأولى مخيّماً للبدو .

كانت الخيام تمتد كبقع داكنة فوق الأرض الصفـراء ، وتتحدد واطئة قصيرة تشبه الكوم التي يضعها الخلد عندما يحفر وكره . ويبدو نظامُها ، الدائريّ حول خيمة الأمير ، أقل قسوة من رَبَضِ القرية والمساكن الأخيرة فيها منصوبة هنا وهناك ، في أيّ مكان ، عن طريق المصادفة ، أو فوق أرض أكثر تسطحاً . ولقد عُنِيَ الجميعُ بأن يتجهوا بفتحاتها نحو الريح ، وكانت جميعُ هذه الأبواب الطويلة تنفغرُ أمامَنا وكأنها أشداقٌ مستعدةٌ لتعض .

كانت طرق هذه القرية الوقتية الملتوية بين الخيام مزحومة بالحيوانات : بعض حمير منحرفة المزاج ، والكثير من الماعز والغنم تحرسها جماعات من الأطفال اللاهين . كانوا يثغون ، ويزقزقون فرحاً ، ويضربون بعصيّهم الحملان المجنونة التي كانت تضيع بين البالات .

كانت الجيادُ مربوطة إلى أوتاد خيام مالكيها ، وكان بعضُها يرعى ، بمعزل عن آخر البيوت ، في نوع من بستان ، أمّا الجمال فكانت تحيط ، في هذه الساعة المتأخرة ، بالآبار التي يخمن أنها تبعد بضع مئات من الأمتار . إنها ستعود سريعاً ، هازةً ، بخطاها الوئيدة القِرَبَ المتكدسة فوق سنامها ، والتي يتدفق منها الماء .

وتتصاعدُ من تجمع الناسِ والحيوانات هذه رائحةٌ حريفة : فالروثُ الملقى هنا وهناك ، ورائحةُ العرق في حرِّ الشمس ، ودخان الروث المجفف الذي يحرق على النار ، ورائحة العفونة ، دلائلُ على قلة الماء ، لدى هذا الشعب الذي يعيش في الصحراء .

وسيكون علينا تذوقُ رائحةِ العفونة هذه ، والكشف بأنوفنا عن اقترابنا من مخيم ، وتمييز القبائل عن طريق رائحة خيامها .

إلّا أننا ، فتحَ الله وأنا ، قد هبطنا الطريق نحو القرية ، نشم بلطف ، الأنف منا حذر ، والحنجرة مشدودة . وأحاطت بنا طائفة من الأولاد ، أدهشتها تسلية رؤيتنا . كان الرجال يدخنون بهدوء أمام خيامهم ويجيبون على تحيتنا كما يفعل أرباب الحوانيت في

حلب : لم يكن في إثرنا جلبة هازئة ، ولا صياح حاقد ، ولم يتبعنا كلب مرخى : فهل نحن حقاً لدى قوم وصفوا لنا بالقسوة والشدة ؟.

وسألتُ عن خيمة الرئيس ، وسمعت صوتي ، بعد الكثير من القلق والمخاوف ، قد أخذ يخرج سيّئاً ، وأخذت أسمع منه ، على الرغم مني ، نوعاً من الخشوع والتواضع . فسؤالي لا يتفق مع الصحراء ، إذا كنا نبغي تجنب المزاح . قال لي أحدهم « رئيسنا ، اللهُ في الجنة » . واستأنف الآخر « ليس لنا من رئيس ، أنحن من الترك حتى نطيع أحد الباشوات ؟ إذا أردت معرفة أمير قبيلة الحسن ، مهنّا العظيم ، فاذهب إلى آبار كريت ، على بعد أربعة أيام من هنا . » .

وبدأت أفهم ، بعد أن طفت من خيمة إلى خيمة ، تلاحقني سخريات ثلثي القرية ، بدأت أفهم من أنا بالنسبة للبداة ، ولماذا لم يقطعوا رأسي في الحال ، وعرفت ما ينبغي عليَّ عملُه .

فليسَ بائعٌ متجول مجهول يزور مخيم البدو من بني الحسن شيئاً نادراً ، كما خيل لي ، ولا هاماً ، أو شيئاً عجيباً من نحو ما . كان على لامبالاة الخفير أن تنبهني . والحقيقة ، وان كانت مخيبة للآمال ، هي أني هنا شخص لا معنى له ، لا يحمل معه أيَّ شيء من الغرابة ، وقد يستحق الاحتقار ، وليس الخنجر بكل تأكيد . أما تحيّةُ الأمير ، فينبغي عدم التفكير فيها . فليس لبائع خام بالمفرق مثلي ما ينشده لدى جلالة أمير القبيلة : هناك علاقات اجتماعية يتوجب على الجاسوس أن يتفهمها ويتعلمها .

وهكذا أفسدتُ دخولي إلى عالم البادية . ونحن أخيراً ، على قيد الحياة ، كما ردد فتح الله ذلك مراراً ، ولقد تبين لنا أن حكواتية قرية صدد المرعبين قد كانوا في تلك اللحظة متآمرين .

وقادونا ، بعد أن طفنا دائرين بين الخيام إلى عبد أسود يقوم بدور الجابي : ودفعنا بضعة دراهم ، وقدمنا كفيتين خضراوين هدية ، فسمح لنا بأن نذهب لننصب خيمتنا بمعزلٍ عن المخيم . كان برادعيّ من دمشق ، وبائع أعشاب ، يدّعي أنه من فارس ،

يؤلفان معنا ضاحية الأغراب هذه . وبعد ساعتين نصب فتح الله منضدة بضائعه التي كان يفكر في استخدامها غداً .

رسالة للسير جوزيف بانكس سكرتير جمعية استكشاف مناطق إفريقية الداخلية ، في لندن

من ج . ل . بوركهارت ، حلب
(تشرين الأول عام ١٨١٠)

سيدي

أخبرتك ، في رسالتي الأخيرة ، المرسلة من مالطا ، بالترتيبات التي اتخذتها لإجادة معرفتي بالاسلام : إن عناصر اللغة العربية النظرية التي علمني إيّاها أساتذة جامعة كامبردج الأعلام ، لم تصمد لحظة أمام عملية تَسَوّق حاجيات من سوق ، أو استجواب ضابط شرطة .

فإلى أيّ مكان اتجهتُ ، في امبراطورية محمد ، كانت

لهجة لساني البالِيَّة* تخونني وتظهرني غريباً على نحو ما. وهكذا كان عليّ أن أتمنى تقديم نفسي إلى شعوب الشرق مؤمناً من مسلمي الهند . لذلك كيّفتُ ملابسي وتصرفاتي بما يتفق مع هذه الشخصية الجديدة .

لقد ظهر ، أنَّ عليَّ من جهة أخرى ، الحصولَ على معرفةٍ أعمق بالدين المُحَمَدي ، لذلك قررتُ أن أذهب إلى سوريّا لدراسة أركان العقيدة الإسلامية . ووجدتُ من المناسب ، حضوري دروسَ علماءِ دمشق الأعلام الذين يشرحون ، بتعمق ، أركان هذه الديانةِ ، إلّا أنَّ هذه المدينة المقدسة جداً ، هي أيضاً قاسية جداً : فعيوبُ تنكري قد تسيء إلى مهمتي . وهأنذا بانتظار أن أستحق الحياة في دمشق ، قد ركزت إقامتي ، لبعض الوقت ، هنا في حلب .

أنا أحيا في الوقت الحاضر حياةً جادة ومنظمة ، وأقطن في حيٍّ إسلامي بعيداً عن النصارى ، المتعددي الطوائف ، وبعيداً

* نسبة إلى مدينة بال السويسرية .

عن اليهود ، وعن الأوروبيين الذين يحيون ، مع الأهلين ، تحت إسم (الفرنج) ، حياةً يسودها الود والتفاهم . ها هنا نجد ممثلي جميع شعوب الغرب . والفرنسيون ، كشأنهم في كل مكان ، يتصدرون أعلى المراكز ، أقوياء بتحالف امبراطوريتهم مع العثمانيين . وقناصلهم ، وتجارهم ومديرو مصارفهم ، ينفذون القانون هنا ، وأنت تعرف كم تصدمني ، وتثقل على نفسي ، المكانة الرفيعة التي يحصل عليها هذا الشعب الدنيء . إنني أرى وأنا ألتقي في الطريق ، المتكبرين من عملاء الكورسيكي ، قتلة أبي ، والمعتدين على أخواتي، وأخيراً أناساً من أمثال المجرم ماسينا* .

كنتُ ، يا سيدي ، في الثامنة عشرة عندما دمّروا مدينة (نال) ، حيث كنا نعيشُ سعداء ، ولا شيء في العالم يمكن أن يهمنا أكثر من أن تهلك فرنسا وتُدَمَّرْ .

لقد أحسنتْ جمعيتكم إليّ إحساناً كبيراً ، وقدمتْ ليّ

---

* يريد بالكورسيكي نابوليون ، وماسينا أحد قادة جيوشه .

خدمات جلّى . وأنا أعرف معرفة جيدة المعونات التي قدمت لي ، والفائدة التي حملنيها أعضاء جمعيتكم النبلاء . على أنَّ علينا الانتظار ، والتعلم ، والصبر الذي أفرضه اليوم على نفسي ، لأتجنب في الغد كثيراً من الصعوبات والعقبات .

في انتظارِ ذلك ، أستطيعُ أن أبقى عاطلاً ، إلّا أنني أردت الإفادة من إقامتي ، في حلب ، لجمع ما يمكن معرفته اليوم ، عن البادية السورية ، وعن السكان الذين يقطنونها ، مع التحقق من ذلك بكل دقة . ستجد في هذه الرزمة ملاحظاتي عن البدو ، واسمح لي بتلخيصها فيمايلي :

ما يسمى بالصحراء هنا ، يمتد بين جبال ، ونهر ، وامبراطورية . الجبال تحدها من الشمال إلى الجنوب على طول ساحل البحر المتوسط ، ويحدها من الغرب لبنان وحرمون ، وحوران أهم قممها . والنهر ، فرات الأقدمين ، يجري من الشمال إلى الشرق ، فيسقي بغداد ، ويكبر بالانضمام إلى دجلة ، ليسقيا

معاً مدينة البصرة ، والامبراطورية أخيراً هي الجزيرة العربية الصحراوية ، التي نجهل عنها كل شيء .

تشقُّ بضعة دروب هذا الرباعي الأضلاع الواسع : طريق عمرها آلاف السنين ، تسير عليها قوافل آسيا ، وطرق رومانية خطها الامبراطور (اورليان) ، وطرق مقدسة تقود الحجاج إلى مكة . خطوط السير هذه ، والتي تسمها آبارها ، تمر بالمدن القديمة : تدمر قرب خرائبها حيث رأيت بقايا امبراطورية زنوبيا الرائعة ، والقريتين ، ومزيريب ، ثم أبعد من ذلك الجوف ، وفي مكان ما ، بين هذه المدن ، (البتراء) التي آمل أن أتعرف موقعها ، الذي هو في قلب مملكة الأنباط القديمة .

وبين القرى ، وبمعزلٍ عن نقاط الحياة ، تسودُ الصحراء الخالية . فمن حلب إلى بصرى ، يؤكد الحجر وجودها الثابت الذي لا يتغير : سهل الحماد الكثير الحصباء ، متجه شمالاً وجنوباً ، وصخور لا شكل لها متراكمة كحيلة تاج الصحراء ، وعلى بعد مسافة قليلة من دمشق حتى تدمر تسود الرمال ... رمل

من كل لون : أسود ، وأشقر ، وأمغر ، وقرمزيّ ، وهناك الحمم أحياناً : سيليات رمل الصوّان اللامع الرهيف القاطع الذي يجرح الأرجل العارية ، أو يكوّن أرضاً دقيقةً ضبابية تغور أقدامُ الدواب فيها متألمة .

إلّا أنَّ الصحراء ليست كومة من الحجارة الميتة فقط . بل إنَّ الحياة فيها ، على العكس من ذلك تتكشف في كل خطوة حية هشة ، وفي حرب مستمرة ، لتفرض نفسها في وسط معاد جداً . فالحشرات ، تجتذب الأفاعي ، والثعالب الصغيرة ، والطيور . وهناك ذئاب بعيون صفر تتبع قطعان الغزلان والنعام ، وهناك من يدّعي أنَّ الفهد في الجنوب يصطاد بقراً وحشيّاً قويّاً ذا قرون طويلة ومستقيمة .

ويتعلق ذلك كلُّه ، طبعاً ، بالنبات ، وفكرة تخيل الصحراء ، من دون عشب وأزهار ، فكرة مغلوطة : فهي تكثر فيها ، وظهورها المفاجىء والعابر ، حسب رغبة العواصف ، ينظم حياة الحشرات والغزلان ، والإنسان من دون شك .

وتعيش الجمال من هذا العشب القصير ، الزائلِ والوقتيِّ ، والمزهرِ أحياناً ، ومن هذه الشجرات الميتة ظاهريّاً منذ شهور ، والتي تخضر من جديد في الربيع ، ثم من هذه الباقات المتعددة من النباتات الدوائية الشافية حيناً ، والسامّة حيناً آخر ، والتي تولد هنا وهناك ، بين الحجارة أحياناً . تعيش الجمال ، كما قلت من هذا ، والرجال يحيون مما تعطي الجمال .

فلحم الجمال ، وحليبها ، وجلدها ، وروثها الذي يشتعل في هذه السهول التي لا شجر فيها ، كل هذا مما يستعمل ويفاد منه . وقد تباع ذكرانها الشابة أحياناً في الأسواق التي تحاذي الصحراء ، لكي يشترى بدلاً عنها الطحين والتمر والسروج ، والأسلحة بشكل خاص . ويربي البدوُ الخيولَ للصيد والحرب ، ويمتطونها من غير سروج ، ويقودونها بالصوت وبالركبة . والغنم ، بالمقابل نادر ، وهو يعاني جداً في تحمل الرحلات الطويلة ، ولقد تركت تربيته إلى جماعات شبه حضرية ، على ضفاف نهر العاصي ، أو نهر الفرات .

فحياةُ البداةِ هؤلاء متعلقة إذاً ، بشكل رئيسي بقطعان

أغنامهم ، وظهور العشب يحدد رحيلهم الذي تعوقه المنازعات والأحقاد التي تنشأ بين القبائل .

ولقد قدرتُ أنَّ من المفيد إعطاؤك إحصاء عن مختلف الجماعات والقبائل التي تؤلف العنصر البدوي وهم بدورهم يتوزعون إلى مجموعات أصغر لا يزيد بعضها عن عدد أفراد أسرة كبيرة : سترى تفصيلات ذلك في مذكراتي . وبالإمكان تلخيص ذلك ، مع التأكيد ، أن سورية تسيطر عليها الآن أربع مجموعات من القبائل . (ضفير) وتتحكم في الشرق ، حيث المراعي ، و(ولد علي) يشغلون حوران وضفة نهر الأردن اليسرى ، و (الفدّان) يجولون حيناً في وادي السرحان ، أي في الجنوب وحيناً آخر حول تدمر ، وهناك أخيراً قبائل (الرولة) التي تقضي الشتاء قريباً من (الجرف) ، والصيف فيما بين النهرين .

أما القبائل التي ذكرها السيد (فولني) منذ ثلاثينَ سنةً فتبدو أقلَّ قوة . فالموالي يبدون ثابتين في ضواحي حلب ، وبنو الحسن لا يغادرون البتة منطقة القريتين ويظهر أنَّ كل جماعة ، في

نهاية تاريخ مجيد في الصحراء ، لا تتخلى عن هجرات لا تنقطع ، وتتحالف مع الفلاحين المتحضرين ، ثم تخضع أخيراً ، عن طواعية ، للأتراك .

على هذا الشكل ، يمكن يا سيدي ، تلخيص حالة جماعات البدو السياسية ، أو على الأقل في مواطنها من بلاد الشام ، إنَّ عددَها قليلٌ هنا ، لكن عددها الأكبر إنّما يعيش في جزيرة العرب الصحراوية ، في ظل عاهل يعرف أنه قويٌّ ، ويفترض أنه قاس . لقد قطع طريق الحج حيناً من الوقت ، فمنعني من زيارة المدينة المقدسة مكّة ، التي وصفها الرحالة (فاتيرما) ، والتي كنت أريد النفاذ إلى أسرارها باسم جمعيتكم .

ولتتأكد يا سيدي من فائق تقديري .

فتح الله ، ملاحظات (تشرين الثاني ١٨١٠)

الرعب ، ودائماً الرعب . كيف حدث أن بقي السيد

لاسكاريس هادئاً وراء لحيته : فأكثر اللحظات رعباً لا تنال من رباطة جأشه . فلقد بقي معلمي مستقيماً ، بارداً ، بسيط الحركات عندما اجتاز حارس المخيم ، في ذلك اليوم ، وعندما مسح عنه سخريات البداة عند وصولنا ، أو عندما قادونا عند هذا الزنجي الضخم (عبد ، إلا أنَّ لديه مظاهر المتبجح) ، الزنجي الذي دفعنا له ضريبة . لقد ذكرني بجفاف بالنظام ، عندما رآني مترنحاً (ماذا تفعل يا فتح الله ... كفّ عن تصنعك وريائك) . ولقد حاولت أن أطيع . فالشجاعة تتعلم ، كما قال لي ، وهي مسألة تدريب وتمرين . فلنتدرب على الابتعاد عن الخوف .

لقد ظهر لي (عزيز) مندهشاً عندما عرضتُ عليه طَلَبي . فلقد ارتبطنا بهذا الفارس الرائع الفاتن لفتيات المخيم بروابط كثيرة . وكان غالباً ما يأتي لشراء ألاعيبي . وأقول ألاعيبي لأنني أنا الذي أقف وراء منضدة البضائع طوال النهار . أمّا معلمي فكان يفضل التجوال ، وقياس أبعاد الأشياء . إنَّ السيد لاسكاريس مولع بالقياس إلى حد الجنون : طول رمح ، شكال بعير ، خيمة فقير ، خيمة أمير ، المخيم نفسه ، بحيث أنه ، وقد تعود عادة قياس

المسافات دائماً ، قد غدا متصلب المشية ، وهيئته هيئة مساح الأرض الذي يعد خطاه .

وهكذا كان عليّ أن أتدبرَ أمري قدر استطاعتي مع قطنياتي ، فتوصلتُ ، عن طريق ذلك ، إلى التعرف إلى جميع الناس : العبيد ، والرجال ، الأمراء ، وأبناء عم الأمير نفسه ، وحتى النساء اللائي يأتين ليرين بضاعتي ، وينظرن إليَّ نظرات جريئة لم أتعودها من ثرثارات مدينة حلب .

عاد عزيز من حملة عقاب ضد عدو مجهول ، من (غزو) كما يسميه، ولقد فهمتُ من صياح الفرح الذي حيّا عودَة المحاربين أنهم كانوا مسرورين من النتيجة، ولم يكن من السهل، دائماً وسط اختلاط أصوات العودة هذه، الكشف عن سير المعركة. ولقد لاحظ السيد لاسكاريس يوماً ما، أن متوحشي أمريكا يظهرون نجاحهم بجلب شعور أعدائهم معهم. أمّا هنا فالأمر مختلف إذ لا يتقاتل الناس للاجهاز على العدو بل لسلبه فقط. فالغنائم أكثرُ نفعاً من إراقة الدماء، والبداة المخيفون هم، بعد كل

ما يحدث ، مقتصدون في ميدان دماء العدو : فقد يعود المنتصرون بفروتين ، وجملين أو مهرين في الأيام السعيدة ، ويعود المكسور عاري الرجلين أو مردوفاً ، ولكنه يعود . وهو أخيراً عندما يعود ، يعنى شعبه الصغير باستقباله مع ذلك : فنحن دائماً شديدو الانتباه إلى تملق حب الذات الخاص بالمحاربين ، يحدث مثل ذلك عندما يكونون قد هزموا أيضاً .

فلقد انتصرَ عزيز في هذا المساء ، وعرضَ غنيمةً ثمينة : بضعةَ جمال من نوع ممتاز ، وثلاثَ قطع من الحرير ، التي أتى يبادلها عند وصوله بمعطف كان يتمنى الحصول عليه منذ زمن بعيد . كان يلتمعُ من العرق والمجد ، وغيرَ قادر على منع الضحك الهائج الصادر عن حشد فوضويّ من الغلمان حوله . كان مزاجهُ المرح لذيذاً في الرؤية ولقد شجعني . فرجوته ، دون أن أفكر فيما أقول ، بأن يشركني في غزوته المقبلة . وشجعني السيد لاسكاريس ، الذي كنت أرقبه بطرف العين ، شجعني بابتسامة ، أمّا عزيز الذي استخفه الفرح ، فقد أخذني بين ذراعيه ، ووعدني برمح ، وجواد ، وغنيمة وافرة .

قضيْت عدةَ أيام في التدرب معه على استعمال الرمح .
علمني شحذه على الحجر ، وغرزه في الأرض من طرف زُجّه
الحديديّ ، وعلمني كذلك القفزَ إلى سرج الجواد بالاستناد إليه
ثم بين لي كيف يمكن العَدْوَ بالجواد مع الامساك به بالمرفق من
خلال العنق ، تاركين الريش الصغيرة ترفرف وقطع النقود ، التي
تزينه ، ترن .

ثم تلا ذلك تمارينُ الهجوم ، ضربةُ رمح إلى الأرض على كتلة
من القماش : إنَّ عدم إصابتها تعني غرس الحديد في الرمل
والتدحرج عليه ، بكتف نصف مخلوع ترافقنا ضحكات
الحاضرين وهزؤهم . ثم طعنة رمح ضد فارس ، في دائرة من
الجلد ، وضربة رمح إلى الخلف ، ضد من يلاحقنا : حتى فتح الله
يمكن أن يهرب .

لم أكن قد أصبحت رمّاحاً ممتازاً عشيَّةَ انطلاقنا ، إلّا أنني
قد بدأت أعرف كيف أُمسِكُ وركي من دون أن أزعج الجواد ،
ومن دون أن أتعرض لخطر الإيذاء أو لتعوير رفاق السفر . لقد

أسكتت تطبيقاتي سخرية المبتدىء . لم أكن قد غدوت بعد أيام محارباً ، إلّا أنَّ أكثر المتشائمين قد أخذ يتصل بي .

والغزوات تبدأ عادة بنوع من الاستعراض غير المنظم خلال المخيم ، استعراض من صياح التشجيع تطلقه النساء والأولاد ، والذي يتحول سريعاً ، إلى شغب مطلق العنان ، وركض بالخيل مستدير مصحوب بصرخات وحشيّة . وهكذا استسلمت ، مشغولاً بالامساك برمحي ، إلى الخُمارِ العام ، وقلتُ لنفسي إنَّ غرض هذا الصخب تهدئةَ قلق الجنود . كانت فكرةُ كون الآخرين خائفين مثلي تريحني قليلاً . وانطلقنا أخيراً ، عند مغيب الشمس : كنا ذاهبين لمهاجمة قبيلة (ضفير) .

لم يكن الضفيريون يعنون أمراً كبيراً بالنسبة لي . كانوا يتحدثون عنهم كثيراً في قبيلة الحسن التي كنا نقيم عندها ، إنهم من عرق مخادع ، وأوباش أوغاد ، وشعب جبان ، أقدر على تسلق كثيب لسرقة جمل من المحاربة بشكل مكشوف مع إنشاد الشعر . فمن هم في الحق ؟ سنرى ذلك فيما بعد .

كانت جماعة من قبيلة ضفير قد تجرأت على الاقتراب من بئر لبني حسن : وهذا أمر لا يحبه البدو أبداً . مثلما كانت أمي لا تحب أن يأتي أحد أولاد عمي لقطف الزيتون من بستانها من دون أن تدعوه إلى ذلك . فما اللباقة إذاً ؟ إذا أردنا شرب ماء الآخرين فيجب أن نسألهم ذلك ، ونظهر الخضوع ، ونعترف بأننا أضعف من القبيلة التي نسألها ، وعلينا أن ندفع ضريبة . ولندع هؤلاء البؤساء يفعلون ذلك ، وسريعاً ما يُقْبِلُ ألفٌ من قبيلة ضفير ليطؤوا بأقدامهم مراعينا . وهذه ألفُ سنة مرت ، وبنو حسن يتقاتلون مع بني ضفير : فليس هناك حاجة لعذر ، عندما تقودك غارة إلى القتال . إنَّ دورياتنا قد لمحتهم ، وهم في متناول اليد ، وهكذا كان : فإلى الهجوم عليهم .

وسرينا طوال الليل ، يقودنا دليل صامت . كنا نغني لنتدفأ ، إلا أننا كنا ، مع ذلك ، نرتجف فرحاً في الظلام الرطب . كان نور الهلال يتسلل إلينا ضعيفاً من خلال نوع من الضباب الذي سيكثف حتى الصباح ، بحيث أنني ، في معركتي الأولى هذه ، لم أرَ في الحق ، شيئاً كثيراً .

وبزغ فجر أبيض : أوقفنا عزيز ، بناء على إشارة من الدليل . كنا قد استدرنا حول سفح هضبة كنت أحزر أبعادها في الظلام . وكان مرتفع صغير أمامنا يخفي مخيم بني ضفير .

كانت خطتنا تتلخص في إرسالِ كشافَيْن يتسلقان القمة ، ويشيران إلينا عندما يستيقظ المخيم . ليس الهجومُ بمستحسن قبلَ ذلك : لا يهاجم البدويّ في الليل . لماذا ؟ ليس التفسير حربيّاً ، فالمقاتلون ، في الليل ، عند نسائهم . وإذا ما هاجمناهم ، فالرعب (أو الحب لا أحد يدري) يضطرهم إلى متابعة القتال بعناد يمكن أن يكون مؤذياً . أمّا في وضح النهار فنحن نفاجئهم ، ونسيطر عليهم ، وتكون المعركة قد كُسِبَتْ : فهم يستسلمون بسهولة . ولن نتشدد في معاملتهم ، فكل شيء قد تم . وعندما يأتي دورهم في مفاجئتنا ننتظر منهم الحِلْمَ نفسه : فالعرب في الصحراء يقتتلون قليلاً ، أقلَّ قليل ممكن .

كان كشافانا قد ذهبا مصطحبين معهما البندقيتين الوحيدتين اللتين نملكهما ، وهما بندقيتان هنديتان قديمتان رديئتان مرتوقتان . كان بإمكانهما ، وهما مضطجعان أن يتدخلا لدفع

هجوم معاكس إذا ما سارت الأمور بشكل سيء . كانت حنجرتي مضغوطة ، بينما كنت أراهما يتقدمان على المرتقى . كنت أتخيل المنحدر الآخر ، مع مخيم الزلابية على الجمر ، إنه عالم صغير مسالم على وجه الاجمال ، وسيهاجم عزيز برماة رماحه العشرين . كنت أتساءلُ عن الكيفية التي سأشارك بها في الأمر ، وأشعر بحيرة لأن جميع العيون مركزة عليّ : عيون عزيز ومقاتليه ، ولاسكاريس في المخيم ، وأُمي كذلك من بيتها في حلب .

وجرى الأمر كما كنا قد خططنا له من قبل ، فإشارة الكشافين الأولى أكدت أن بني ضفير هناك ودفعتنا إشارة أخرى من عزيز إلى القتال .

ولقد ركزت رمحي في الوسط ، وأنا أُركِضُ جوادي ساكتاً حتى القمة حتى لا أجرح الجواد الذي يتقدمني . ثم ظهر المخيم بارزاً في الضباب : وأعطتني صرخات رفاقي الوحشية شيئاً من الشجاعة ، بينما أذهلت المفاجأة العدو . إلا أنها كانت مفاجأة عابرة ، وذهول سرعان ما ضبط : فلم يكن بنو ضفير حقاً اللصوص الجبناء الذين وصفوا لي ، ولكنهم قوم محاربون ، ولم يكن

ذلك الكمين الأول الذي ينصب لهم. واختبأت النسوة، في اللحظات التي سبقت دخولنا المخيم، في أثناء تسلقنا المنحدر كالذئاب في الخيام، وتدحرج الرجال نحو أسلحتهم. انتظرنا اثنا عشر منهم واقفين، السيوف الممشوقة في أيديهم. وآخرون ركضوا مع رماحهم، نحو جيادهم، وانهمك آخرون في حشو بنادقهم.

وكانت ملاقاة . أغمضت عينيّ وأنا أصرخ مثل الآخرين ، وانطلقت ، رمحي إلى الأسفل ، مضمومَ الجسم ، من دون أن أسدد على إنسان ما . ولقد حاول شيطان طويل مسلح بخنجر أن يتعلق بساقي اليسرى ، فدفعته بضربة عصا ، فسقط على الأرض ، ووجدت نفسي من بعد في الجهة الأخرى من المخيم الصغير . كان الآخرون يتخبطون في الخيام المقلوبة ، وكان الكثيرون على الأرض ، في وضع سيء جداً . ها هو ذا عدو يعدو بجواده نحوي في الوقت الحاضر . نظرتُ إليه مضطرباً ، محاولاً أن أدير جوادي لأكون في مواجهته . ها هو ذا قد أقبل نحوي ، فتمددت على ظهر مطيتي ، ففته ومضى رمحه فتكسر في الحجارة . تبعتُه ، بعد أن اطمأننت إلى أنه قد غدا أعزل . وقفز إلى الأرض ، بعد أن جرى نحواً من مائة

متر ، وصرخ لي مشيراً بكلمات إلى الجواد الذي كان يمتطيه . وهكذا كسبتُ معركةً على الطريقة البدوية ، معركةً لم يسفك فيها دم ، وهأنذا أمتلك جواداً جديداً . وتركت ، عن أريحية ، المعطف الممزق لمن تغلبت عليه .

وعدت باتجاه المخيم حيث سمعتُ بضع طلقات نار : كان رماةُ قبيلة ضفير يريدون أن يبرهنوا على شهرتهم كأحسن رماة الصحراء . ولقد تركوا للبارود أن يتكلم . ولقد تلقى أحدهم ، لسوء حظه ، ضربة سيف ، ومات آخر بهدوء ، بعد أن تلقى رمحاً في البطن ، واختفى من بقي في الضباب . كانت النساء يعولن تحت الخيام المقلوبة ، التي لم تمس . وجمعنا ما أردناه : بضعة جياد ، وخمس بنادق . وهذا هو النصر ، وابتلعت المديح المختصر الذي وجه إلى تصرفي ، ثم مضينا نحو مخيم بني حسن ، فوصلناه في مساء اليوم نفسه .

لاسكاريس مذكرات (كانون الأول ١٨١٠)

ثلاثة أشهر مرت لدى بني حسن : ثلاثة أشهر ضاعت .

(دروفيتي) سيثور ، وربما فقد الامبراطور صبره . فأنا لم أُنجِزْ شيئاً ما، وهأنذا أخبط في لامبالاة البداة الرخوة، أنا الذي كنت أفكر أنَّ باستطاعتي إقناع رؤسائهم وإثارة حماسة محاربيهم . فيا للسذاجة !!.

أما وقد أهانني احتقار مضيفي ، فانني قد أُهنت أكثر بسبب خجلي من عدم تقدير البدو لي . كانوا قد حدثونا كثيراً عند حدّاد صدد ، عن المخاوف التي سنلقاها لديهم ، بحيث أنني انتشيتُ بجرأتي الخاصة ، وبعظمة انتصاري . ولقد فكرت على النحو التالي (هذا لاسكاريس إذاً : إنه يجتاز صحارى محرقة ليتعرف إلى شعب قسوته أسطورية ، شعب لم يكن أحد قبله يتجرأ على الاقتراب منه . الخطر جسيم ، إلّا أن لاسكاريس يسيطر على خوفه ، ويحتقر شكوى جسمه المسحوق بالحرارة والتعب . إنه يتقدم نحو البدو ، رسول امبراطور الفرنسيين ، وكشّاف جيوشه ، وحَكَمُ مصير الشرق يتقدم رجلاً حديدياً لملاقاة رجال الرمال . ولن تكون سفارته لدى البدو إلّا عظيمة ، مأسوية ، ودامية من دون شك ، إلّا أنّها عظيمة . سيقطعون رأسي في الحال

أو سأتناول طعام العشاء ، هذا المساء ، على مائدة الأمير .) فيا لها من حماقة!.

إنَّ أميرَ بني حسن (مهنّا الفضل) ، المحاربَ القديم المتعبَ من الحروب ، المتزوجَ عشر مرات ، والمتعبَ من مخاصمات زوجاته ، ووالدَ عشرين صبيّاً والمتعب من وقاحاتهم ... أميرَ بني حسن هذا يتناولُ طعام العشاء مع الباعة المتجولين . إنّه يأمر بإيصال الحقوق إليهم، ويزريهم معاً على أبواب المخيم، ثم يترك أتباعه يسرقونهم بهدوء .

لقد حضرتُ عدة مرات اجتماعاتهم ، أو ما يسمونه (المجلس) . وهناك ، انتظرتُ منه ، وهو يجلس على الأرض ، مثلَ عشرين مثله ، بينما كان أصحاب الدعاوى ، وطلاب الخدمات ، والضحايا من كل نوع يأتون إليه ، لكي يحصلوا على إنصاف الرجل الشيخ ... هناك ، انتظرتُ ببلاهة وغباء ، أن يركز عينيه عليَّ . كنت آملُ أن يتعرف في وجهي شيئاً ما مختلفاً ، إشارةً ما ، وأن يهمس في أذنيه صوت سريّ : انتبه يا

مهنّا ، فهذا الإنسان أكبر بكثير مما يبدو لك ، وهو يعرف أشياء هامة ، قد تكون نافعة لك ، ففضّ المجلس ، ودع هذا البائع يتكلم .

إلّا أن الخوف كان هنا ، لمحناه أم لا . فلقد كنتُ أتكوم في معطفي ، مذعوراً من فكرة إمكانيّة اكتشاف أمري ، وشاعراً بخنجر الحرس بين فخذيَّ . كنت أتكوم ، وأفر من جميع الأنظار ، وأتخذ هيئة التعب القصوى التي تلائم هؤلاء الذين يريدون أن يمروا دون أن يحس بهم أحد . وهكذا كان لاسكاريس الكبير المتألم والمعزّى في آن لكونه لم يتعرف إليه ، كان لاسكاريس يعود سريعاً إلى خيمته ، وإلى تجارته التي لا تحتمل .

وهكذا كنت أُحِسُّ ، وقد أمسك بخناقي الرعب ، بأنني معاق بتنكري . كنت أقوم ، أنا وفتح الله جيداً بدور البائع المتجول وصاحبه المتدرب الشاب ، وفتح الله نفسه خاصة ، بنشاطه المستمر ، وطلاقة لسانه ، وفكاهته الساذجة التي لا تظهر ... كل ذلك يسحر الزبائن . ومنضدة البيع ، المنصوبة في

أيِّ مكان ، قد أصبحت مكاناً للقاء ، وهدفاً للنزهة ، ومنصةً للأناقة : قصراً ملكياً على الإجمال . ولو كان لديَّ مزيد من البضائع ، ولو أنني أظهرت مزيداً من الحزم تجاه الزبائن ، وانتباهاً أكثر تُجاه اللصوص ، فإن الأمور يمكن أن تكون جيدة ، وكان يمكن أن أجد مصيراً جديداً في الصحراء . ولكن ما الذي جنيتُ من ربح ؟ لقد خسرنا : وعليَّ أن أعودَ سريعاً إلى دمشق ، للبحث عن مال فيها .

كان فتح الله يثورُ لإهمال معلمه . وكان يتألم ، لكونه خادماً أميناً ، من رؤيتي أخسر وأُسحق ؟ في ممارسة التجارة . كان يأسف على زبائن أفسدوا بشكل أحمق . وأحسستُ أن عليّ أن أحدثه بسرعة . فما الذي نفيده مما تشتريه هؤلاء النسوة ، ومما يبتاعه هؤلاء الشيوخ ، وهؤلاء المحاربون المتظرفون ، فزبوننا ينبغي أن يكون الأمير ، والأمراء الذين يحيطون به ، وهؤلاء لم نستطع أن نفتن واحداً منهم بعد .

عليَّ أن آسف لهذا الاخفاق . إنّني أفهم بشكل أفضل

أبناءَ قبيلة حسن ، ولقد بدأتُ أفكر في أنني قبل خطئي في طريقة التعامل ، قد أخطأتُ في قصدي هذا الشعب .

كانت المجموعةُ الصغيرة التي وصلنا إليها في شهر تشرين الأول قد انضمت مؤخراً إلى القبيلة الكبرى ، فانضافت الخمسون خيمة إلى خمسمائة كانت تحيط بصورة طبيعية بخيمة مهنّا . وكانت قبائلُ صغيرةٌ ، وأسرٌ تابعة متفرقة في الصحراء يمكن أن تضاعف هذا المجموع ، وترتقي بذلك قوة بني حسن إلى ألف خيمة . ولقد غدا باستطاعتي ، بعد تسليمي الأُمور إلى فتح الله ، أن أتجول بسهولة في الخيام ، وأن أُشارك في مناقشات المساء الطويلة ، وأن أثرثر مع الجمّالين الفصحاء أثناء تنقلاتهم . وأخذتُ أرى أمورَ هذا الشعب الصغير ، بشكل أوضح ، في الوقت الحاضر .

كان الدخول إلى بني حسن سهلاً بالتأكيد ، فما كنت أبغي القيام به كان هؤلاء بعيدين عنه . ولقد أدركتُ ، أنَّ هذه الجماعة قد بدأت تكره الصحراء . إنَّ تاريخها مجيد ، إذا ما

صدقتُ الشعراء الذين يتكاثرون حول الأمير . لقد عَرَفتْ ، بعد أن أتت من أعماق الجزيرة الصحراوية ، منذ قرون كيف تحتل الأراضي بين القريتين ودمشق ، ثم كيف تتمسك بحقوق لا تناقش فيها . وأتى ، بعد هذه السيطرة المكتسبة ، نوع من التكاثر . ولم يبق للجوع ، وهو سيد الصحراء ، والمحرض على الانتجاعات الكبرى ، من شأن لدى بني حسن . فغدت هجراتهم قصيرة : يومان ، أو ثلاثة على الأكثر ، وكانوا يلمحون الآبار المحفوظة بعناية ، والمراعي السليمة التي ترعى فيها القطعان . وتطور ذلك فيما بعد : فمع نهاية الضياع الطويل تضاعف عددُ الجياد ، ثم عدد الأغنام ، التي كانت ستموت لو أنها دفعت أكثر في أعماق الصحراء .

لا تزال هذه القبيلة بدوية ، إلّا أنك تشعر بأن ثقل القرون يدفعها نحو شواطىء نهر العاصي المزدهرة.. وهكذا أخذ بنو حسن ، شأنهم في ذلك شأن (الموالي) الذين كانوا أقوياء جداً منذ مائة عام ... أخذوا يظهرون وكأنهم يريدون استبدال كوخ السباخ بخيمة الشعر .

كانوا يقاتلون دائماً ، ولكن أقل مما كانوا يفعلون من قبل بالتأكيد . ذهب فتح الله ، في أحد الأيام ، يوقظ مخيماً لقبيلة ضفير بضربات رمحه . لم يكونوا ليصوبوا رماحهم بشكل جيد ، إذا حكمنا على الصداقات التي قامت بين المحاربين . وكانوا يهاجمون القوافل ، أيضاً ، إلّا أنَّ المهاجمات ، والغزو ، قد بدت أتفهَ من قبل : خمسة عشر فارساً ، ثلاثون ، من قبيلة تعدادها على الأقل ثلاثة آلاف رجل سليمي البنية . وكان يصدر عنهم في الرواح والمجيء كثير من الجلبة ، إلّا أنهم ، في حقيقة الأمر لم يبقروا سوى ثلاثة بطون لمسافرين منعزلين . ولم يكن في ذلك كله مغزى حربي جاد .

أعليّ أن أستنتج من ذلك إذاً أن جميع البدو محاربون يعيشون على شهرة قسوتهم ، بحيث أن عدواً جاداً يستطيع التغلب عليهم بسهولة ؟ إنَّ ذلك يغريني إذ لم أشعر بذلك في أحاديث المخيم ، حيث يتكلم الأقدمون باحترام عن بقية القبائل .

فقبيلة بني ضفير ، مثلاً ، وهي التي استولى فتح الله على

جواد من عندها ، ليست الخاملة التي يتهكم عليها شباب بني حسن . إنّهم يحترمونها ويخافونها . فإذا ما توجب أن يدافعوا عن بئر ، فإن أمير بني حسن يرسل بضعة رجال إلّا أنني لا أعتقد أنه يرغب في القتال مختاراً . وتظهر أسماء مقاتلين آخرين في الحكايات ، والقصائد ، والملاحم . واستمعت إليهم يعظمون أسماء بعض القبائل : الفدان ، ولد علي ، وقبيلة الرولة الغامضة التي سحقت ، فيما يقال ، جيشاً تركيّاً أمام بغداد ... أهذه مبالغات قصاصين ؟ أم إعادة أحداث قديمة جداً ؟ أم نشوة شاعر غنائي ؟ كيف نتعرف حقيقة ذلك كله ؟

على كل حال لم يكن الأمير (مهنّا) هو الذي سحق جيشاً تركيّاً . فابنه ناصر الفظ الأحمق قد جعل من نفسه معجباً بالباشوات ، ونصيراً للباب العالي . كان يرتدي الملابس كآغا ، ويتسمى (بناصر بك) ويعمل على قيادة رفاقه من الغلمان بالتركية . وكانوا يضحكون منه في الخيام ، ويجد الأمير نفسه منزعجاً من تصرفات إبنه ، إلاّ أنَّ هذا الأمير المشترك لم يكن هدفاً لي . فمخطط نابليون ، المعبر عنه بوضوح في رسائل

(دروفيتي) ، معاكس للأتراك ، فلا عمل لي لدى حلفائهم ، وإنّما عليّ أن أتصرف لدى أعدائهم .

فإلى أين أذهب ؟ وبنو حسن هؤلاء يغدون شيئاً فشيئاً أقل شراسة . فأية قبيلة أخرى أختار ؟ وأية جماعة تمتلك من العنف ما يؤهلها لتكون مركبة لمهمتي ؟ ومن هو الرئيس الذي يمتلك قدراً من التعطش للمجد يؤهله للاستماع لنصائحي ؟ لقد أخطأت حين اخترت قبيلة متساهلة جداً . أما وقد غدوتُ مستنير الذهن بخطئي ، فقد أحسست غريزياً بأن المنحدر الأكثر شدة يمكن أن يقودني إلى النجاح . فلنسر ما دمنا قد بدأنا ، لأن كل ضعف ، أو خشية قد أصبحا ممنوعين ، ولننتق الطريق الأكثر خطورة . وإذا ما أعوزني الشعب فإنني أريده الأكثر قسوة ، وإذا ما أعوزني مقاتلون ، فليكونوا أكثر المقاتلين قوة ووحشية .

فتح الله ، ملاحظات (كانون الأول ١٨١٠)

الأحداث تتلاحق ، وتتدافع بشكل أكاد أفقد عقلي معه .

أيتها السيدة العذراء ، عندما سيسمع أبناء عمي قصة ما مرّ بي ، لن يصدقوني أبداً . ولنعد إلى الوراء ، مساء البارحة كنت لا أزال خادماً تاجراً ، مسالماً وسعيداً ، تشرفني صداقة بعض المحاربين من بني حسنِ . وهأنذا الآن جاسوس مكشوف ، أُركِضُ حصاني بِوَلَهٍ مع معلمي ، أمام جماعة من البدو الذين سيقطعون رقابنا إذا لم نبلغ أرباض حماة قبل أن يلحقوا بنا. لقد فقدت أقمشتي الصوفية والقطنية ، وصداقة عزيز العجيبة والأعمال التمهيدية التي حققتها في قلب جارة جميلة . ولقد حصلتُ بالمقابل على شرف الفرار في هذه اللحظة باسم صاحب الجلالـة امبراطـور الفرنسيين .

كيف كان يمكن أن أتخيل أن السيد لاسكاريس الرجل المحترم ، الصادق ، قد كان عميلاً للفرنسيين ؟ كيف أستطيع أن أخمّن أنَّ إقامتنا لدى البداة ، ومعاناتنا ومخاوفنا قد أمر بها نابليون ، وليس لصالح منفعة شريفة ؟ أمّا بعد أن نزلت بنا الضربة ، فقد غدا الأمر مفهوماً . فإهمال معلمي ، وعدم اهتمامه بما كان يضيع منا ، ورغبته العارمة بالذهاب لتمضية الوقت في

حضور مجالس الأمير ، كل هذا كان ينبغي أن يكون عجيباً بالنسبة لبائع جوال . ومع ذلك ، فقد لاحظت أنه قد غدا ، منذ عدة أيام ، قلقاً . كانت تصدر عنه حركات من قلة الصبر تجاه الزبائن ، وحتى المحترمين منهم . ولقد فاجأته أحياناً يغمغم بشتائم ضد مضيفينا من بني حسن. ولقد أرجعت هذا كله إلى جنونه، جنونه الرؤوف جداً ، والذي لا يؤثر في طيبته ، ولا في الاحترام الذي أحمله نحوه ، إلّا أنّه لم يكن يملك ، مع هذا ، الرأس المتماسك الثابت .

البارحة إذاً ، تسلحتُ بشجاعتي ، بعد أن أعددتُ قهوةَ المساء ، وقررت أن أبيّن له حساباتِنا : لقد كان الأمر كارثة . وقلت لمعلمي (إمّا أن نتاجر على الشكل الصحيح ، أو نرجع ، بكل بساطة ، إلى حلب .) .

ولقد ردَّ عليّ بعنف بحيثُ أنني بقيت مبهوتاً . وأضاف قائلاً (معرفة أمراء الصحراء ، يابنيَّ ، تعادل بالنسبة لي ، الذهبَ ، وكلَّ أقمشة سوريّا .) . اقترب ولنتكلم بصوت

خافت ، لأنك ستتعلم هذا المساء من أنت ومن هم الناس الذين تحدثهم . وأتيتُ ، فجلست قربه صامتاً ، مدهوشاً ، بمغالاة هذه المقدمة وتشدقها .

وبدأ يحدثني عن فرنسا ، وعن نضالها من أجل حرية شعوب أوروبا ، وعظمة الحنان الذي تحمله لنصارى الشرق ، ذلك الحنان الذي اشتهر في التاريخ . ثم وصف بعد أن ذكر نابليون ، ريحَ الأمل الذي أيقظه مقدِمُهُ إلى مصر ، ثم إلى فلسطين لدى مضطهدي الشرق . واتجه الحوارُ اتجاهاً غريباً ، فأنا لم أسمع البتة ريحَ أمل تهب على أحياء حلب القديمة مع مقدم الفرنسيين ونجاحهم في احتلال مصر . ولقد أبديتُ هذه الملاحظة لمعلمي الذي لم يصغ إليها إلّا قليلاً : فلقد أدار عينيه ، مستثاراً ببلاغته الخاصة ، وكان فمه يرتجف تحت شاربيه .

((اصغ إليَّ جيداً ، يابني ، لا يأتي نابليون لأمر بسيط . إنَّه يريد تحرير سوريّا من نير الأتراك ، سيطرد العثمانيون بسرعة من حلب ، وستعيش فيها بسلام أنت وذووك . لقد اختارونا أنا وأنت للإعداد لمثل هذا العمل الكبير .)) .

هذا أمر هام نتكلم فيه : رحيل الأتراك سيكون قضيتنا الهامة . لكننا عرفنا كثيراً عن الحروب حتى لم يعدْ بالإمكان التنبؤ بأخرى من دون مخاوف . فالجنود الفرنسيون ، كما يقول أعمامي ، قد كانوا قساةً جداً في عام ١٧٩٩ ، مع سكان مدينة يافا . ينبغي ألاّ يحل جنود الامبراطور المرتزقة محل الجنود الإنكشارية الأتراك في بلادنا .

وتابع السيد لاسكاريس همسه إليَّ بمشاريع نابليون . فنحن ، لكي نتغلب على الأتراك ، بحاجة إلى البدو الذين يسيطرون على الآبار بين دمشق وبغداد . وعلينا أنا وأنت ، أن نحقق هذا المشروع . يجب علينا ، نحن الاثنين ، أن نذهب للتبشير ، لدى البداة ، بقوة فرنسا ، وبالتحالف مع نابليون ، ليس أكثر من ذلك .

وهكذا . فمنذ ثلاثة أشهر من حياتي مع البدو كنت أقتسم الخيمة مع جاسوس . لقد تناولتُ الطعام مع محكوم عليه بالإعدام ومؤجل التنفيذ فيه، ونمتُ قريباً من هذه القنبلة الحية،

عدوة الترك . كنت أريدُ أن أفرّ ، وأغادر هذا المأفون الثائر الذي كان يرهبني ، كنت أريدُ أن أركض بعيداً عن أرض الرعب هذه ، بعيداً عن الصحراء ، بعيداً عن البداة ، وأن أعود أخيراً إلى معرض البضائع الذي أستحقه .

وتكلم إليّ طويلاً ، ببراعة وحذق ، هذا الإنسان الشيطان ، وَصَفَ لي شيئاً فشيئاً ، عظَمَةَ المشروع ، والمجدَ الذي سيحققه لنا ، والثروة المؤكدة التي ستهبط علينا . وذكّرني بأمي ، وفخرِها المحتمَل بي ، وحسدِ أبناء عمي لي ، وعزيزِ نفسِه شاهد شجاعتي الكبيرة ، وأبانَ لي الكيفية التي سنعمل بموجبها معاً ، سيعفيني من شرط الخدمة ، وسيرفعني إلى مرتبة ضابط ، ومستشار عسكري ، وصديق لقد التمعتْ في عينيه شعلةٌ عظيمة ، عند احصاء أرباحنا ، والشبق عندما كان يعدني بالسبي الذي سنحصل عليه من حريم الباشوات .

كل ذلك كان يحسب ، يا إلهي ، وبدأت أتأكدُ منه . وبنو حسن لم يسيؤا معاملتنا . لقد قمتُ بالتجسس دون أن أعرف ،

وكان يمكن أن أموت بسبب ذلك . ولا يزال أعداؤنا من الترك يحكمون بعيداً، بعيداً جداً عن هذا المخيم. ثم، إذا ما ساءت الأمور ، فبالامكان تقويض الخيام ، والرحيل .

إلّا أنني قد أخطأت في تفكيري وحساباتي .

ونمتُ في تلك الليلة نوماً مضطرباً ، الخوفُ ، والمجد والوفاء لمعلمي ، وعظمة نابليون ... كل ذلك كان يتصادم في أحلامي . ولمحت ، في الفجر ، عندما أزحت سجف باب خيمتنا ، رَجُلين قويين ، بسحنة مكفهرة يمنعانني من الخروج ويرجعانني بلطمة مفاجئة أدارتني بين السلال . عرفتُ فيهم رجالَ ناصر ، ابنِ الأمير ، الذي ينفذ القانون في القبيلة . كانت أسلحتُنا القليلة قد اختفتْ ، وعرفت أننا أصبحنا سجينين .

وأيقظت فزِعاً ، السيد لاسكاريس ، ووصفت له الحالة ، وطلبت إليه أن يتخذ احتياطاته . لقد تطوعتُ أن انتقل بسرعة من وضع الخادم إلى وضع الجاسوس ، فوَضْعُ الأسير ، ووضعُ المحكوم عليه قريبان من دون ريب. زحف لاسكاريس باتجاه

الباب ، وتعرف إلى حراسنا ، وحاول ، من دون نجاح ، أن يتفاوضَ معهم . فلقد كان هذان الخشنان قد تلقيا الأمر بالسكوت . واستعان مع ذلك بالصبر ، وببعض تاليرات ، ليعرف شرحاً للحالة التي آلت إليها مغامرتنا الفاشلة . فلقد نقب الأمير ناصر في صناديقنا ، بعد أن ساورته الشكوك حول شخصيتنا . وهناك اكتشفَ بوصلة ، وكتاباً فرنسيّاً مصوراً ، يصف تدمر وبضعة أماكن أثرية أخرى . ولم يتطلبْ الأمر مزيداً من الذكاء ، ليعرف أننا من المنقبين عن الكنوز ، وهو عملٌ كثيرُ الانتشار في سورية ، ومكروه مُحْتَقَر من البداة . فهؤلاء المنقبون يتوغلون لإحصاء كنوز أراضيهم بغرضٍ نهبها فيما بعد ، على شكل ماكر من النصب والاحتيال . ظهرت الحالة لي دقيقةً وصعبة . سيصادرون كلَّ ما لدينا ، ثم يتركوننا عاريّين فوق الرمال ، لنموت عطشاً .

وهناك ما هو أسوأ من ذلك ، كما أضاف لاسكاريس . فناصر هذا مشغوفٌ بالأتراك متحمس لهم . وهو يحلم بحكم قبيلته حسب شكل من أشكال الإدارة العثمانية . وهو لا يحب

شيئاً مثل الاستجوابات البوليسية ، التي تتم بالاستعانة بالعصا ، وتنتهي بالشنق. لقد أرسل في الليلة الماضية إثنين من رجالِه، لنقلِ قضيتِنا إلى آغا حمص . فإذا ما قرر هذا الأخير أن يتسلى باستجواب منقّبين عن الكنوز ، فإن ناصراً سيكون سعيداً بتسليمنا إليه . وهكذا تكون قضيتُنا ، بعدَ مغامرتنا في زنزانة حماة، واستكشافاتِ معلمي الملحة، قد أصبحت سيئة جداً .

وعقدنا مجلس استشارة في نهاية الخيمة . لم يكن السيد لاسكاريس ولا أنا ، نعرفُ ، بالتأكيد ، أين نحن ، ولا كم من الوقت يتطلب سفر رسولي الأمير إلى حمص ، لرؤية الآغا ، ثم العودة مع كتيبة من حراس الشرطة . ولقد قرر معلمي أننا في شمالي (القريتين) ، فلا يمكن أن تكون حمص بعيدة ، إنها على مسافة سبع ساعات أو ست . سيبلغها رجال ناصر في ساعة الغداء ، أيْ ، في ساعة القيلولة . لا يمكن أن يزعج آغا ، في فترة ما بعد الظهر ، وفي هذا حظ جيد لنا ، إنَّ أمامنا من الوقت ما يسمح لنا بالفرار . إلّا أنه الفرار في وضح النهار ، من خيمة محروسة ، وفي وسط مخيم معاً ، والضياع في صحراء مجهولة ...

كنت أعتقد أن بامكاني الاعتماد على عزيز ، فقلت ذلك لمعلمي . كان هو بدوره يفكر أنَّ سجننا قد تم بمبادرة من ناصر ، أكثر من أن يكون نتيجة شعور عام ضدنا ، وأضاف ((إن الجماعة المتعاطفة مع الأتراك مكروهة ، يحتقرها بقية أبناء القبيلة . فإذا ما توصلنا إلى إحداث هرج ومرج أمام الخيمة ، مكننا ذلك من إيجاد وسيلة للهرب ، والوصول إلى حظيرةِ الجياد في نهاية المخيم . وعلينا بعد ذلك أن نفر ، ممتطين جواديس ، ممن يلاحقوننا ، ثم إيجاد درب ما نضيع فيه أثَرَنا ، ثم الاندفاع مسرعين باتجاه حماة، في محاولة للوصول إليها قبل أن تغلق أبوابها ..)) .

تطلب مني إثارةَ انتباه جارتنا الجميلة بعض الوقت ، بعد أن قذفتها ببضع حصيات من فوهة في خيمتنا . وعندما ابتعدت والدتُها ، زحفتْ باتجاهي ، تملأ الدهشة عينيها . وبينما كان معلمي يلهي حراسنا ، كلفتها أن تذهب فترسل لي عزيزاً وأصدقاءه . ولقد وصلوا مسرعين ، مطالبين بأُصواتٍ عالية بإطلاق سراحنا في الحال، وشاتمين بصوت أعلى الأتراك وعملاءَهم . وبينما كانوا يسبون حراسنا ، أشعل السيد لاسكاريس

كومة صغيرة من البارود أمام حاجز القماش الذي يفصلنا عن الجميع . وكنت أنا قد مزقت الجهة الأخرى من الخيمة بسكين كانوا قد تركوه لي . وفررنا ، مستفيدين من الفوضى التي كانت تكبر ، بينما كانت الخناجر تلتمع ، مع النار التي التهبت ... فررنا زاحفين بين قطيع من الماعز ، متجنبين الطرق الرئيسة ، ومتلويين وراء الجمع القلق الذي كان يسارع باتجاه الحريق .

رسالة إلى السيد دروفيتي ، في الاسكندرية

من السيد لاسكاريس ، التاجر ، النبك (آذار ١٨١١)

حملتُ إليك رسالتي الأخيرة ، التي بدت على قصرها جافة ، أخبار هربي القلق من مخيم قبيلة بني حسن .

لقد عفوت ، بدون ريب ، عن لغتي اللاهثة : فأنا وخادمي قد وصلنا ، بعد أن لوحقنا على امتداد خمسة عشر

ميلاً، إلى حماة، حيث كانت الشرطة التركية قد تلقت، منذ قليل ، أمر ملاحقتنا ومطاردتنا . ولقد كان في ذلك كما أعتقد ، قطع للأنفاس .

إلّا أنّ هوية المشبوهين ، في ظل الإدارة العثمانية الكسولة والغامضة ، تتغير بمثل السهولة التي تتغير فيها طبائع كوميدية ميلانوية . فبينما يكون الإنسان للحظة لصاً ، أو جاسوساً ، يغدو أميراً ، أو بائعاً متجولاً ، أو صاحب مصرف ، حسبما يكون قد أزعج ، أو تملق ضابط الخدمة . وهكذا ، عدت ، تبعاً لهذا الموضوع ، الشوفالييه لاسكاريس ، واسترد خادمي عمله النشط .

خصصتُ بضعة أسابيع لأسرتي ، التي يظهر أنّ هدوءها قد بددته نشاطاتي الأخيرة . ولقد حملتهم على ترك حلب ، والانتقال للاستقرار في مدينة النبك الصغيرة ، التي تبعد ، عن دمشق ، مسافة عدة ساعات . إنها تعيش في حماية أسقف المدينة، الذي يعرف كيف يقيم علاقات جيدة مع الشرطة المتوحشة

التـي تكـن له بعض الاحتـرام ، ولقـــد ساعـــدني (السادة كاتافاغو) ، بناء على تعليماتك ، على إعادة رأسمالي إلى سابق عهده ، بعد أن كنتُ قد فقدتُ جميع ما أملك ، إبّان فراري . لقد كافأني ، يا سيدي ، دعمُكَ المالي ، عن الصعوبات التي صادفتُها لدى بني حسن . ولتسمح لي ، مع ذلك ، أن أعتب عليك ، من أجل عدم دقة برقيـاتك ، فيمـا يتصل بمشاريع جلالته . إنَّ نجاحي يتطلب أن أكون مخبراً بدقة عن استعدادات الحملة ، وعن الوقت الذي يقدر فيه تحرك أسطول طولون الذي سيكون عليه نقل الجيش إلى سوريّا . فكر ، يا سيدي ، في العزلة القصوى التي أجد نفسي فيها ، والمخاطر التي يعرضني لها خطأ ما حول موعد الإنزال المحتمل .

اتصلتُ ، بعد أن عدتُ إلى دمشق ، حيث التحق بي خادمي ، بجماعة من قبيلة (ولدْ علي) ، التقيتُها في خان هناك ، لقد وافقوا على نقلنا معهم إلى مخيمهم الرئيسي في سفوح جبال حوران ، غير بعيد عن مزيريب . من هناك أكتب لك ، على بُعد ثلاثة أيام من دمشق باتجاه الجنوب .

أما وقد ازددنا قوة بتجربتنا التعسة لدى بنـي حسن، واقتنعنا ، من ثم ، بأنه ينبغي علينا التعامل مع الرؤساء ، ومعهم وحدهم، فإنني اهتممت اهتماماً كبيراً بإعداد أمر دخولنا إلى مخيم (ولد علي) . ولقد اعتمدتُ على العظمة ، وعلى معاملة العبيد الذين يريدون التعامل معي ، مثلَ بقية التجار بعنف ، وعلى زيادة الهدايا التي قدمتها لجميع النبلاء ، وتوصلتُ بذلك ، منذ الأيام الأولى ، إلى أن أعامَل باحترام، وإلى أن يستقبلني الأمير، وهكذا دخلنا ، أنا وخادمي ، إلى خيمته ، واتخذنا لنا مكاناً في مجلسه .

يحكمُ هذا الرجل الذي لا يزال شاباً ، ستةَ أو سبعة آلاف من الخيام المتناثرة بين البحر الميت وحوران ، تؤمِّنُ له المراعي الجيدة ، ومراقبة الدروب المطروقة بكثافة دخلاً جيداً ومريحاً ، إنه يتمتع على كل حال ، باستقلال تام عن أعدائنا الأتراك ، ويحكم مستبداً شجاعاً قبيلة غنية . يحيا من دون طموح ولا قلق ، يصيد كثيراً ، ويدير أموره بقلب طيب ، ويباشر أعماله من دون إتعاب للفكر ، أو تجاوز للغرور .

أفيد من ضيافة هذا الأمير المسالم لاتمام معرفتي بالشؤون

البدوية . إقامتي هنا ستكون قصيرة . أحدس لألف سبب ، أن هذه الجماعة القليلة الطموح ، لا تستطيع أن تخدم مشاريعي . يجب أن أتحرك ، وأن أقنع قبائل أكثر حباً للحرب ، ويخيل إليّ أن من الضروري الإفادة من هذه المهلة لفهم حركة الصحراء ، والتفتيش عن مصدر هذه الأمور التي تقلقني .

فجميع قبائل سوريّا والعراق ، التي يؤلف مجموعها خمسائة ألف نفس تقريباً ، تتحرك باستمرار في الصحراء مع أسلحة وبضائع ، وقطعان . إنّها تتبع سير مواسم ازدهار المراعي . تفرض التقاليد التي تساعدها القوة ، أن يبقى هذا المرعى أو ذاك ، إقطاعاً لهذه القبيلة أو تلك بصورة طبيعية . ويتحرك بعضها من الشرق إلى الغرب ، فتشغل في الشتاء ضفة دجلة اليسرى حتى حدود فارس ، وتنتقل صيفاً إلى ضواحي دمشق أو حلب . وبعضها الآخر يقضي الشتاء باتجاه الجنوب ، وقد يرتقي في الربيع ليبلُغَ حدودَ الأناضول .

ويبقى توازنُ حركةِ هذه الجماعات وقتيّاً وعابراً . ولا يجب

البدو ، بالتأكيد ، الحرب أكثر مما تحبها بقيةُ الشعوب ، إلّا أن فقرَهم المدقع يضعهم دائماً على حدود المجاعة ، أي اليأس ، أي المغامرة القاتلة . إنَّ شتاءً قاسياً ، أو سحابة من الجراد يمكن أنْ يرفعا الستار عن أمور مرعبة : فقبيلة جائعة ما تجد نفسها مضطرة لاحتلال مراعي جارتها التي ستفتش ، في مكان آخر ، عن رزقٍ يوميٍّ لها على حساب قبيلة ثالثة . وهكذا تجد سوريّا نفسها ، بسبب من ردود فعل ، ملتهبة الأرض بالحروب .

إنَّ الأخبار التي نتلقاها اليوم تدلُّ ، مع الأسف على ظهور هذه الأزمات القديمة ، ففي الشمال ، يتقاتل الجميع في كل مكان تقريباً .

إنَّ القبيلةَ البطيئة الحركة التي تدعى (الرولة) ، والمعتادة على قضاء الصيف فيما بين النهرين ، والشتاء في منطقة الجوف ، على حدود جزيرة العرب ، قد تجاوزت مناطقها التقليدية لأسباب مجهولة . إنَّها تزرع الفوضى في كل مكان تقريباً على ضفاف الفرات . وأميرها المدعو (ابن الشعلان) يعظمه الناس لحذقه

ومهارته ، ولتطلعاته الاستراتيجية الواسعة . لقد هزم جيشا من الخيّالة الأتراك أمام بغداد ، بعد قطعه الطريق على القوافل التجارية . إنَّ عداوته للباشوات الأتراك تبدو عميقة . وهي توقظ حباً له بين شباب القبائل الأخرى ، مما اضطر بعض الأمراء ، بضغط من رعاياهم ، إلى الأنضواء تحت راية (الرولة) .

ويضاف إلى هذه الاضطرابات تهديد أشد خطورة يأتي من الجنوب . إننا نجد أنفسنا هنا قريبين جداً من مملكة غامضة سعودية ، بحيث أننا نحس بنشاطها وتدخلها في جنوبي سوريّا ، وفي فلسطين على ضفة نهر الأردن اليسرى . إنَّ بعض المسافرين يدّعون أنَّ موجات من الجراد قد اجتاحت مراعي الجزيرة العربية الوسطى ، التي يحاول سكانُها اجتياح أراض أخرى .

وأضيف إلى اختلاط الأمور هذا ، إن رسلاً لأحد الباشوات قد أسرتهم قبيلة (ولد علي) ، فأفادوا أنَّ المصريين قد نزلوا على ساحل الحجاز في مهمة إبادة الأسرة السعودية . إنَّ الخبر هام ، وآسف لأنك لم تعلمني بنيّات القاهرة ومشروعاتها . فلماذا

أعرف ، عن طريق المصادفة ، أمر هذه الحملة ؟ إنها ستقود السعوديين إلى تركيز قواتهم ضد المهاجمين ، وتكون سوريّا قد نجحت ، إلّا أنها يمكن أن تدفع جماعاتهم إلى الهرب باتجاه الشمال ، وتغدو سوريّا آنئذٍ ، مهددة . أرجوك أن تجعلني على صلة واضحة بما يحاك .

تعقد هذه الفوضى مهمتي ، بشكل كبير . وسيكون مفجعاً لقاء صاحب الجلالة الامبراطور لجيوش الملك سعود ، التي يقدر أنها قوية ، وكيف نتخيل قبائل سوريّا ، ضحية الحرب الأهلية ، قادرة على مقاومة مهاجميها ؟ وهل نأمل في أن تملك إحداها ، قبيلة الرولة مثلاً ، من الكفايات ما تستطيع بوساطتها فرض إرادتها وتحقيق الاتحاد الذي نتمناه ؟ .

لاسكاريس ، مذكرات (نيسان ١٨١١)

كي ــ ياك . كي ــ ياك . كي ــ ياك .

ويرتفعُ الطائر في الفجر الأرجواني لولبيّاً ، مستمتعاً بحريته ، ومستنشقاً ، في الفضاء الواسع ، رائحة الطريدة ومعها وعد بالدم . فلقد صوّموه منذ ثلاثة أيام .

كان (دوخي) أمير قبيلة ولدْ علي ، يرتب غطاء الرأس الجلدي الأخضر المزين بالدم وكان أولاده حوله يمسكون جيادهم . وعلى أصابعهم المرتدية قفازات ، كانت صقور لا تزال معصوبة العينين ، تجيب بالنق على همسات تشجيعهم . كنا ، أنا وفتح الله ، نقف بمعزل مع جماعة من السادة ، وأبعد منا تتحرك جماعة من العبيد : طباخون ، وطحانون ، ومدربو صقور . كان بعض الخيالة قد سبقونا هذا الصباح . إنّهم يحاولون ، في مثل هذه الساعة ، أن يدفعوا نحونا ، من الطرائد ، كل ما يستطيعون أن يثيروه ، من أرانب وغزلان ، وربما زوج من النعام .

إلّا أنّ عيون الجميع كانت مركزة على صقر الأمير : فهو الذي سيكون له شرف افتتاح حفلة الصيد . ولقد كفّ ، لأنه مقدم الاحتفال ، الذي يحمل غرور سيده كله ، عن الارتفاع ،

وأخذ يطير مع ضوء النهار . وفي الأفق كانت فريسته التي أعمتها الشمس الصاعدة ، تقترب ببطء ، غير شاعرة بالخطر بعد . وكنا نميز الأمور بصعوبة في مثل هذا البعد : طَيَراناً متناغماً ، وعَدْواً متموجاً ، إنها بطة أو إوزّة ، قد افترقت لسوء الحظ عن مثيلاتها اللائي يسبحن الآن في إحدى بحيرات الجولان . كانت تتقدم بتثاقل باتجاه الصقر ، الذي كان يلاحظ ، من كبد السماء ، تقدم فريسته .

كان الصيادون يقدرون تكتيك الطائر . إنَّ الإوزة ثقيلة ، قليلة الرشاقة ، إلا أن جناحيها ، وهما كتلتان من العظام والعضلات ، يمكن أن يزعجا مهاجماً أرعن . ثم إن هناك هذه الرقبةَ المتحركةَ الطويلة المنتهية بمنقار قوي جداً ، منقار يستطيع أن يضرب في جميع الاتجاهات ، عندما يجد الحيوان مستنداً في الأرض ، تجد الإوزة خصمها ، ستحاول بالتأكيد أن تهبط بمجرد أن تلمح الخصم . يمكن ، عندَ اللزوم إطلاق الكلاب لمنعها من ملامسة الأرض ، إلّا أنَّ ذلك يعني التعدي على الحقوق بالنسبة لصقر بهذه المزايا . ودوخي ، معلمه ، يؤثر أن يفقده مقطوع

العنق بضربة من إوزّة عابرة ، على أن يثلم شرف طائر ذي نسب كريم مثله .

والصقر ، على كل حال ، يعرف جيداً ما ينبغي عليه أن يفعله . فغريزة الحرب والقتل ، المنضجة لديه ، مثل سيده ، بأجيال من اللقاحات المنتخبة ، وقرون من المعارك في الرمال ، تملي عليه سلوكه . فما إنْ همس دوخي بنصائحه في أُذنَيْ الطير ، وما إنْ حدَّثه حديث الدم الذي يحوم فوقه ، حتى شعر بأنه مقود بفكرة مشتركة ، مؤلفة من تعليم الإنسان بصوت خافت ، وتعرف الطائر السبع واجبه في السماء .

وانقض كجلمود صخر ، مجتازاً الفضاء خلف الإوزّة . هاهوذا على مستوى الأرض . كان في طيرانه يمس رؤوس الأعشاب الرمادية ، ويكاد يعانق كل صخرة ، وكل ثنية في التراب ، وكل كثيب ، ثم اجتاز الإوزّة حتى تلمَحَهُ فوقَها ، ويعرف جيداً أن ليس بإمكانها في الوقت الحاضر الهبوط أكثر مما فعلت. إلاّ أنها هَدَّأت من طيرانها ، ودارت قلقة ، ابتعدتْ باتجاه الجنوب ، بينما

كان دوخي وأولاده يندفعون فجأة لكي يتبعوها ، واضطربت جماعتُنا كلُّها ، في لغط صياح رجال ، ونباح كلاب ، بينما كانت الصفوة المغطاة عيونها تضرب بأجنحتها فوق الأصابع المرفوعة لكي تحتفظ بتوازنها ، وتقاوم هواء السباق ، وربما لتعبر أيضاً ، وبشكل غامض ، عن حبورها وسط هذا الجنون .

وارتفع القاتلُ ، في الوقت الحاضر ، فوق الضحية وأجبرها على اتخاذ الارتفاع الذي يريد . وها هي ذي قد اتخذت وضع الموت ، وحركة الرقص الدامية في الهواء الطلق . وقام بأول فصل ، لتقدير دفاعات الخصم : استقر الصقر فوق الإوزة ، لاحظ طيرانها من بعد اثني عشر متراً ، مرتباً سرعته على سرعتها ، يكاد يقلد ثقلها في سخرية عجيبة .

وانضم جناحاه فجأة حول جانبيه ، وقستْ رقبتُهُ ، واستطالت مخالبه تحت بطنه ، ثم ارجحنَّ الطير الجارح ، وانقضَّ باتجاه الأرض كسهم ، ماساً ضحيته ، بحدود جناحيه الكبيرين القاتلين .

وها هو ذا يتقدم الفصل الثاني من المسرحية : إنَّه يعلو من جديد ، إلّا أنَّ انحناءَه كان أكثرَ شدةً ودقة ، وكان ذلك يعني أنَّه يريد أن ينهي مهمته . وتسارعت الإنقضاضة مرة ثانية ، وكانت أكثرَ دقة : أمسكتْ المخالب العنقَ الطويلَ النقيَّ ، ثم خفق الجناحان خفقتين مضطربتين ، وضرب المنقار ضربتين أشبهتا ضربتي سيف قاطع . تهاوت الإوزة مدوِّمة ، مفتوحة الجمجمة ، وسط تهليل الانتصار وصيحاته .

وعرف المنتصرُ قيمة ضحيته وارتشف إعجابَ جمهوره . وارتفع بحركة مسرحية عالياً جداً ، في ضوء الشمس ، ثم تركَ نفسَه ينزلق باتجاه الأرض في منحنى كامل .

انزلقَ ببطء ، ببطءٍ شديد ، حتى يمكن الجميع من تأمله ، وإعداد مكافأته من بعد .

كان (دوخي) ، سيدُه ، يحب هذا الزهو من حيوانه ، كان ينتظره ، واقفاً وِقفةً جامدة ، حتى لا تفسد ضربة جناح هذا المنحنى المسحوب الرائع ، وحتى يتمكن الطائرُ من التوضع ، كما قدر ، فوق إصبعه المنتصب .

وقامتْ آنـذاك ، بين الإنسان والصقـر ، عاصفـةٌ من الحنان ، والثناء المفرط ، والقبل المجنونة ، وكلمات الحب التي كان الطائر يجيب عنها بنقيـق وحشيّ . كان جمعُنـا يلاحـظ ، في صمت ، هذا الكلام المفرط : هذا الانجذاب السحريّ ، الذي لم يكن في الحقيقة طبيعيّاً ولا عاطفيّاً ، بل كان يجمع في النصر والقتل قاتلين من عرق واحد ، قاتلين يتصل أحدهما بالآخر ، اتصالاً غامضاً ، بالغريزة نفسها .

وها هي ذي المكافأة : دُرّاج اصطيد بالشبكة ، يلقى مربوط الأظافر ، بين قدمي جواد (دوخي) . وينقض الصقر ، غير مبالٍ أمام ضحية حقيرة مثل هذه : فضربةٌ واحدة من المنقار في الرأس ، وأُخرى في القلب ، ثم ، مع هذا ، ولأنَّ الضحيةُ كانت تجادل ، ولأنه يريد أن يكسر عظم القص ... مع هذا ضربةُ جناح لإسناد الرأس الذي ينقب بين الأحشاء . ويعودُ المنتصرُ إلى سيده مدمى فيتلقاه بقبلتين جديدتين ، بينما تكونُ الكلابُ قد أحضرت جثة الإوزة .

فتح الله ، ملاحظات (نيسان ١٨١١)

صيدُ الصقر . قالوا لي ، صيدُ الصقور ، سنرى كم هو بديع جميل ! وعندما دعا أمير (ولدُ علي) سيدي ، أعددتُ نفسي لأكون واحداً من جماعة الصيد .

قلت لنفسي ((يجب ألّا يفوتك هذا ، يا فتح الله ، فهو سيزودك بذكريات تستمتع بها في أيام الشيخوخة . إذا ما وصلت ، مصادفةً ، إلى أيام الشيخوخة)).

تحركنا قبل الفجر : وبينما كانت كلاب الصيد تتمركز في وضع احتفالي ، كان على طائر الأمير أن يبدأ الصيد ، وبينما كنا نكاد نتجمد من البرد كان يطير متلوّياً في الهواء . وبدأت المجزرة الحقيقية حوالي الساعة التاسعة ، ولم تدم طويلاً : فشمس الظهيرة الحارة تؤذي الصقور . كان كلٌّ واحد من الصيادين يريد في هذا الصباح أن يلتمع نجمُ طائره ، ليكون الطائرَ الممتاز . ولقد أطلق أولادُ الأمير من قبل ، صقورَهم على سرب من الحُبارى . ووصلت

سريعاً طريدة الريش ، التي أجفلتها كلابنا ، بينما كانت هذه الحيوانات تركض ، بسُعارٍ وراء الأرانب . ونزع القناع عن صقر لصيد ثعلب صغير ، انتهى به الأمر إلى الاختفاء في وِجار .

أطلقتُ نحو الغزال الأول ، ثلاثة صقور ، ثلاثة حيوانات رمادية ، عريضة الأكتاف ، تلتمع مناقيرها التماعَ حدِ السيف . وحزتُ فرسي ، لكي ألحق بالركب الذي كان يركضُ وراءها . إلا أن الطيور كنّ قد أدركن الضحية ، التي كانت ذكراً أشقر قرناه سوداوان . كان يفرُّ بِوَلَهٍ ، تصاحِبهُ الحيواناتُ الجارحةُ الثلاثةُ التي تنتظر تعبَه ، وهي تضرب الأرض حواليه بأجنحتها . وتوقف لكي يضللها ، فجأة ، ثم غيّر من اتجاهه ، ومضى عائداً إلى الخلف ، لكنه فَشِلَ ، فسرعان ما انقضت الطيورُ الثلاثةُ عليه من ثلاثةِ اتجاهات .

تجلت دفاعات الغزال ، بالإضافة إلى قرنيه اللذين كانت الصقور تتجنبهما برشاقة ، في تدحرجه على التراب حتى يسحق الطائر المتشبث بظهره. كانت طيورنا تعرف حركات الإبعاد

الخطرة هذه ، لذلك كانت تنتظر أن يضعف التعب حركات الحيوان الراكض. وسريعاً ما يقدم أحدها على الانقضاض على الحيوان .

إنّه يهاجم بوحشية عينيه الكبيرتين المذعورتين . وعلى الرغم من الانحرافات المجنونة ، والتقلبات الغضبى على الحجارة ، فإنه يترك الوقت الكافي لعمله ، ثم يهبط الليل على الغزال مثل نقاب أحمر . وتطلق الكلاب على الحيوان الأعمى الذي يتابع فراره وهو يتعثر . إنّها تنحره بسرعة ، متجنبة القرون الرهيبة التي كانت تضرب الهواء بلا تبصر . وتعود الصقور إلى أربابها شُعْثاً ، مترنحات سروراً ، لأنهن يكرهن عمل القصابين المرهق الذي كانت الكلاب تقوم به .

أقام الخدمُ المخيمَ حوالي الساعة الحاديةَ عشرةَ ، على هضبةٍ عارية ، تفحصناها في جميع الإتجاهات . كانت بضعُ خيامٍ فقط تحيط بخيمة الأمير ، خيامٍ سيتناول الصيادون فيها الطعام ثم يقيلون حتى المساء . كان العبيدُ ينتفون ريش الصيد ضاحكين ،

وانبثقت ، هنا وهناك ، نيرانٌ صغيرة ، كانت الأرانبُ المعلقةُ في سفافيد تقطر دهناً فوقها ، ولقد غُسِلَت الصقورُ بالماء البارد قبل أن يمشط ريشها طويلاً .

كان السيد لاسكاريس ، بعد الطعام ، يحدث ابنَ الأمير الذي كان يستمع إليه من خلال ضباب التعب والشبع . كان معلمي يفكر في ترك هذه القبيلة المضيافة ، ومتابعةِ حلمه بالمعارك والانتصارات في مكان آخر . كان يقول « ليس مصيرُنا البدءَ لدى جماعات مسالمة . ما يلزمنا هو اختراقُ المزيدِ من أسرار الصحراء ، والكشفُ عن حجبها ، إنَّ الامبراطور ، يا فتح الله ، لم يخترني للحياة المسالمة مع خرفان ، بل لترويض المقاتلين . » .

لاسكاريس ، مذكرات (مايس ١٨١١)

ساحة البيمارستان تتلألأ نوراً . فالشمس تضرب الجدران الصفر الشاحبة ، وتقفز فوق حجارة الأرض المفككة ، وتحرق ضلفتي الباب الضخم ، الثقيل ، المنفتح على الصحراء .

في بقع الظل التي يلقيها البرجُ وأعمدةُ الرواق بضعةُ كائنات ممسوخة ، أنفاسُها قصيرة ، وحركاتُها نادرة ، وقواها تجرُّ نفسَها في الحرارة التي لا تحتَمل . إنَّ ما تبقّى لها من روح يتركز في الدفاع عما بقي من أرض تافهة ضد الدخلاء المتطفلين . وهكذا ما إن يدفع أحدُهم ، جاراً أقلَّ منه تشويهاً نحو الشمس ، حتى يكون قد أُجبِرَ على الإفادة مما تبقى له من قوة ، وعلى الانتقال إلى الظل الشاغر في مكان آخر من الساحة . الرملُ يلتصق بالجروح التي ينزف منها الدمُ على الحجر ، والجفونُ المقروضة تتلوّى بجنونٍ لتحميَ العينَ من أشعة الشمس التي لا تَرحم .

كلُّ واحد منهم يعرف هذا الصلب الذي ينتظره ، وتتفجر هنا وهناك ، معارك وحشية لإبعاده : معارك بالأظافر ، والأسنان ، والضرب على الرأس . ويأتي النساك بعد قليل لإعادة النظام مستعينين بكلاليبهم ، لقد رأيتُ الكثيرَ من هذه المناظر منذ أسابيع ثلاثة قضيتُها غاضباً ، من دون حركة ، مع النساك ومرضاهم ، منتظراً أخبار فتح الله ، في هذا المكان الملعون ،

والمأمون ، الـذي يحرسه الجذامُ أكثرَ مما تفعل ذلك فصيلةٌ إنكشارية .

أوقفَ الخيالةُ الثلاثةُ مطاياهم في وسط الساحة : مهاراً ثلاثة شقراً تظهر مستريحة ونظيفة : لا ريب أنهم قد سقوها في القريتين قبل أن يصلوا إلى البيمارستان . تأملتُ البداةَ ، واقفاً أمام الباب ، منتظراً جوابَهم على تحيتي ، بعد أن فهمتُ أشياء عن سلاح حربهم ، وعدد رواحلهم البسيطة ، ومعاطِفهم السود الطويلة ، وعيونهم المائلة ، وقاماتهم القصيرة ، ينتمي هؤلاء الرجال إلى قبيلة (الرولة) ، ولقد أُرسلوا لاصطحابي لدى أميرهم . فتح الله إذاً ، قد نجحَ ، فيا للفتى الشجاع !.

بيَّنت لفتح الله ، لدى مغادرتي قبيلة (ولْد علي) المسالمة جداً ، وبعد أن رافقتهم في حفلات قنص وصيد في حوران ، كم غدا هاماً بالنسبة لي ، التحاقي بمخيم (الرولة) وعقدي صلة ما بزعيمهم . لا يتحدث البدوُ في المجالس إلّا عن هذه القبيلة غير

المعروفة ، وعن الحربِ العامة التي أعلنتها في الشمال ، لقد تحدثنا عن هذا ، ونحن نقطع الدروبَ التي قادتنا إلى القريتين .

لم يكن هناك إنسانٌ ما ذاهب في الاتجاه الذي نسيرُ فيه . فعلى الطرق ، والدروب ، كان المشاةُ والخيّالةُ ينحدرون نحو الجنوب هاربينَ من القلاقل . وحصلنا ، ونحن مارين مسرعين ، على بعض الأخبار : إنَّ حربَ البدو قد اشتعلتْ ، وامتدتْ ، ووضعت سوريّا في النار والدم . كانت قبائلُ غريبة تظهر فجأة ، مندفعة من الشرق ، مدعية في كل مكان رفع الأتاوة باسم زعمائها المجهولين . كانت الأسعار ترتفع بجنون : الزبدة ، والتمر ، والطحين ، كل شيء قد اختفى ، بعد أن احتكره تجار دمشق . كانت القوافل تدور في الضواحي ، منتظرة إجازات المرور الغالية الثمن . وكانت تلمح ، أحياناً ، فصائل الخيّالة التركية ، المكلفة بإعادة النظام ، والتي انقلبتْ إلى عصابات تكتفي بنهب ما كان البدوُ قد أهملوه .

لم يعد بمقدوري التفكير ، في هذه الظروف ، بعودتي إلى التنكر بائعاً متجولاً . كان قد أصبح ذلك غير محتمل ، وغير

نافع ، وخطر من دون ريب . فقبائل (الرولة) في حرب ، لا يعرف لماذا ، ولكنها في حرب . إنَّ من المناسب إذاً ، الاتصال بهم بصفتي العسكرية ، لأعرضَ عليهم تحالفاً ، مع فرنسا . كان عليَّ ، بالطبع ، أن أحتفظ دائماً باسم مستعار ، وأن أخفي هويتي القبرصية المهربة التي أجرها معي منذ ست سنوات : أن عليَّ أن أحذّر الترك دائماً ، وأسرتي في النبك تبقى معرضةً للخطر ، لكنني لا أريد البتةَ إخفاءَ مهمتي : فهي رائعة حقاً .

رائعة ، إلّا أنها مشكوك فيها أيضاً . فصعوبات سفارتي لدى (الرولة) كانت تظهر جديرة بالاعتبار ، إبّان تحركنا نحو الشمال وثوراته . كنّا معرضينَ لخطر الاعتراض من قبل دوريات لا تؤثر فيها البتةُ إدعاءاتي الديبلوماسية . وإذا ما توصلتُ إلى لقاء أمير الرولة فسيكون شأني في ذلك شأن أسير نصف ميت ، في نهاية مقود يسبق خمسة عشراً بعيراً بيضاً كنت أحلم بإهدائها إليه .

ولقد جاءت لفتح الله ، ويا للعجب ! الفكرة الأولى لمَقدمٍ أكثر احتفالاً ، مَقدم معلن ، يعده بنفسه . لقد أكد أنه سيتعرض

إلى مخاطر أقل . وهو ينزلق وحيداً نحو أراضي الرولة ، مدعيّاً أنه جدير بأن يوقظَ فضول الأمير ، ويثيرَ اهتمامه . والحقُّ أننا كنا نعرفُ اليوم عن (بني حسي) و (ولدْ علي) ، وعن تحركات الأتراك ، وقوة فرسانهم المؤثرة ، ما يمكن أن تهتمَ له قبيلةٌ في حالة حرب . بإمكان فتح الله أن يستخدم ثرثرته من أجل تقديمي نبيلاً ، صديقاً لنابليون ، ومكلّفاً من قِبَلِهِ بمساعدة (الرولة) في تحقيق مطامحها ومصيرها . ثم إنَّ قليلاً من الذهب ، المرسل من (دروفيتي) ، كفيلٌ بإكمال مهمته في دعم مكانتي لدى أمراء القبيلة .

دُهِشْتُ من عرض خادمي هذا ، ودهشتُ أكثر من قبولي إيّاه في الحال . فلقد نضج هذا الشاب إلى جانبي ، وتطور من دون أن أشعر بذلك . إنَّ ذلك الرجل الذي يركب الجواد ويسير معي على طريق القريتين لم يعد البتةَ خادماً . فاللغةُ بيننا بقيت نفسَها : نصائحَ أبوية ، وأوامرَ حماسية من جانبي ، واحتراماً باسماً من جانبه . إلّا أن فتح الله قد أرسل شعره على شكل ضفائر تضرب وجنتيه ، وهو يتحلى بقرط غريب ، وخناجر مخيفة ،

ويشبك كفتيه على صدره مثلما يفعل رجال الحرب ، رمحه لا يفارقه أبداً ، وهو قضيبٌ من شجر زانِ البصرة ، منتهٍ بزج من الصلب ، وسنانه مثلث مزين بريشات سود ، والعصا محفور عليها عباراتٌ مرعبة .

كان على المسافرين ، الذين يمرون بنا على طريق القريتين ، أن يسائلوا أنفسَهم أمام هذا البدويّ الطويل الجذاب الذي يصحب هذا الحاج الباهت الأشيب القاسي ، كما كنتُ أبدو في أعينهم . خلاصةُ الأمر أن صبيٌ حلب الآفاق مُقْدِمٌ على التحول إلى وحش صحراء رشيق وسريع وربما خطر . لم أترددْ في إطلاقه على الدروب بحثاً عن (الرولة) . ولقد كنتُ على حق . فالخيّالةُ الثلاثة الذين أتوا يبحثون عني ، يشهدون بنجاحه .

لاسكاريس ، مذكرات (مايس ١٨١١)

صبَّ الطباخُ مِلْءَ قبضتِهِ من بُنٍّ أخضر في مغرفة مثقّبة .

طافَ بها على شعلة روث يابسة ملتهبة . طقطقت النارُ ، واستنارت الخيمة ، وتصاعد عِطْرُ الحبّاتِ بسرعة ، باتجاه أنوفنا ، صبَّ الرجلُ في هاونٍ ضيّقِ الفتحة ، القهوة التي كادت حباتها تسود ، ثم سَحَقَها ، وهو يُرقِصُ المدق بين أصابعه السريعة السود ، وغلى الماء في دلة القهوة التي كدرها وقوفها على النار آلافَ المرّات .

لم يكن هناك من كلمةٍ في خيمة ابن الشعلان ، أميرِ قبيلة (الرولة) المرعبة . فالرجالُ الذين يحيطون بي ، من أقارب ، ورؤساء حرب ، وكتاب ، وشباب قبلوا مصادفة في المجلس ، كانوا صامتين وهم يرون العبد يعيد الحركات الدقيقة التي كانوا قد رأوها من قبل مائة مرة . تُعَدُّ القهوة ، الشراب المقدس ، المحمل برموز عطرة ، في صمت . تُعَدُّ بدون إجلالٍ وثني ، ولا طَقْسٍ لا طائلَ وراءه ، ولكنها تُعَدُّ ، على كل حال ، في صمت مطبق .

كان الطباخ قد أفرغ الهاونَ في الدلّة التي تتصاعدُ منها رائحة خمر حارة . وانتقى من كيس جلديّ ، يتدلّى من عنقه ،

قبضةً من مسحوق شاحب اللون ، مسحوقِ هال الهند ، الأغلى من الذهب ، والمُسْكِر أكثر من البخُّور . واصطدم العطران المتنافسان في الخيمة ، ثم تصادم عطر اليمن مع أريج الهند ، الحب الأسود ، مع المسحوق الأشقر ، وذابا مخترقين أركان الخيمة ، مثيرين نظرات الإعجاب لدى الرجال الحاضرين .

ووضع الرجل ، على دلّة أخرى ، ملتمعة ، تعلوها كتابة قديمة ، مصفاة من قشر ، سكب الشراب من خلالها ، وتناولَ بنفسه أول فنجان ، ثم شرب منه أمام الأمير مركزاً نظراته عليه . فإذا ما وُزعت الفناجينُ الساخنةُ على الحاضرين ، استؤنف الحوار بهدوء . ثم تصدر عن بعض النبلاء إشاراتُ استحسانٍ رصينةٌ يلمح فيها الجميع تعبيراً عن اللذة ، وثناءً على المضيف ، وحمداً لله .

وأخذتُ ألاحظ ابنَ الشعلان ، الرجلَ القصير القاسي ، الأسمرَ اللون الذي كان طموحه يهز سوريّا . كان في حوالي الأربعين أو الخامسة والأربعين من العمر . أما إخوته الأصغر سناً منه فلا

يزالون في سن الشباب . وتنفرج شفتاه اللتان تعلوان دقناً قصيرة عن أسنان بيض تامة ربما يرتجف منها من ينظر في عينيه . ولقد نقلتْ إليّ ، حول هذا الرجل الصلف ، والقاسي والعنيد ، طُرَفٌ ونوادر ، حولَ المصير الذي يدخره أحياناً للأسرى الأتراك ، فأيّ كره يدفعه إلى ذلك إذاً ؟.

وتساءلتُ أيضاً حول يديه الناعمتين بالنسبة لرجل يستعمل السيف والرمح ، يديه اللتين خلقتا لمداعبة الأطفال أكثر مما تكونان قد خلقتا لقطع الأعناق... ومع ذلك، فإنني أشعر ، بالغريزة ، أن هذا التعارض بين النعومة والقوة ، بين الليونة والقسوة ، يمكن أن يخدم مخططي ، فما دامَ على رئيس (الرولة) أن يكون نقطة استناد لمهمتي ، ومحور الوحدة التي أحبكها في الظلام ، فإنه يلذ لي ألّا يكون هذا الرجل بسيطاً . أنا بحاجة إلى ذكائه ، كما أنني بحاجة إلى قسوته .

ولكنه هو نفسه ، أيكون بحاجةٍ إليّ ؟ وكيف أستطيعُ أن أفرض نفسي على هذا الزعيم الذي يطير من نصر إلى نصر ؟ إنَّ

ترحيبَه اللطيفَ ، ودعوتَه إيايَّ للمشاركة في مجلسه منذ وصولي يبينان أنَّ فتح الله قد أتمَّ ، بشكل جيد ، عمله نذيراً بالحرب ، فلقد وصلتُ هذا المخيم تسبقني سمعة القائد الاستراتيجي ، وهم يعتمدونَ على معرفتي بالمواقع التركية ، وعلى صِلاتي بقبائل الغرب التي لم تتعامل (الرولة) معها منذ أمد بعيد . ويشكل ذلك كله كسباً صغيراً : إنَّ فتح الله قد عرف كيف يقوّمه ويملؤه زهواً ، وربما إلى الغاية .

وأصبح من مهمتي أن أذهب إلى أبعد من ذلك ، أن أكسب ، لدى الأمير ، التأثير الذي يلزمني . ليس لديَّ إلّا حليفٌ واحد : نابليون . ولا بد أن بعضَ أخبار حروبه في أوروبا قد بلغت هذه الزاوية من الصحراء ، وهي مستندي الوحيد . إنَّ الخيلاء الذي يملأ نفسه لأنه قد كسب مبعوث الامبراطورية ، وأمله في الاعتماد يوماً ما على مساعدته لطرد الترك من سوريّا يمكن أن يؤكدا لي التفوق في المجلس ، إذا ما استطعت الإفادة منهما .

وكان يلزمني مع الأمراء التابعين ، والأقارب ، وزبائن

الأمير ، الحذرُ ، والقليل من الغرور والزهو حتى أمكّن لمكانتي لدى هذا السيد الكبير . ولقد أفهمهم فتح الله أنَّ مرور الجيش الامبراطوري سيرفع من أثمان الجمال ، وسيخلق فرصاً ممتازة للكسب . وسيتأثر الجنود المشاة ، أخيراً ، بشيء من السحر . فسنرى فيما إذا كنتُ أستطيع أن أصنع لهم منطاداً ، كما فعل (كونتيه) الشجاع في القاهرة ، أو إذا كانت كيمياء السيد (بيرينيه) ستكفي .

لاسكاريس ، مذكرات (مايس ١٨١١)

عندما أتذكرُ تلك الأمسية الحاسِمة جداً ، والتي عَرَفَتْ فيها جماعةُ (الرولة) قوتي ، وحيّتني قائداً لها ، أشعرُ بشيء من الخجل . فلا بُدَّ لي من أن أغرر بالبسطاء ، والقوى السحرية ، التي انتحلتُ معرفتها ، والإفادة منها ، تربكني قليلاً . كنت أود لو أنهم اتبعوني من أجل قيمتي وعلمي ، أكثر من أن أبجل بسبب

وصفات يعلمونها في رهبانيات نظام جزيرة مالطا . إلّا أنّه كان عليَّ أن أتصرفَ بسرعة ، ولم يكن لديَّ خيارٌ ، ولقد نظمت مهزلة انتصاري وأنا أفكر في أجدادي الذين أوقفتْ نيرانُهم العربَ طويلاً أمام حدود بيزنطة .

أتتني الفكرة وأنا أشاهد منابع الزفت التي تطفو في الصحراء قرب مخيم الرولة . كنا نخيم فيما بين النهرين ، في مكان ما بين دير الزور والموصل ، وكنا نرى الناس يحرقون مادةً ما في الليل فتشتعل . ومن هنا يأتي النفط الذي ألقاه (كالينك) بمهارة على أسطول العدو . أأتمكن ، بدوري ، من الإفادة من شذوذ الطبيعة هذا ، كما فعل ذلكم السرياني المشهور ؟.

وتكفلت حماسةُ فتح الله بالباقي . عندما كشفت له ما أريده : عدة أوعية للنار مملوءة بالقار والكلس الحي ، تبنَّى ذلك في الحال ، وطوره ، وعقده ، وبدأ في الحال تحت إشرافي ، بإعداد نار عظيمة .

أرسلتُ بعضَ العبيد لقشر ملح البارود من خرائب تحاذي

الفرات . وكان فتح الله قد أقنع نسوة بإعداد فحم الخشب ، الذي دققنه مسحوقاً ناعماً . ولقد صفيّتُ ، في مطبخ مرتجل ، كنتُ أدخله وحدي ، مطبخاً مدهوناً بالتالك ، لأن هذه المواد حية عنيفة. صفيّتُ في هذا المطبخ ملح البارود، وقَلَيْتُ فتائلي في الكبريت . وغيرَ بعيدٍ من هذا المكان كان أطفالُ يسكبون في قلب شجرة ، خليطَ الزفت والكبريت الذي أعددتُه لهم . وكان آخرون يستعملون شكيمةً قديمة ليجعلوا منها برادة . لو أن يوسف الإفريقي ، الذي تكلم عن هذه الأشياء ، وولد هنا ، عاد مرة ثانية ، لدهش مما يرى .

إلّا أنَّ الراهب العالم يسجل بحق أنه باللون نتعرف المصطنع . كان لديَّ في صيدليتي حجر يشب ، ورَهَج أصفر ، يمكن عن طريقهما إحداث الأزرق والأبيض اللذين أبغيهما . واعتمدت ، لعدم توفر الكهرمان الأصفر ، على الراتنج ، والبطم لإحداث اللون الأصفر ، وكنت أتذكر أنَّ شحّار الدخان المسحوق مع البارود وملح البارود ، يعطي أحياناً ألواناً حمراً جميلة ، ويعطي أحياناً ألواناً زهرية محببة .

وكان المسرح الذي سأقدم فيه مشهدي موضوعَ بحثٍ طويل . فلقد كان الواجبُ يقضي أن يُقامَ بعيداً عن القطعان بشكلٍ كاف حتى لا تجفل ، وليس بعيداً ، مع ذلك ، عن القبيلة حتى تتمكن من الذهاب إليه بسهولة . كنت أريد صَخَراتٍ لإخفاء الجماعات المشاهدة من الانفجارات المحتملة ، وحفراً لأتمكن من إطلاق متفجراتي ، بلباقة ، وكان يلزمني ، خاصة ، نوع من شناخ مرتفع استطيع الظهور فوقه ، محاطاً بالشعلات ، في وضع نهائي معظم .

وضعنا أخيراً ، في المكان المختار ، مراجلَ النار السائلة ، وحشوات البارود ، وأسهم الشجيرات ، والجِرار المغلقة المحشوة بملح البارود ، التي كنا نسميها في مالطة جرار سوريّا . وكان في وسط المشهد طاحونة صغيرة تمد أذرعها المصنوعة من مشاقة الكتان الزفتي .

وعندما أقبل الليل ، أشعل فتحَ الله ، أمام القبيلة المجتمعة : أمام ابن الشعلان وزوجاته ، ومستشاريه الذين بينهم من

أنكر تحركي السري ، أشعل فتح الله أمامهم أسهم الشجيرات الأولى ، والفتائل الأولى . والتهبت النار السائلة في الوقت الذي كانت فيه انفجارات الجرار تصدر أصواتها . وبدأت الطاحونة ، أمام ابن الشعلان ، بالدوران على أذرعها النارية .

وعند ذاك ظهرتُ فوق مرتفعي ، أمام الرولة المدهوشين ، وسط الشعل الملتهبة بالألوان الخضر والصفر ، والمغتسلة بمطر من برادة متأججة . وعندما تأملت الوجوهَ الجامدة التي كان انعكاس من الأرجوان يتراقص عليها ، فكرت في (سالوميه) ابنةِ هيرود التي كانت رجلاها تحركان الرمل ، بينما كانت تعرف ، كما أخبرنا هوجينوس ، كيف تؤنس الرعد والبرق في سفن من البرونز .

فتح الله ، ملاحظات (حزيران ١٨١١)

يا إلهي الحي ، ما أقساه ! هذا السير . إنّنا نسيرُ ، من دون توقف ، منذ يومين . لقد تمكنت من النوم قليلاً ، تهدني هملجة بعيري ، حيوان الحرب الجميل هذا ، الذي يسمونه

(ذَلولاً) . إنه حيـوان مخيـف هذا الذلـول : فالمعـارك تثيره ، وخاصة عندما يتوجب الإنحدار من كثيب بخطوات كبيرة تحت نيران العدو . إلّا أنّه لا يمكن أن يستعمل لأغراض أخرى . حمل محارب على ظهره ، أو اثنين ، هذا عمله الذي يتقنه ، ولكن لا لبقية الأعمال ، ولا لاستعماله في أمور أخرى ، فأن تحمل عليه مثلاً أكياساً من الرز ، أو صناديق للنساء ، فعند ذاك يثور الذلول ، ويدفع العبيد بقوة عن لَبانه الأصهب ثم ينام ، ويخيل إليك أنه يقول بمشفره المتعالي (انتباه، لا تخلطوا الأمور من أجل عمل البردعة ، عليكم بالبغال) .

عُمْرُ الذي كنت أمتطيه اليوم أربعةُ أعـوام ، أو ربّمـا خمسة . هل ولد في مخيم قبيلة (الرولة) التي ينتسب إليها ؟ أم كسب عندما اكتسحت قبيلة أخرى مجاورة ؟ إنني أتساءل عن المعارك الأخرى التي خاضها ، والمعارك القادمة التي سيتحملها ، وما الكمائن ، أو اندفاعات الفرار التي مرّ بها . ومالكك ؟ قل لي ما الذي حل بمالكك ؟ أيها الذلول الكبير ، الذي يمتطيه فتح الله اليوم .

لقد مات ، من دون ريب ، وفي وقت قريب ، هذا البدويّ المجهول الذي كان يهمس بكلمات التشجيع التي تحبها ، الذي تعرف إبهام رجله أكثر من إبهامي ، كيف تقودك في أكثر الأماكن حساسية من رقبتك ؟.

هأنذا منذ ست وثلاثين ساعة فوق سنامك ، عظامي تكاد تتكسر ، وفخذاي ملتويان ، وحنجرتي ملتهبة ، وأنا لا أعرف منك سوى اضطراب ظهرك ، وهذا الهوس في الجذب إلى اليسار بدلاً من متابعة كفل رفيقك الذي لا نلمح من كتلته منذ مساء الأمس ، سوى كفله ، لقد أمات التعب كل فضولٍ لديَّ .

وهذه الليلة ، مع ذلك جميلة ، ولو أنها مظلمة . لا يزال الهواء يشتعل حرارة ، ولا تزال الصخور تنشر دائماً ذكريات حرارة الأمس التي لا تحتمل . إلّا أن روائح خفيفة تسعى في الظلمة ، وها نحن أولاء قد عثرنا ، منذ قليل على شجيرة ... ينبغي أن يكون هذا الحقل مزروعاً : ولعلنا نحسن صنعاً لو توقفنا فيه ، وتركنا حيواناتنا ترعى ، ونمنا بتثاقل فوق الحجارة . إنها فكرة لطيفة ، وحلم

بعيد عن الحرب لا يمس بالطبع ذلولي . هذه البهيمة التي لا تقف أبداً من أجل شجرة ، بينما تقود جندياً إلى الحرب . أنت محق ، يا ذَلولُ ، ففي الحرب يجب التفكير فقط .

رتل قوتنا يمتد لعدة كيلومترات ، رأيت البارحة ، عندما اجتزنا هذه الهضبة الجهنمية من الملح آثار الأقدام تتلوى بين مستنقعين تكشف عنهما قشرة أرض أكثر قتامة ، ولقد تمكنت من تمييز تتابع الجمال الطويل ، أمامي وخلفي . كم عددنا في هذا الرتل ؟ أربعمائة محارب ، خمسمائة ؟ وستلاقينا كتائب أخرى ، استنفرت من مخيمات شاذة ، مثلنا ، لنلتقي جميعاً في موعد سريّ : كم سيكون عددنا بعد قليل ؟ ألفان من الرجال ؟ ربما ، ولكن يا لهم من رجال !.

رفاق من (ولد علي)، ومن (بني حسن)، يبدون بغزواتهم الصغيرة أغراراً ضعافاً هزلين أمام محاربي الرولة هؤلاء ، الجريئين الجسورين والغامضين مثل معاطفهم ، والقساة أمام التعب والعطش ، والمتصلين بالنظام الدقيق الذي يفرضه الأمير لأسلحتهم إلتماع عيونهم القاسية .

رماحهم أقصر من رماح عزيز ، وسيوفهم المطرقة في بصرى سنت على حجارة البازلت . جردوها من حليتها الرخيصة التي كانت تزينها ، فالريش وقطع المرايا والنقود المضروبة في فارس ، قد اختفت كلها منذ دخلنا أول معركة . فمحارب (الرولة) لا يملك إلّا غرور النصر ، ولا زينة لديه سوى مجد القبيلة ، ولا إرادة له سوى إرادة أميره ابن الشعلان الذي يسير ممتطياً جواده ، في مكان لا أعرفه ، والذي سيلتقينا بعد قليل ، ليقودنا إلى المعركة .

المعركة . كيف ستجري هذه المعركة ؟ الأدلاء الذين سبقونا ، قد تعرفوا ، من دون ريب ، الأرض التي اختارها الأمير لكي يجري فيها مناورات الذلولات ، ولعلهم قد خمنوا القبيلة التي سننقض عليها . إنَّ الفرسان البسطاء مثلي ، لم يعرفوا سوى أمر التجمع الموجز ، ولم يروا سوى توزيع الماء ، وتشكيل الفصيلة ، ثم السير من أول البارحة . إلى أين ؟ ضد من ؟ باسم أيِّ شيء ؟ لا أحد يعرف شيئاً من ذلك .

بنو حسن يزعقون ويصرخون ، على مدى أيام قبل بدء

المعركة ، مقدرين فيما بينهم مخاطر المقاومة ، وأمل الغنيمة . أنا أحب هذه الغزوات الثرثارة ، وضحكات قطاع الطرق العالية هذه . فمع احتمال الموت ، أفضل أن يكون ذلك في عملية جيدة بين رفاق ممتازين ، أكثر مما أريد ذلك في أرتال قاسية وصامتة . إلّا أن السيد لاسكاريس لا يقلق أبداً ، إذا ما عرف أنني أفضل أن أكون قاطع طريق ، أكثر مما أفضل أن أكون جندياً . قال لي « لنتعلم الحرب ، ولنتعلم النصر ، وبذلك نكسب ثقة الأمير » ، ثم تركني ليلتحق بأركاب حرب ابن الشعلان ، منظف ، علانية ، منظاراً مقرباً ، كان يعيقه أكثر مما يترك لدى العدو أثراً ما .

سأجده سريعاً ، من دون ريب ، فالفجرُ قريب ، وفي النور الوليد سأرى من جديد رتل الجمال الطويل . وتباطأت الخطى . فالرؤساء في المقدمة يبدو أنهم يريدون أن يجمعونا في فصائل مميزة . لقد نُشِرَتْ أعلامُ القبيلة بلونيها الأحمر والأسود .

ودرج الفارس القاسي الذي يتقدمني ، معطفَه بعناية ورفع جلبابَه مظهراً أمامي ظهراً كامداً محروثاً بالندوب : إنَّ البدو يحبون

أن يحاربوا شبه عراة . أما الذي يتلوني فكان يأكل بهدوء كعكة ، ووراءنا آخر ينشد أغنية . فلنندفع فإن الهجومَ غدا قريباً . ولأحاول أن أبين لهم أنَّ من الممكن أن يكون الإنسان نصرانيّاً ، وعارفاً بشؤون القتال في آن .

لاسكاريس ، مذكرات (حزيران ١٨١١)

النصر ، يا للنشوة الخفيفة ! ويا للسعادة اللامبالية التي اجتاحتني ، خانقة دفعات الرحمة التي يجب أن أشعر بها ، مع ذلك ، تجاه المغلوبين ، والمسلوبين ، والقتلى المدفونين على عجل ، والجرحى الذين تركوا يحتضرون في الشمس المحرقة ...

لقد انتصر ابن الشعلان على قبيلة ضفير ، وتغلب عليهم ، اتبع ابن الشعلان نصائحي وإرشاداتي ، ناور الفرسان كما أوصيتُ ، في الساعة والصورة اللتين اخترتُهما بنفسي . ولقد فزتُ بتقدير الأمير ، وحتى بصداقته . إنه يريدني أن أكون دائماً إلى جانبه . ولقد نلتُ ، عن جدارة احترامَ الرؤساء ، ونلت أيضاً

طاعة المحاربين . فبعد كثير من الجهود ، والنفاق ، والرقابة القاسية على كل كلمة ، وعلى كل حركة ، وبعد ضغط النصائح التي فرضتها على نفسي ، وعندما كان القواد الحاسدون ينثرون أمامي شراك مؤامراتهم، وعندما كانت أقل حركة خاطئة تكفي لاستلال الخناجر ، بعد كل هذا التكثيف في الأيام الأخيرة ، هأنذا أشعر بأنني هادىء ، فرح ، سعيد .

كان عليَّ أن أتغلب على قبيلة ضفير ، إلّا أنه كان عليَّ أيضاً ألّا أدمرها أو أذلها . هذه الجماعة ترعى قطعانها في مقاطعات العراق . وفي كل صيف ، ومنذ زمن قديم جداً ، كان (الرولة) يدفعون طلائعهم في هذه المناطق، وكانوا يقتلون إلى حد يرزحون فيه تحت قائمة طويلة من الأخذ بالثأر المتبادل التي تثقل العلاقات بين الجماعتين . أما وقد غدت الرولة ، اليوم أكثر قوة تحت قيادة ابن الشعلان التي لا ترحم ، فإنها تحلم بغزوة حاسمة ، بمعركة تاريخية ، تحدث مرة في كل قرنين . وفي نهايتها تكف قبيلة ضفير عن الوجود .

إلّا أنني كنت بحاجة إلى بني ضفير ، لأنَّ لديهم بنادقهم التي يحسنون استعمالها . إنَّهم ، عن طريق الأكراد ، يحصلون على أسلحة غنمها هؤلاء من الفرس ، الذين يتلقونها من قبائل خوزستان البدوية ، سادة الشط حتى حدود بلوخستان ، ومن هناك عن طريق الهند . إنني أستطيع ، بالتأكيد ، الحصول من (دروفيتي) على مقدار من الذهب أؤلف بواسطته بعض الفصائل الرولية ، إلّا أنه لم يكن لديَّ الوقت لتعليمهم التسديد الجيد الذي يتقنه الضفيريون . لقد فهم ابنُ الشعلان هذا ، فوافق على فكرة التحالف مع هذه الجماعة التي تُحْسِنُ استعمال البنادق ، ولقد اقتنع إلى حدٍ ما ضباطُه بضبط قواتهم ، وتفادي المجزرة المحتملة (لقد حاول أكثرُ من روليّ ، هذا الصباح ، سفك دم يترك إرثاً من الحقد) .

ويجب ، لكي ننتصرَ من دون إذلال ، أن نبعد جيش ضفير عن مخيمه ، وأن نتجنب تدمير الخيام ، وسرقة الجمال ، وسبي النساء والأطفال الذي يترك جروح شرف لا تندمل ، وتتطلب ثأراً . لقد نظم أمرنا بين العسكريين . ضاعفت من

ضربات اليد على مخيمات متفرقة ، تتطلب مزيداً من الخسارة تجعل العدو يرتاب ويتجمع . وعندما علمنا من كشافتنا أنهم أرسلوا نساءهم وحاجياتهم بعيداً باتجاه الشمال ، كفتنا حركة ظاهرية جداً على الفرات حتى تتحرك القوات الضفيرية ، البعيدة عن أسرها ، باتجاهنا .

إنَّ ما كانوا يجهلونه هو أنَّ رتلنا الأول تتلوه ثلاثةُ أرتال أخرى ، وأن المتقدم والرديف من قوات الرولة ، قد استُبْعِدَتْ ، وأننا ننتظرهم بواقع خمسة ضد واحد . كان الأمير يرى نشر مجموع قواتنا غير مفيد ، إلّا أنني أقنعتُه بأن هذا الجمع الكبير للرجال سيؤثر في العدو ويدفعه إلى الاستسلام ، وأن عدم التعادل في المعركة يبعد المجزرة التي لا نريدها .

لم تؤذنا بنادقهم المختبئة خلف أكوام الحجارة كثيراً ، إلّا أنهم سرعانَ ما ضعفت شجاعتهم بعد أن رأوا رجالنا يندفعون ، بدون انقطاع ، من وراء قمم الكثبان ، موجة في إثر موجة . بدأوا عندئذ بالتراجع بانتظام جيد، محاولين اللحاق بالثلاثمائة أو

الأربعمائة من الجمال التي جلبوها معهم ، ووضعوها على بعد ربع ميل . كان فرساننا أسرع منهم ، فقطعوا عليهم طريق العودة .

أما وقد حُرِموا من مطاياهم ، وأصبحوا محاطين بصورة تامة ، فإنهم وقفوا ينتظرون بفخر انقضاضنا عليهم ، وكانوا يفكرون بأنهم سيموتون . لم أوجِّه نحوهم إلّا بضع فرق من الرماحة ، مع الاهتمام بعدم إتمام هذا الحصار ، وبترك ممر واسع مفتوح لهم باتجاه الصحراء . أطلق بعضهم الآخر بضع طلقات قبل أن يستسلموا : لقد أتوا لمناوشة بين رعاة ، فإذا بهم يلقون جيشاً محارباً .

تركناهم يذهبون حتى يحملوا النبأ الفاجع إلى (رزق) أميرهم . ومنذ الغد ، أرسل ابن الشعلان إليه مبعوثيه ، مقترحاً عليه إعادة ما كسبناه ، وشراء بضع بنادق ، وتوقيع اتفاقية صداقة .

رافقهم فتح الله . فمن المناسب أن يتعلم هذا الشاب الديبلوماسية ، كما يتعلم استعمال السلاح . رأيته يتحمل

مسؤولياته الآن : لقد خلع ملابسه مثلما فعل ذلك الآخرون .

وهكذا ظهر بائع الفستق ، بضفائره السود الطويلة ، وعينيه الوحشيتين ، ورمحه الطويل ، في مظهر من قاتل طَوالَ حياته على جمل ذلول . لقد سمعتهُ يصرخ (إليَّ إليَّ يا فرسان ناقة رولة السوداء) أطلقها صرخة لِلَمِ الشمل ، كما يفعل الآخرون . وكان عليّ أن أعترف : لم يكن من السهل التعرف إليه بين البدو العراة .

لاسكاريس ، مذكرات (حزيران ١٨١١)

فكرتُ ، في البدء ، بالمزج ، وخلط الناس . فآخذ رجالاً من الرولة ، وآخرين من ضفير ، ومن ولْد علي ، ونضيف إليهم بعضاً من القبائل الصغيرة التي أخذت تحالفنا ، ثم نشكل من هذا كله مفرزة ، أو لواءً ممتازاً . ولقد رسمتُ في رأسي بذّات مخططة ، وحلُمْتُ بتحريك هذا الجمع كلّه ، كما نفعلُ ذلك في استعراض ، وفكرت فيما بيني وبين نفسي (ماهي إلّا بضعة أشهر

ثم يصبح بإمكان لاسكاريس تقديم تحية سلاح للامبراطور من فرقة صحراء) .

وكان عليَّ أن أضع ، وبسرعة ، نهايةً لكل هذه الأحلام التي تركتُها تتكاثر ، بسفاهة ، أثناء خبل مشي الليل . فلقد أفهمني ابنُ الشعلان ، من دون مواربة ، أنَّ في جميع هذه المشاريع ما يصدم الناس . هناك ، بين هذه القبائل الكثير من الدم المسفوك ، والكثير من النوق المسروقة ، والكثير من المراعي المجتاحة . لذلك يكون من العبث التفكير في خلط هؤلاء المقاتلين .

إنَّ التحالف بين الأمراء ، بالمقابل ، ممكن . وبإمكاننا ، بقليل من الإقناع ، وكثير من الوعود ، ضمُّ عمل الأمراء ، وتنظيم عمليات مشتركة . ولكن تحت أيّ اسم ، ولأيّة غاية ، نقوم بهذه التحركات ؟ إنني أستطيع الإسرار إلى أكثر الأمراء تنوّراً ، بأمر الإنزال القريب للقوات الفرنسية ، ووعدهم بنهب المدن التركية ، ومصادرة ثرواتها ، وفرض الإتاوات على باشواتها . ولكن ماذا أقول

لهذه الجماعات تبريراً للتحالفات الجديدة بين القبائل التي يكره بعضها بعضاً منذ قرون ؟.

ذلك أنَّ من واجب الأمراء أن يبرروا مسلكهم ، فالبدو ، وهم ليسوا عمياً ولا عبيداً ، يطلبون في المجالس معرفة أسباب منعهم من السلب ، ولماذا تفرض عليهم الصداقة . والناس هنا يسخرون من مشاريع امبراطور غريب . وهم يفكرون أولاً في حفظ رزقهم اليومي التافه ، وإذا ما صادف أن شبعوا أحياناً بعد تساقط المطر ، أو الغزو ، فإنهم يحلمون آنئذٍ بطرد الترك .

إن التبشير بالتحالف ضد الباشوات لا يكفي إذاً : ويجب عليَّ أن أخترع خطراً غذائياً ، تهديداً لقطعان مواشيهم ومراعيهم وآبارهم . وهكذا بالخوف ، الخوف من المجاعة ، أملي عليهم الوحدة البدوية . فليأتِ الخطر من الشرق ، من الفرس ؟ أو من الجنوب ، من السعوديين الذين يبدو أنهم يتحركون ، إنَّ النتيجة ستكون واحدة .

وعليَّ ، في انتظار ذلك ، تأكيدُ تحرير المعاهدات التي

فرضتُها وتطبيقُها . وفي أثناء الأيام التي تلت انتصارنا على ضفير ، ناقشتُ ابنَ الشعلان مطولاً حول ما يجب علينا أن نحصل عليه من الرؤساء الخاضعين .

في المقام الأول ، إنهاء عمليات الغزو المتبادل ، وعلى الأمراء أن يعلموا الجميع أن لا سلب ولا نهب بعد اليوم بين الرولة وضفير . وإذا ما زادت العمليات العسكرية ، كما أقدر ، فإن أمام الرجال أموراً كثيرة للعمل ، وكثيراً من المغانم ، لإتمام ذلك . سيعاقب بعض العصاة ، وسيحافظ من تبقى على الهدوء .

ومن المناسب تحديدُ أماكن الرعي ، ولن ينشأ عن ذلك أيّة مشكلة لأن قبيلة الرولة ستغادر المنطقة ، بسرعة إلى أراضيها في الجنوب ، كما تفعل كلَّ عام .

وهنالك الوصول إلى الآبار . فليس هناك ما هو أسوأ ، بالنسبة للبدوي ، من رؤية جمال غريبة تشرب من بئر تعود ملكيتُها إليه بحسب التقاليد والدم . إنني بحاجة إلى أن أركض فريقي في

الصحراء كلها ، وعلى ضفير أن تقبل بظهور جماعات من الرولة حول آبار مياهها .

وهناك أخيراً احتمال أنْ نتفرق : ابن الشعلان ، وفتح الله ، وأنا ، يلزمنا عند ذاك إقامة نظام بريد ، ويجب أن تقوم قبيلة ضفير ، عند الإقتضاء ، بتقديم البدائل لرسلنا .

قاد ابن الشعلان ، بنشاط ، المفاوضات مع رزق ، أمير ضفير .

إنَّ أمير قبيلة الرولة ، المتحالف مع امبراطور الفرنجة ، صديقه ، قد قرر دعوة المحترمين من قبيلة ضفير إلى المشاركة في مجد العمليات التي يواجهها ، ثم فيما يحصلون عليه من غنائم . نحن نعلم أن الرولة قد هزموا الترك قريباً من بغداد ، وسيلي ذلك معارك أخرى . ومن المناسب أيضاً الحذر من السعوديين : إذا لم نحترس منهم فإنهم سيأتون يوماً لفرض ضريبة على قطعان ضفير . في انتظار وصول نابليون القريب ، الذي سيدفع كثيراً لقاء الجمال والمرور الذي هو بحاجة إليه ، من المناسب إطفاءُ نار

المنازعات القديمة ، والاتحادُ ضدَّ الترك ، وضدَّ سعود . فمع الفرنسيين يمكن احتلال الموصل ، وربما بغداد ، أهناك ما يمنعنا من ذلك ؟.

تفاوضنا ، بعيداً عن المخيمات ، في انعطاف كثيب ، تحت خيمة واسعة سوداء . تحالف الأميران ، وبينما كان الكتاب يسجلون الإتفاق أمرت النسوة بشيّ بعير صغير : لم تفرض على المغلوبين أيّة ضريبة ، ولم ينزل بهم أيّ عقاب . أعدنا إلى ضفير جمالهم التي كنا قد احتزناها ، احتفظتُ فقط بمائة بندقية . وتلقى فتح الله ، الذي كان يراقب المعاونين ، ويعيد النظر في النصوص ، مُهراً هدية من الأمير رزق . لقد ناله عن جدارة .

أجد في نشوة نصري الأول ، ومفاوضاتنا الناجحة ، الشجاعة في إعادة أمر غريب ، غامض يشغلني منذ عدة شهور . لن أتكلم عنه هنا إلّا بين معترضتين حذرتين ، متأكداً ، على كل حال ، من أن أحداً لن يقرأ هذه الملاحظات التي كتبتها سراً ، أثناء مسيرتي ، منعزلاً بين المخيمات .

(الشرُّ الذي يلاحقني موجود لدى الجنرال القائد الذي صرت إليه ، سأقع ، وأنا أذيعه ، في أمر مضحك غير ملائم لمهمتي) .

(حياتي في الصحراء ، جعلت جسمي قاسياً ، ويبدو أنها قد أضعفت عقلي . تأتيني نوبات ذهول ونشوة ، وأحلام مفاجئة في شكل واحد لا يتغير . أكشف منها تيارات شك ، وموجات ارتياب ، بأن أعمالي الماجدة في الأيام الأخيرة ، قد نقب عنها الله ، لا أعرف عن طريق أيّ محقق ، وأن حكمه سيصدر قريباً ، وأنَّ ذلك ناتج عن كون جميع مناوراتي لا مكانَ لها ، ولا وجود ، وأنَّ معاركي غير صحيحة . أيمكن أن أكون حالماً ؟.) .

فتح الله ، ملاحظات (أيلول ١٨١١)

أقسم الضفيريون على تحالف دائم قد يستمر أكثر من موسم . يسير أحد أبناء أميرهم ، وهـو غلام صغير ، ممتطياً جواده إلى جانب ابن الشعلان حاملاً له صقوره . إنه يضحك في

غالبية الأحيان مزهواً من أهمية كونه رهينة ، ومن المجاملات التي يحاط بها .

كلفني السيد لاسكاريس مهمة تعليم إطلاق النار لرجال الرولة الذين حظوا بالبنادق الضفيرية : يجب أن نتدبر أمورنا ، قدر الاستطاعة ، مع هذه الآلات القديمة المستقيمة جداً ، والقصيرة الأخمص ، والتي تهدد سبطاناتها بالانفجار في كل طلقة . إنّ عصيّها ، من الخشب القاسي تتكسر في المناورة ، والفتائل تنطفيء ، أو تعرقل ، ومع ذلك ثابر مقاتلونا ، وأطاروا من مسافة مائة خطوة ، قطعة الجلد التي استخدمت هدفاً .

ويثابر معلمي ، في أثناء هذا الوقت ، على حياكة خيوط مؤامرته . قال لي « يلزمنا في الجنوب قبيلة محالفة ، ستكون سندنا ضد السعوديين ، وستؤجل تقدمهم ، إذا ما تحركوا نحونا ، وتعيق اتصالاتهم إذا ما غامروا بالوصول إلى تدمر . » ، وأخذ يعمل ، معتمداً على قوة صداقاته لدى قبيلة ولْد علي ، على تقريبهم من الرولة ، وترسيخ هذا السلم بزواج أميري .

وشعرتُ ، في البدء ، بالقلق من هذا المشروع . سيضع أمورنا بين أيدي النساء ، وهن جماعات سريّة يحكمن من مؤخرة الخيام ، جميع المخيمات ، مصدّقات أو ناقضات في الليل كل قرارات المجالس . فكم من تغيير مفاجىء ، وكم من يمين ، وكم من اتفاق فرضتها في الليل على الرؤساء البداة زوجات متصلبات ، معلوماتهن جيدة بواسطة شبكات معلومات من العبيد ، وهنَّ عاقلات جداً مع ذلك ، إلّا أنهنَّ يتولينَّ سلطة دقيقة يبدو تعدد الزوجات مبطلاً لها .

كان السيد لاسكاريس يظهر ، كالعادة ، واثقاً من نفسه . كان قد وقع اختياره على فوّاز ، ولد ابن الشعلان ، الذي كان متين البنية محدود الذكاء ، أمه أميرة عمياء من جزيرة العرب ، يقال إنها شقيقةُ أحد وزراء الملك سعود .

تعددت الزيارات ، وأغرقت الأم بالهدايا ، وقضى السيد لاسكاريس فترة ما بعد الظهر من أيام عديدة يقضم الحلوى على حشايا من الحرير . ووافقت في النهاية على أن يقوم إبنُها بدور

الزوج المهدىء ، شريطة أن تكون كنتها نبيلة الدم ، وأن يكون نسبها منزهاً عن العيب ، وألّا يطلب أقاربها مهراً غير معقول .

وبقيَ إيجاد الفتاة ، كنا نخيم جنوبي الفرات ، و (الوِلدْ علي) قرب مزيريب ، على بُعد خمسة أيام ، وكان على السيد لاسكاريس أن يقوم بالرحلة مرتين مجتراً مشاريع الزواج على صخور الحماد الحارقة . وجلب معه في المرة الثانية ، فوّازاً ، حتى تتسلى الفتاة الموعودة بمراقبته عبر فجوة سريّة في خيمتها . ولقد وجدته ، كما يظهر ، ملائماً لذوقها . قَدَمَ الوالد (دوخي) ، في البدء اعتراضات قليلة على المبدأ : فشهرة الرولة تدفع أميراً عاقلاً للموافقة على تزويج ابنته لهم . وما يعرف عن ابن الشعلان مقاتلاً دليل ثروته الكبيرة ، والمَهْرُ ينبغي أن يكون إذاً ، ضخماً ، والفتاة ، مع ذلك ، جميلة جداً ، وأمها بخيلة جداً : وتنبأنا بمساومة طويلة وقاسية .

كان السيد لاسكاريس الحذر ، قد التمس معونة تاجرين اختارتهما الأميرة العمياء ، ووبختهما طويلاً . إنها لا تفضل المغامرة

في صعيد وعر من أسعار عذارى ولذ علي ، وهي التي أعرف أنها جديرة بتثمين بعير أو معرفة ثمن عبد . ولقد هنأته على حذره عندما قصّ عليّ المماحكات التي كان عليه حضورها ، تاركاً الحاضرين يناقشون دوخي وأسرته . كان فوّاز قد ذهب يصيد مع إخوة زوجته في المستقبل ، بينما كانت العروس تحلم بحياتها المقبلة وهي تلعب مع أخواتها .

اتفق بسهولة على جانب الملابس في المهر : معطف من الحرير الرمادي ، ثوب أزرق وأبيض يصنع في القريتين ، عشر أساور من الفضة للعروس ، حذاء أصفر اللون لأمها ، غطاء رأس محلى بلآلىء البحرين الدقيقة لواحد من صقور أبيها المختارة . كان ابن الشعلان يمتلك هذا كله في خزائنه ، غنائم احتازها من الأتراك ، أو ثمرات غزوات ماضيات في بلاد ما بين النهرين .

وانبثقت الحياة في المناقشات عندما وصلوا إلى القطعان . طُلب أولاً مائة جمل ، وخمسة جياد نجدية ، وخمسمائة حمل ، وكان ذلك فوق ما يمكن أن تستطيع الرولة دفعه . إنهم محاربون

أكثر منهم رعاة ، وهم على كل حال فقراء بالغنم ، يربون نوقهم ليركبوها في الحرب لا ليبيعوها . أمّا ما يتعلق بالخيول النجدية ، فكيف يمكن إيجادها ؟ فولد علي يعرفون جيداً أنَّ السعوديين لا يبيعونها البتة منذ عدة سنوات .

واتفق على مهر واحد بني اللون ، حيوان رائع حقاً ، طالما تأملته قريباً من خيمة ابن الشعلان . كان موفدا ابن الشعلان يعرفان كيف يصفانه بكثير من المغالاة والتشدق ، بحيث أنَّه خَلَفَ الجياد الخمسة المطلوبة . وأضيف ستة عبيد سود ، ثلاثة رجال ، وثلاث نساء ، ليحلّوا محل الخرفان ، وحوفظ دون اعتراض ، على مطلب النوق المائة .

كان السيد لاسكاريس قد دعا ، بإلحاح ، إلى وحدة القبائل ، وإلى السلام في الصحراء ، وإلى التحالف ضد الترك والسعوديين والإنكليز . ولقد عاد سعيداً ، فأثنى عليه ، علناً ، ابن الشعلان ، الذي امتد نفوذه فجأة إلى حوران .

وأخذت القبيلتان ، منذ عودته ، تسيران الواحدة منهما

تجاه الأخرى ، بأسلحتها وقطعانها وحاجياتها ، مستفيدة من العشب اليابس الذي يكثر في نهاية الصيف : واختيرت نوق المهر ، وروض الفرس الأسود ، وكان العبيد الستة يستريحون .

الجمل كتلة لا شكل لها ، يسيل منها الدهن ، يدور ببطء حول السفود ، وفوق النار ، محشو البطن بالأعشاب ، نيران أخرى تطقطق ، وفوقها جمال أخرى ، وخرفان وماعز وحجل . كان الناس يتحلقون في دائرة ، مقدمين النصائح المداعبة للطباخين الذين كان الدخان والعرق يعميان عيونهم . رؤوس الدواب وسليها* تغلي في حلل ضخمة والجلود تجفف في الشمس منشورة فوق الرماح . وكانت جبال من الأرز تدور ، وأهرامات من البصل والمشمش اليابس ، يحملها أربعة رجال على صينيات من الخشب .

وصلنا هذا الصباح إلى مخيم ولد علي حيث يقام احتفال

---

* جلدها وأكارعها وبطنها .

هائل ، وصلنا مع سفارة ابن الشعلان النهائية لطلب يد (صَبًا) ابنة دوخي لإبنه فواز . كان لاسكاريس ، الذي يحتفي به الجميع ، يتألق حبوراً : وعندما لمحني ، من أعلى سنام بعيره ، هدّد بتزويجي في السنة القادمة .

وتمت السفارة ، المعدة بدقة ، من دون مفاجآت . ثم انتقلنا إلى صورة معركة يتظاهر فيها الرولة الشباب بمعاملة رفاقهم من ولْد علي بعنف حتى يخطفوا الأميرة . وخفّ أوار المعركة بسرعة ، وكان على الناس أن يفرقوا الممثلين اللاعبين ، والعناية بمتظاهر بالعرج ، وسط ضحكات الحاضين العالية . كل شيء إذاً كان جاهزاً للاحتفال ، ولم يتبقَ سوى المهر ، الذي لم يتأخر : فمخيم الرولة على بُعد نصف ساعة فقط .

وهذان هما ، اثنان من فرساننا . لقد تعرفت إليهما : إنهما أخوان اختيرا بعناية ، لا أحد يعرف كيف ، للقيام بهذه المهمة الاحتفالية . كانا يتقدمان وهما يلعبان ، رافعين إلى الأعلى خياشيم مهريهما ، وهما يحركان علميهما ذوي اللونين الأحمر والأسود .

وخلفهما كانت جماعة من الموسيقيين تشوه مشية رتيبة ، تؤكد ضربات طبل عالية .

ومرت بعد هذا النوق الشهيرة ، منخرها أعلى من المعتاد ، فخورة ، في هذه اللحظة ، بكونها ثمن أميرة ووجهاً لرغبة متبادلة في الزواج . كانت قد زينت بشرائط مضغوطة ، بأورات شجر وعشب أصفر على شكل طاقات كاملة ، ومعها أيضاً باقات من الشوك ، دليل على نبات الصحراء الفقير ، الذي جمعه ، بعفوية ، شعب احتفالاته نادرة .

هذه الأعشاب مشتهاة جداً ، ويسعى إليها طَوال العمر ، ويقتتل من أجلها . إنها الغذاء الفقير الذي حُوِلَ الآن إلى ديكور على الظهور وهي تستثير النوق : فأكثر من واحدة قد رعت ، من دون حشمة ، زهور العروس المتفرقة على كفل جارتها .

وتتقدم الحيوانات أمامنا ، في صفين فقط ، ينظم الرعاة بقسوة سيرها حتى يطول العرض أكثر : كبرياتها في الصف الأول ، ثم يلي ذلك ما تبقى من قطيع فيه العرجاء والضعيفة .

ويمشي العبيد الستة في النهاية ، يضحكون بصوت عال بعد سماع قصص قديمة ، غير مهتمين بمصيرهم ، متأكدين من أنهم سيجدون لدى (ولد علي) ما يناسب مواهبهم، صنّاعاً مهرة، وجنوداً نظاميين ، وخياطات أو طباخات . ترى فيهم السوداني الأهدل ، والصومالي الخلع المشية مصحوبين بفتاة أثيوبية جميلة عيناها رائعتان ، تتراجع ضاحكة عندما تسمع كلمات الغزل التي يوجهها المتسكعون .

ويصل أخيراً الحلي ، والثياب ، والأقمشة ، موضوعة على محمل . هنا أراد ابن الشعلان ، خاصة ، أن يظهر كرمه وسخاءه . لقد اختيرت صناديق من خشب الأرز فقدتها مواكب الأتراك ، وقوافل الموصل . كان الجمل الذي يحمل هذه الثروة يمشي مطمئناً ، يحيط به حرس من المشاة اليقظين لكل ما يتعلق بكنز العروس . تأمل الرجال نوق المهر ، أمّا النساء فقد هللن للبروكار والحرير . لقد وصلت حماستهن الصارخة إلى جميع أفراد قبيلة ولد علي الذين كانوا يشاركونهن غبطتهن : زواج أمير ، ومأدبة

فاخرة ، وثروات قيمة معروضة أمام الجميع ، فَأَلُ خير بالسلم ، والرولة أخيراً ، قد غدوا أصدقاء .

ووصل الرولة أخيراً ، يتبعون موكب الصداق عن قرب . اجتاحت جماعة المخيم دليل أخوة طلباً لطعام مجانيّ . وزحفت أُسر كاملة نحو النيران بنسائها وأطفالها وكلابها ، ملبيةً دعوة الأمير (دوخي) للمشاركة في يوم من أيام بهجة شعبه .

لاسكاريس ، مذكرات (أيلول ١٨١١)

ينحني الخدم للدخول إلى الخيمة ، خوفاً من أن تمس شرائط الباب أكوام الأرز والسميد والتمر التي ينقلونها من دون انقطاع من المطابخ باتجاه مائدتنا ، ثم باتجاه مناضد النساء ، التي ينتقل ما يتبقى منها إلى الخدم . خراف مشوية ، وقطع ضخمة من جمل موضوعة على صوانٍ من جلد ، مفرقة هنا وهناك تحت الخيمة الكبرى . تحيط بها جماعة من الأمراء تقطعها بحنق .

ويأكل البدو ، وهم جماعة متعددة المواهب ، تأكل الطعام بالحماسة نفسها التي تقاتل بها . فكل تفكير ، وكل حساب ، وكل عاطفة تجد نفسها هنا ملغاة ، ومبعدة كقشة يدفعها شلال ماء متدفق .

لقد شاهدتُ هؤلاء الرجال يتسلقون الهضبة المحترقة أثناء أسابيع طلباً لتمرات ، أو لحفنة ماء ، ولربما طلباً لكرة من الطحين المعجون بالزبدة . إلّا أنهم يعرفون كيف يخنقون ، إذا اقتضى الأمر ، شكوى الجسد أملاً في ربح معركة ، أو الانتشاء بصيد . وهم يستطيعون أيضاً أن يصبروا عندما ينتابهم الجوع في خدر ، تسكت فيه الحواس ، فلا تشي بشيء . إلّا أنهم عندما يقبل العيد ، وتولم الولائم فيه يعرفون كيف يأكلون .

تغوص القبضة التي يقطر منها الدهن ، في الصينيات الساخنة ، وتنتزع منها مزق اللحم ، وتحملها ، بصورة آلية ، إلى الشفاه الملتمعة ، ثم يبدؤون من جديد ، من دون تحديد . وتضغط الأصابع ، بسرعة ، على كرات الأرزّ التي يتصاعد منها البخار ،

وتقذفها إلى الفم المفتوح . يمضغون قليلاً ، ورؤوسهم مائلة إلى الخلف ويبلعون برشاقة ، لئلا يضيعوا ثانية واحدة .

لا تسمع جملة واحدة : يكتفى بإشارات المديح للشواء ، يشار بها هنا أو هناك ، يقوم خادم بتوزيع اللبن والماء ، وهو يقضم كتف عنزة .

ينعم ابن الشعلان ودوخي بالطعام ، جالسين بأخوّة على المقعد نفسه ، جنباً إلى جنب ، أعينهما ذابلة ، ومظهرهما يدل على الاستسلام . أولادهما يحيطون بهما في شبه دائرة ، ومعهم بعض القواد ، والمستشارين الموقرين ، أو الخدم ، أو المساعدين . دعاني (دوخي) إلى الجلوس إلى يساره . قدم لي ، تحبباً ، قطعاً مختارة قبل أن يفنى ، بدوره ، في حركة مدعويه الغذائية . وأخذت أحرق أصابعي بالسميد ، منتظراً ساعة تقديم القهوة التي أتحدث مع تناولها بالسياسة والاستراتيجيا إلى هؤلاء النهمين . لم يُحْتَفَ بنابليون البتة أمام مثل هذا الجمع من الحكماء ذوي المعد الممتلئة .

أتعبتني مفاوضات هذا الزواج ، أكثر مما تتعبني حرب حقيقية ، كان عليَّ أن أبرر وضعي الخاص ، وأن أشرح إقامتي لدى دوخي منذ ستة أشهر ، ثم رحيلي عنه وانضمامي الحالي للرولة . لمّحوا، بإمكانية تجسسي على (ولد علي). رددتُ بأن سيدي الوحيد يدعى نابليون ، وأنني لم أكن في خدمة الرولة بل في خدمة فرنسا ، وأنَّ جميع البداة سيفيدون ، عندما تأتي اللحظة المناسبة ، من إرشاداتي ، ومن الذهب الفرنسي . أقنعت غالبية مضيفيّ ، ولم أتوصل إلى إقناعهم جميعاً ، وشعرتُ ، في بعض العيون بأن ليس لي هنا أصدقاء . الأمير ، على الأقل ، يصغي إليَّ ويشرفني ، ونساؤه يحطنني بالمودة .

أما زواج صَبَا ، فقد أخبروني أن أمراء من قبيلة شمَر ، أتباع السعوديين ، قد عرضوا أنفسهم قبلي . فعلى حدود سوريّا والجزيرة العربية كان (ولد علي) يعرفون ويخافون قوة سعود . وبعض قوادهم يشكون ، علناً ، في المستقبل العسكري لقبيلة الرولة ، التي تقيم بين مناطق السعوديين في الجنوب ، ومدن سوريّا التي يحتلها الأتراك .

وكان يجب أن توصف انتصارات ابن الشعلان ، وتبرز مزايا اتفاقنا مع ضفير ، وأن يذكر بالتقارب الممكن مع الفدانيين ، وإقناعهم ، أنَّ بين نابليون وسعود فرقاً ، فالأول هو الأحسن وضعاً لطرد الترك ، وإعادة النظام ، والمرور الآمن للقبائل .

والحقُّ أنني أعتقد أن مبلغ الصداق هو الذي سحر دوخي . إننا نذكر مخططاً عظيماً ، ونفاوض لمدة أيام هزيمة الترك ، وخراب إنكلترا ، ونبين للأمراء منفعة لشعوبهم ، وعظمة الوحدة ، ثم إن بضعة بعران زيادة تجعل قبيلة تترجح بين مخيم وآخر .

فلقد عادت رسل قبيلة شمر من دون (. صبّا) ، وثار سعود في أعماق جزيرة العرب ، ضد خفة ولد علي ، وكان لاسكاريس يتناول الطعام مع دوخي .

لاسكاريس ، مذكرات (كانون الأول ١٨١١)

عندما رفعت رأسي قليلاً دون أن أتجاوز طاقة البطم ،

اكتشفتُ السهل الواسع ، الرمادي اللون والعاري من أيّ نبت ، إنه يمد جفافه القاتم ، من الهضاب حيث كنّا ، حتى منحدرات حوران . أُجبرتُ دليلي ، بدافع الحرص ، على التسلق اثني عشر متراً حتى وصلنا إلى هذا المرتفع ، ومن هناك غدا بإمكاننا ، ونحن مختبئون فوق هذه الصخور الحارّة ، التأمل ، من دون تعب أو مخاطر .

كانت قبيلة فدّان ، في الأسفل ، تمشي وهي تحاذي المنحدر الذي يرتقي إلينا .

لقد رأيت قوافل بغداد الأسبوعية ، وقطعان بني حسن تنتجع باتجاه تدمر ، وقدت أرتالاً من فرسان الرولة ، إلّا أنَّ شيئاً ما لا يقارب في عظمته هجرة شعب بأكمله في الصحراء . فبنو فدّان يتحركون لأنهم جائعون .

كان الكشافة يتقدمونهم . كانوا ينتشرون ، راكبين خيولهم القصيرة ، مسلحين بالخناجر فقط ... ينتشرون على شكل قوس في السهل ، مختبرين ، في شكل قاتم ، الخرائب المهجورة ،

ومرتفعات الأرض ، وحوافي الآبار . كان عليهم أن يصعدوا حتى يصلوا إلينا ، ليفتشوا القمة التي تسيطر على طريقهم ، لكن كشّافة بني الفدّان ، كما تصوّرت ، كانوا جائعين . كانوا يترددون ، بعد أن غذوا بالأعشاب والبصل منذ أسابيع ، في دفع مطاياهم المرهقة على المنحدرات ، وهأنذا أتمكن بسهولة ، من ملاحظة مرورهم .

وخلف الكشافين ، تعلن موجة غبار عن القطعان . قطعان عجاف بالنسبة لمثل هذه القبيلة القوية . كنت أنتظر أكثر من هذه الثلاثة آلاف من الجمال التي كانت تتقدم في فوضى على جبهة عرضها ربع ميل . وتزداد هذه الكتلة الصفراء كثافة ، ويقودها رعاة غير مبالين بخوار حيواناتهم المؤلم . وتركع جمال أُخَمِّنُ سنامها واهياً ، ومخاطها لزجاً ، على الحصباء الرهيفة ، وتنهار ببطء على جانبي الطريق . إنّ بضع ضربات من هراوة ، وقبضة يد من عدس كافيتان لتحملها على النهوض والإنطلاق من جديد ، إلّا أنّ الرعاة يحملون هذه الأجسام المهدمة التي تتجاوزها النسوة ، بعد قليل ، أثناء مرورها .

إن حيوانات قبيلة الفدّان ، إذا كان تقديري صحيحاً ، لم ترعَ منذ شهر . فهم معتادون في مفتتح الشتاء هذا ، وعندما يغدو العشب ضئيلاً في أراضي الشمال ، أن يقصدوا ، في صورة جماعات صغيرة ، حدود وادي السرحان ، إلى الجنوب من مزيريب . إلّا أنّ وادي السرحان ، كما أخبرني ولدْ علي ، في أيدي السعوديين هذا العام ، السعوديين الذين طردتهم أرتال الجراد من أراضيهم في جزيرة العرب الصحراوية .

كانت القبيلة الكبيرة المتفرقة في الجنوب ، من أوائل تشرين الثاني ، تبحث عن نقاط الخضرة الصغيرة التي أنبتتها زخات المطر المحلية في أرض الصحراء . كانت تجهل أنّ قواتنا تحرث المنطقة ، من قبل . ولقد علم بنو ضفير وولدْ علي ذلك بدقة . كان فتح الله وابن الشعلان ، ينظمان من جهتهما غزوات رولية : كانت مجموعات جيش في الجنوب تسبق بني فدّان وتتلف كل ما يمكن أن يغذي جمالهم ... وكانوا يقيمون الحرس أمام كل ما لا يتمكنون من التهامه . وهكذا كان الفدّانيون المذعورون يرون حيواناتهم تنفق

أمام أعينهم ، فأخذوا يتجمعون ملتمسين برعونـة سلامتهم في العدد ، يتجمعون على شكل قبائل متحالفة ، يجلب الإقطاعيون الكبار فيها قطعانهم الجائعة نحو خيمة الأمير ، وشيئاً فشيئاً تتجمع القبيلة كلها . كانت الحيوانات تتساقط ، والنوق الحبلى تجهض ، وكان مجلس السادة يتساءل ، مذعوراً عن الكارثة التي ضربت القبيلة العظيمة .

كانوا قد قرروا العودة إلى الشمال ، ونسيان منتجعاتهم القديمة ، والذهاب مفتشين عما بقي من العشب الأخضر في المراعي التي كانوا قد تركوها منذ قليل . كانوا قد أعدوا العليق ، كرات من حب قاس وسميد يعطى للجمال عندما لا يوجـد العشب . كانت تمشي ، بست كرات في اليوم من دون ضعف ، وبثلاث كانت تجر نفسها : ولكنهم الآن لا يعطونها سوى اثنتين . بدأت الهجرة الكبرى ، تسبقها ، وتتبعها ، ويراقبها جنود كانوا ينقلون إليَّ أخبارهم . ولقد أردت من مخبئي وراء أشجار البطم هذه ، أن أرى بأمِّ عيني هذا الرحيل المذعور .

كان المحاربون يظهرون ، عن بعد ، وراء القطعان عندما تهبط سحابة الغبار . كنت أود ، مسرعاً ، استكشافهم ، هؤلاء الفرسان الشجعان من قبيلة فدّان ، الذين كانوا يعترضون الرولة دائماً ، يَغْلِبُون حيناً ، ويُغلَبون أحياناً ، ولكنهم لا يذلون أبداً . وإذا ما كانت قوة الرولة تعتمد في الحرب ، على بعرانهم ، على ذلولاتهم ، فإن قوة الفدّانيين تكمن ، في سيادتهم ، بامتلاكهم الجواد . إن كل جماعة تراقب تجارة المطايا التي تؤثر . كان الرولة يتلقون من الجوف نوق اليمن وعمان ، وهي أحسن أنوعها . أمّا الفدّانيون ، المتحالفون مع شمر جزيرة العرب ، فقد كان لهم مدخلهم إلى مرابط الخيل في نجد حيث يزودهم الباعة السعوديين بجياد النزو ، وتولّد ، على امتداد العصور ، عن هذه العادات التجارية عادات حربية : فالرولة يقاتلون أحسن ما يكون القتال من فوق ظهور ذلولاتهم ، والفدّانيون يتقنون الصراع ممتطين ظهور جيادهم ، الأوائل رماة رماح ، والآخرون ضرابو سيوف . هكذا كانت الأمور تشرح حول نار ابن الشعلان ، دون أثر للكره تجاه أعداء محترمين .

كان هؤلاء الفرسان المشهورون يمرون في سفح الهضبة . الكثيرون منهم كانوا قد ترجلوا ، وكانوا يسحبون حيواناتهم الهزيلة ، جيادهم الصغيرة بألوانها الكامدة المحلاة ، هنا وهناك ، بالرمادي الجميل ، وببعض بقع اللون الأبيض ، ما عددهم ؟ كان عليَّ ، كما أفعل دائماً ، أن أحصيهم بنفسي . إذْ لا شيء يزعجني ويثيرني أكثر من هذا العناد المتمثل في عدم العد الدقيق لقوى الخصم ، أو للقوة الذاتية الخاصة .

يشكل الفدّانيون ، حسب معلومات الرولة ، جماعة مؤلفة من خمسة آلاف خيمة ، عندما يتاح لها أن تتجمع ، من دون أن نأخذ بعين الإعتبار حلفاءهم من السابات والعمارات . فإذا ما كانت هذه الجماعة ، كما آمل ، قد تجمعت كلها اليوم ، فالمفروض أن يكون عددهم ستة آلاف أو سبعة آلاف محارب . إلّا أنَّ القافلة التي تمر ببطء أمامي لا تعد أكثر من نصف هذا العدد : ربما كانوا ثلاثة آلاف رجل ، آذاهم الجوع ، وأقلقتهم هذه الهجرة اللعينة إلى أمطار الشتاء الباردة ، وآذتهم شكاوى أطفالهم الصغار .

هؤلاء الأطفال ، مع النساء ، والعبيد والأمتعة يتبعون قافلة الفرسان . كانت كل أسرة حول جمال الحمل ، المثقلة ، التي يسحقها ثقل الخيام والصناديق ، تحاول أن تبقى مجتمعة ما أمكن . فالأمهات يسحبن أطفالهن الكبار باليد ، والعبيد يقودون بغالاً نحيلة علق عليها أحياناً طفل يرضع في سلة مؤقتة .

كانت نسوة شرسات يتشاجرن من أجل حفنة حبوب ، أو كرة عليق سرقت من الجمال . ويصعد من هذه الجلبة طنين غامض صنعه السباب ، والبكاء ، والغناء الرتيب القلق . لا تمر ، ولا طحين ، ولم تدر النياق منذ أسابيع بنقطة حليب .

وها هو ذا مسكن الأمير ، معارضاً المجموع القذر الفقير الذي يسبقه . يرفع فرسان حرسه رايات صفراً تحاول أن تطرد بسحنتها المتكسرة البؤس الذي يذهب بعقل المشاة . وعلى النياق العالية ذوات الخطى المتكلفة تتوالى الآن هوادج الحريم : سرادقات مغلقة من جميع جهاتها تهتز على قمة السنام . بإمكان الراكب أن يتمدد براحة ، كما يقال ، في هذه الزوارق ذوات الستائر المتعددة

الألوان ، المتوجة بريش النعام . قرب كل منها يسهر خادم حسن الثياب ، يميل أحياناً ليصغي ، من خلال البروكار ، إلى تعليمات إحدى المسافرات الهامات . أجائعات هنَّ أيضاً ، نسوة الأمير هؤلاء ، بنات أمراء الجنوب ، الأثيرات الضامرات من أثيوبيا أو الشقراوات الجورجيات ، المسبيات من حريم تركي ؟ هل أفرغنّ سلال الفواكه الجافة والحلويات ؟ وهل خصصنّ بالتمر والحليب ؟ من يدري .

والأمير ، المخلص للعادات البدوية ، يمشي خلف شعبه يحميه حرسه الذين يشبهون الشياطين راكبي الخيل . يحيط به مجموعة من المساعدين والخدم ، وسوّاس خيل الحرب ، وحملة السيوف وحملة الرماح ، ومدرّبو الصقور المرتدون قفازات من الجلد . كيف يمكن التعرف إلى الأمير نفسه من هذه المسافة ؟

قيل لي إنه شاب ، عنيف ، رقيق فمن هو منهم ؟ إنه بدون ريب هذا الذي يمتطي جواداً أسود ، والذي يلتمع سرجه تحت أشعة الشمس . أيشك فيما سيحل بقبيلته ؟ أيتنبأ بالفخ الذي

أقوده إليه ؟ أيقبل حلف الرولة إذا ما فتحت له السبيل إلى مراعي الشمال ؟.

كنت أفضل التعطيش . لقد ظهر لي أنه أسرع في حمل الفدّان على التوبة : فإذا ما دفنا في الرمل الآبار تتم الأمور . عارض ابن الشعلان ذلك . فمن أجل التضامن البدوي كان ينفر من مخالفة العادات المقدسة باستعمال الماء سلاحاً . إهانة العدو ، أو بقر بطنه أمران مقبولان ، أمّا تعطيشه ، فغير مقبول البتة .

وهو على حق ، مع ذلك ، فالجوع أبطأ ، وهو سيفقدهم عدداً أقل من الحيوانات والناس . وما إن تعاملت مع الفدّان ، حتى تركتهم على أراضي قبائل الموالي ، الذين لديهم دائماً العشب ، والذين يحاول الرولة الثأر منهم . وهكذا غدت القبيلة في ثمانية أيام مستعدة للقتال الذي حددت له .

إلّا أنه لا يزال في الوقت متسع . ويجب أن يعاني الأمير ونسوته قليلاً . إذ سرعان ما تزمجر الثورة بين أفراد القبيلة ، فتقود النسوة أطفالهن الجائعين ، طالبات اقتسام الأكياس الأخيرة من

الطحين . عند ذاك يغدو الفدّانيون ناضجين للتفاوض : في أيام قليلة ، من دون ريب .

لقد شاهدت ما كفاني : هأنذا أعود مع الأدلاء ونحن نمضغ بهدوء أوراق البطم : إذ يظهر أنها نافعة جداً للأسنان .

كان الليل قد هبط عندما بلغت المخيم الصغير المتكوم فوق جرف البازلت الذي كنت أراقب منه تجويع الفدّانيين المتزايد . ومن هناك كنت أراقب ميكانيكية المحاربين والغازين ، والرسل والكمائن التي تنفذ أوامري وتتبع تعليماتي بدقة . كنت أفرض على هذه العشائر غير المحدودة ، التائهة مصادفة في صحراء بدون حدود ، وانطلاقاً من هذا المخيم ، قواعد ، في يوماً ما ، سأخط هنا طرقاً ، وأركب نواعير ، وأزرع معامل . إلّا أنَّ عليَّ أولاً أن أصنع الحرب ، وأنفذ أمراً عسكرياً .

كان ابن الشعلان يتحرك نحو الجنوب مصحوباً بمعظم رجال قبيلته . لم يوافق على معاناتهم قسوة الشتاء قريباً من ضباب الفرات . فلقد كان يرى ، على الرغم من إلحاحي ، ومن الغزوات

السعودية التي كثرت ، قضاء الشتاء قرب الجوف . ولقد بقي أولاده في الشمال ، مستعدين لدفع الفدّائيين إذا ما تطلب الأمر ، والتعامل معهم إذا أمكن ذلك .

وقضى فتح الله الشتاء عند قبيلة ضفير الذين اعتبروه دعماً لهم . لقد استفاد منهم لتعليم فصيلة بعضاً من مبادىء المناورة ضد الفرسان الترك عندما يتجرؤون على الإبتعاد عن ثكناتهم . إنَّ تقدم الشاب يدهشني ، ويطربني ، لأنني أعرف أنه مدين لي بمكانته ، المقلقة نوعاً ما ، لدى رؤسائه .

كيف يمكن التعرف اليوم إلى الخادم الصغير الفزع الذي قدته تحت الخيام ؟. فالبائع المتجول الرائع في جلبابه النظيف ، والمعتمر كفيّة رقيقة ، والمنتعل خرقة حمراء يذرع منذ زمن المخيمات مثل ابن خيمة كبيرة ، عالي الصوت ، يدفع بقوة ، وبدون ضعف ، عامة الناس في الطريق الذي سيسير فيه . كان شيطاناً ذكيّاً مع ذلك ، سريعاً في ضحكه ، كريماً كأمير روسي ، ناسجاً

بين الناس بطلاقة لسانه وهداياه ، شبكةً من الصداقات أغبطه عليها .

يتبعه بحماسة الجنود سواء أكانوا رماة رماح بسطاء ، أم قادة ألفين من الشجعان ، ولقد فهم الخبيث أنه لا يستطيع أن يأمل بالمجد بدون قوات يأمرها ، وأن لا قائد من قواد الرولة سيسلم إليه كتيبته . لذلك أنشأ جيشاً مما تبقى من مفقودين وأوباش ، وهاربين أتراك ، وموال جدد . وتركه ابن الشعلان يفعل ذلك ، وهو يعتمد الآن على كتيبة فتح الله عندما يراد إجراء مناورة سريّة ، سريعة ، من دون تلويث شرف الأسر الكبيرة ، أو تعريضها إلى طلب ثأر في المستقبل .

ولقد كان يكلمني باحترام لأنه مخلص جداً ، ويمدح الأمراء ، ويصغي بانتباه إلى مناقشات المجلس ولا يذيع من الأفكار إلّا القصير الذي لا معنى له . لقد ساعدني في مفاوضات ضفير ، كان ناشر دعاوة متحمساً لقضيتنا لدى قبيلة ولْد علي ، ولم يتأخر ، في اللحظة المناسبة ، عن دعمي ومساعدتي بظرفه المؤثر جداً في القضايا الصعبة .

نجاح فتح الله هذا أبعده عني . وإنني لآسف على ذلك . فأنا أحِبُّ كثيراً هذا الشاب ذا العينين الفزعتين من قشة يكنسها التاريخ . إلّا أنَّ القشة قد دفعت في الرمل جذوراً لا ترى ، وغدا الشاب رئيس عصابة دموية . وهو الآن ، على بعد أربعة أيام من هنا ، يحرك البداة ويحوش ، من دون ريب ، في الليل شجعان قبيلة ضفير . وانتهى به الحال ، بسبب توجيه قصائده لكل صاحبة تنورة تمر به ، إلى إغضاب بعض الذين يغارون .

لاسكاريس ، مذكرات (آذار ١٨١٢)

ترتجف شمعة سيئة النوع على الجدار ، وهي تتساقطُ ، ينتظرني الرجل في نهاية حجرة السلم ، ويداه القويتان مغروستان في المنضدة الخشنة . يتساقط ظله ، غير المتحرك ، على سجف كان يفصلنا عن الحانوت .

قطعتُ ، بسرعة ، الدكان المظلم الذي تشم فيه جميع روائح الشرق ... هؤلاء البداة في الجوار ، مستعدين للإنقضاض ،

إذا لم يكن هذا اللقاء سوى فخ تركي . أيستطيعون حقاً إطلاق سراحي إذا ما سد الإنكشاريون منافذ السوق ؟ ربما . شرطة دمشق تكره التحرك في هذه الأزقة الضيقة التي يعاديهم فيها الناس جميعاً . ذلك أنَّ جماعات عدوانية تبرز فجأة من كل مكان ، وتفتح للفارين الطرق ، وتغلقها في وجه ملاحقيهم . يرشدون الشرطي إلى طرق خاطئة ولا يتأخرون عن قتل المتأخرين من الشرطة في الزوايا المظلمة .

إلّا أنه لم يكن هناك أتراك اليوم ، كما ألاحظ ، ولدْ علي ألحوا بضرورة مقابلة هذا الرجل الذي يحترمونه كثيراً ، إنه من الفرنجة ، كما قالوا لي . إنه مثلي ، قد عاش عندهم ، وقادهم حتى المدينة الميتة التي يتغنون بها في قصائدهم : البتراء .

نصرانيّ مثلي ، يحترم البداة مثلي ، ويدعى ، كما أدعى ، إبراهيم ، هذا كافٍ لإيقاظ فضولي أكثر من قلقي . لقد تجاوزت اعتراضات فتح الله : إنّه لا يحب أن يراني أتعرض للمخاطر ، أو لربما لا يحب أن أقوم بمبادرات مستقلة منفصلة عنه .

.اقتربت من الغريب المجهول ، إنّه يرشقني بنظراته بهدوء .
ماذا قالوا له عني ؟ أيعرف أنني أتناول الطعام مثل جميع رؤساء القبائل في سوريّا ، وأنني أستطيع أن أسلمهم دمشق غداً ، وأن أبيعه هو ، عبداً ؟ أيتخيل أنني فرنسي ، وأنني أفتح الطريق لجيوش الامبراطور .

إنه يثبت عينيه دائماً عليَّ : عينان شاحبتان وسط وجه ممتلىء قليلاً ، إلّا أنه يستشف وجود طاقة حطاب مسالم في هذا الجسم الثابت . يبدو عليه الشباب ، وهو أصغر من السن الذي يستحق معه هذا الاحترام الذي كسبه لدى البداة : لعل عمره خمسة وعشرون ، ثمانية وعشرون عاماً ؟ لم أبلغ الخمسين ، إلّا أن هذه الكتلة من العضلات ، وهاتين العينين اليقظتين ، مما يؤثر فيَّ قليلاً . من هو يا ترى ؟ من يدفع لهذا الراكض في الصحراء ؟ وأيّة خدمات يمكن أن يقدمها ؟ وأيَّ خطر أتعرض له بسببه ؟.

بادىء ذي بدء ، بأية لغة نتحدث ؟ ومن منا سيكشف أصله أولاً ؟ لقد وصلت ، وهو ينتظرني ، والكياسة تقتضي أن

أكون أنا أول من يتكلم . ترددت ، هيّا . لقد قررت : العربية .
العربية على الأقل لكي نبدأ .

((السلام عليكم))
((وعليكم سلامٌ ورحمةٌ ممن أنا أحقرُ من أن أتلفظ باسمه)).

الاستهلال فاجأني . تستعمل هذه الزخارف قليلاً عند البداة ، ربما كان هذا الرجل قد قطع الصحراء ، إلّا أن عاداته من صنع المدينة . في ظل المساجد يحيا ، من دون ريب : بعمامة حمراء وبيضاء ، ومعطف طويل قاتم ، ولحية قصيرة ، ووقار رزين ، كل ما فيه يذكر برجل تقي ، جدير بأن يتلو نصف سور القرآن إذا ما أتيحت له الفرصة . أنا لا أحب مدعي الإسلام هؤلاء ، إلا أنَّ التنكر الأوروبي يسليني . فالتظاهر بتقى كاذب ، والتخفي تحت ستار أو صورة ، رياء ووقاحة وبراعة .

يلزمنا بعض الوقت حتى يتخلى عن مظاهر التقي ، ويقلع عن سرد القرآن . وتساءلت ، من دون فائدة ، عن لهجته الرخيمة بصوت غريب ، أنا الذي تبدو لهجتي قاهرية بشكل واضح .

تكلمنا عن البدو ، بعبارات قليلة ، ثم حاول كل منا أن يقيس الآخر ، دون أن يكشف نفسه .

((يقال إنَّ إبنة باجيش قد تزوجت من ظاهر ، إبن أمير شريرات)).

((فليحفظ الله الاثنين ، وليهبها البنين والبنات)) ويقال أيضاً ((أن الصابات قد توجهوا شرقاً أكثر من المعتاد هذا الربيع)) .

((فليحفظ الله الصابات وزعيمهم أبا مدهون)) .

لا نتقدم البتة ، ولديَّ انطباع بأنني أضيع وقتي . التقيّ الورع يعرف القبائل معرفة ضحلة . أسفت لأنني عرضت نفسي لخطر الترك لكي أصغي لهذه الثرثرة ، وبدأت أفقد صبري عندما بدأ حديثه عن الرولة . عند ذاك تنبهت جميع حواسي ، وحاولت التظاهر بعدم الاهتمام ، مؤنباً نفسي لأنني نسيتُ ، للحظة ، الخطر الذي يمكن أن يأتيني من جاسوس معادٍ ، مهما كانت

الجهة التي يمثلها . فما الذي يعرفه عن الرولة ، الحجرة الرئيسية التي أسيطر عليها في رقعة الشطرنج السورية ؟.

إنه لا يعرف شيئاً عنها ، لقد اعترف بذلك بتواضع ، إلّا أنه يريد سماع رأيي ، فكل ما يحرك الصحراء ، في هذه السنة ، ناتج عن أفعال الرولة . قالوا له إنني أخالط هذه القبيلة ، وأقترب بمهارة مستعيداً مرة ثانية هيئة الداهية ، فهل هي قوية جداً كما قيل له ؟ وقاسية معادية جداً ضد الأتراك ؟ فلأنتبه ، فهذا الشاب يشك في قصتي ودوري ، إلّا أنَّ المدهش أنه لا يعرف عنها المزيد .

((إنني أعرف الرولة ، في الحقيقة ، لقد هاجموا قافلة كنت أرافقها . وهم يأملون أن تعود قطعان مواشيهم سريعاً إلى الجنوب ، حيث يقضون فصل الشتاء)).

ضربة خاسرة ، واللعبة تستمر ، وأنا أضيع وقتي دائماً ، فلأذهب إلى أبعد من ذلك ، وبصورة أكثر استقامة .

((لهجتك ليست من هنا ، أيها الرجل المحترم ، وأنا

المسيحي من قبرص لم أعرف شبيهاً لها بين بغداد والقسطنطينية . من أيّ مكان أتيتَ إذاً ؟)).

((أنا آت من الهند ، وأفكر في مرافقة قافلة الحج لزيارة مكة تكفيراً عن ذنوبي ، والله قد أراد أن يغلق السعوديون الطرق ، ومنذ ذلك الوقت أنتظر إرادة الله في دمشق . لقد قابلتُ كثيرين من القبارصة ، إلّا أنَّ واحداً منهم لم يكلمني عنك)).

وقاتلت متراجعاً ، وتحدثنا عن الجراد . وتابعت التساؤل عن شخصيته وأنا أستمع إليه يطيل الكلام مثرثراً عن أصله في الحبشة ، وعن قوس الجذب الذي يحكم مناطقهما عندما تنطلق مهاجمة الشعب العربي . انكليزيّ أو فرنسي لا يمكن أن يمتلك هذه الموهبة في التنكر . أنا أعرف ذلك جيّداً ، فقد جربت جميع أنواع التصنع التي تخيلها فتح الله . نمساوي ؟ إلّا أننا لا نرى البتة هنا واحداً من مبعوثي فيينا . ربما كان روسيّاً ؟ نعم إنه ، بالتأكيد ، روسي .

واستمرتْ المبارزةُ ، كما لو أنها كانت تقوم بين حشرتين

تحاولان أن تحددا هويتهما باحتكاك الاتصال المحترس . ثم انتهت بنا الأمور ، بسبب حديثنا المشترك عن الجماعات والأماكن التي نحبها ، نحن الاثنين ، إلى دفعة حرارة ، ربما إلى دفعة شفقة انتهت بتقريبنا الواحد من الآخر . وهكذا شعر كلّ منا ، من دون تهور ، ومن دون أن يكشف أحدنا للآخر أضأل حزمة من الحقيقة ، أو أن يتنازل عن حقه بطعنة خنجر ، عندما يستحق ذلك ... شعر كل منا الآن ، بأنه يشبه الآخر ، وأن نوعاً من الإتفاق قد ظهر في حوارنا .

فما الذي يعنيني ، بعد كل شيء . كونُهُ روسيّاً أو نمساويّاً أو حتى انكليزيّاً . فنحن اللذين يتلاعب بنا عملاء محدودون من عواصم غامضة ، قد حشرنا ، كلانا ، في المغامرة السامة والمجنونة نفسها . فهذا الشاب الذي يبدو في صورة تقيّ هنديّ ، سيعلقه الأتراك على حبل المشنقة حين يكتشفونه . وهو يعرف ذلك . ويعرف أيضاً أنني أتعرض لخطر المصير نفسه . كلانا لن يعترف باسم من يعمل ، ومن أجل من يموت . كلانا لم يحد عن ثرثرته

حول المشرقيات ، بينما كنا نفضل ، من دون ريب ، أن نسرد ما يحفظ لجان جاك روسو ، أو فيرتر .

وأتى صاحب الحانوت اليهودي ليقدم لنا الشايّ الأصفر ، وتابعنا سهرتنا نغتاب الطعام البدويّ ، الذي عانى منه ، وقذارة المخيمات التي اعتدتها أكثر منه . ولقد علمني لماذا لا يستعمل البدو سوى البنادق ذات الفتيل (لأن النساء لا يحسنّ استخدام بندقية الحجر) ، وكشفت له لماذا تدعى آبار المياه تدمر (عين الأورنوس ـــ لأنّ فرق الامبراطور أورليانوس قد شربت منها) .

وافترقنا أصدقاء . إنّه روسيّ بالتأكيد .

بوركهارت ، المفصل عن حياة البدو (مشاريع توثيقية ، آذار ١٨١١)

أُحِبُّ ركنَ المسجد هذا : فالظلُّ لطيـفٌ ، ومعطّـر . شجرةُ جوزٍ ، في الخارج ، تحاصر النافذة الصغيرة ، وتدفع في

الفرجة أفناناً متسائلة ، كما لو أنها تفتش عن الله ، هي أيضاً . أوراقها تغربل الشمس ، وتظلل النهار والنور . والعطور المنبثقة من نسغها تفعم الجو . أنا أقصدها ، وأتملّاها خمس مرات في اليوم .

ليس المسجد واسعاً ، ولقد اخترت ، منذ وصلت دمشق قبل عام ، مكان عبادتي . إنه ليس معبداً ضخماً ، بالطبع ، ولكن يوجد فيه ، الله نفسه الذي يوجد في أماكن العبادة الأخرى . مسجد بني أميّة الكبير يضايقني بفخفخته : بثرياته المتلألئة ، ومشايخه الذوات ، وظهور أحد المسؤولين والوجهاء الصاخب ، الذي يأتي لكي يراه الناس ... كل ذلك يذكرني بكاتدرائياتنا . أمي لا يمكن أن ترضى عن غشياني هذا المكان ، بذلك كنت أفكر وأنا أرى ، للمرة الثانية ، المصلى الصغير الذي يؤثر بتواضعه وعريه .

اخترتُ ، أخيراً ، زاوية الحي هذه . الطين اللين يتقشر على الجدران ، والمنارة البسيطة تميل بشكل خطر . وبسط الداخل تظهر خيوطُها بين بقع نور الشموع .

يَؤمُ الناسَ في الصلاة غالباً كهلٌ شاحب الوجه ، يمكن أن تذهب به نسمةُ ريح . أحاديثه دائماً ، وهو القاضي القديم الذي ليس لديه من العلم شيء : فأنا أحفظ النصوص أحسن منه ، والآيات المشروحة ، التي اختارها من كتبي أو من دروس في الجامعة ، لا يهتم بها البتة . أحاديثه دائماً حول القضاء الإسلامي ، نتيجة تجربة عمرها خمسون عاماً من التوافه المختلفة حول جيادٍ هزيلة ، وحدودٍ ، وطلاقات ... حَكَمَ فيها كلّها بحسب الشرع . أنا بحاجةٍ ، في مذكراتي ، إلى مثل تجربة الإسلام الشعبيةِ هذه ، أكثر من حاجتي إلى شروح معمقة هذّبها عشرون علامةً طَوالَ قرون .

إنّ علينا أن نعرف كل شيء ، ونسجل كل شيء : عظمة الدين ، ورِقّة اللغة ، ورأي الفقهاء ، وغزارة الشِعْر . إنني أجمع ، كالنملة ، معارف الشرق باعتباري تلميذاً لا يتوقف عن التعلم . إنها تَحْفَظُني من أصحاب الفضول الذين تثير لهجتي اهتمامهم . وهي تقدم خدمةً (للورد بانكس) وجمعيته ، التي أنا مدين لها بكل شيء . إلّا أنني أشعر ، في داخل نفسي ، بدوافع أخرى تحملني

من دون مقاومة ، على البحث ، والإكتشاف ، والتصنيف . أهو التتبع للمجد حتى أتألق في (بال) يوماً ما ؟ أم هو العطش للإنتقام من الفرنسيين الذين دمروا أسرتي ؟ الأمران معاً بالتأكيد . إنّه أيضاً كره الغموض والفوضى ، وميكانيكية دماغي السرية التي لا ترغب في التوقف ، طالما بقي حجر لم أتعرف هويته ، أو تقليدٌ ما غيرُ مشروح ، أو شك في أمر من الأُمور . أجل يجب أن أتعرف كلَّ شيء .

وحتى التي لا تُعْرَف ، أي الصحراء ، أريد أن أُحصيَ أمورها ، وألصق بطاقة عليها ، وأعد أرقامها . ذلك أن هناك أشياء كثيرة على أبواب المدن ، بعيداً عن الثقافة ، والقضاء ، والتجارة : إنها الصحراء ، حيث يزول كل شيء .

قمتُ فيها بدخلات عابرات . فعلت ذلك متتبعاً طرق القوافل أولاً ، ثم وحدي مع خادمي ، متمنيّاً ، وحنجرتي يابسة ، أن يأسرنا فريقٌ من قبيلة بدوية حتى أتمكن من إحصائها وعدِّها . وهكذا عرفتُ قبيلةَ ولدْ علي . ومنذ ذلك الوقت ، أوقفت في

أسواق سوريّا محققين مكلفين سؤال البدو القادمين لبيع ماعزهم . نطلب منهم أنسابهم ، ونسجل ملاحظاتنا عن ملابسهم ، وأسلحتهم ، وشتائمهم . وأقابل هذا كله مع المعلومات العسكرية التي تصلني بأسرع مما تصل إلى الباشا . فلقد كان بإمكاني أن أقوم جيّداً بدور جاسوس .

تتبعتُ عن بُعد صعود الرولة من دون أن أقابل منهم واحداً . فقبائل أخرى كانت تحكي قصة تقدم هذه الجماعة الصاعق ، وخضوع الأُسر المجاورة لها ، واجتياحها لأراضٍ جديدة ، وانتصاراتها ، وتحالفاتها ، والمجازر التي كانت تقترفها . كنت أجد في هذه الحكايات قبائل إيكوسيا وكان أفراد قبيلة الرولة هؤلاء يذكرونني (بالكامبيل) ، وسيطرتهم المفاجئة على أراضي الغرب العالية .

كانت الأخبار التي تصلني عن (كامبيل) الصحراء هؤلاء ، تنبئني بوجود شيء ما غامض . ليس هناك إلا الرولة على رأس هذه القضايا ، وكان هذا الجديد يصعق العقول.. أمل

بالنسبة للبعض ، واتصال غريب للأمة العربية بالنسبة لآخرين . وكنت أفكر : (من هو هذا الإنسان الذي قلب أوضاع أرض ليست على هذه الصورة ؟.) .

صِغَارُ الناس الذين كانوا يعلمونني يتكلمون عنه بتوريات حذرة : إنه ظاهرة تهدد الترك ، ويمكن أن تثير الله ، فهو خطر من ناحيتين . كانوا يذكرون إذاً ، سيّداً يتحكم بالنار ، ويتقن تصويب البنادق ، إلّا أنه أيضاً محارب شاعر ، كانوا يتكلمون أيضاً ، وبكل بساطة ، عن الشيطان .

لقد قابلتُ هذا الإنسان ، إنه لا يشبه سيّد النار ، وهو ليس شاعراً شاباً ، ولكنه أقل من شيطان ، كانوا يقولون أنه أستاذ بالمعنى الدقيق ، مهذب ، رقيق الحاشية . ولقد احتجت إلى كثير من الإنتباه لأتعرف في شخصيته آثار قصته . فوجهه الأسود جداً يكشف ، عند اللزوم ، عن جولات طويلة تحت أشعة الشمس. وقذارة ذقنه ويده وثوبه تثبت العادات البدوية. لقد

عامل اليهودي الذي استقبلنا ، بعنف ، ولعل هذا يشير فيه إلى العسكري المتعود عادة الطاعة السريعة .

من أين يمكن أن يكون هذا الكهل القوي والمثقف قد أتى . هذا الذي يتحدث عنه ، بصوت خافت في أسواق دمشق ؟ إنه ليس من قبرص ، كما يدّعي ، (هل تنكري أيضاً ظاهريّ ؟) ولا من فرنسا (يتكلم العربية جيداً) ، ولا من إنكلترا (كان ينبغي أن يخطروني بأمره) .

إنه أوروبي آخر هذا الذي يحرث هذه الصحراء ، ويحرك هذه القبائل كلها ، ويسيطر على جميع هذا العالم القاحل ... والذي أزعجني ، فهذه الصحراء لي ، إنّها ملكي .

أبعاد الصحراء ، حدودها ، واتساعها ، ومختلف الأجزاء التي تتألف منها ، طبيعة أرضها ، حيواناتها وأهلها ، نباتها الهزيل ، إحصاء قبائلها ... أليس هذا كله مدوناً في مذكراتي ، ألم أصف تدمر بشكل أجود مما فعل فولني ؟.

ألم أكن الأول الذي تعرف (البتراء) المسجل خط طولها في أوراقي مع ارتفاع جبال حوران الدقيق ، وضحالة مياه العاصي ، وأسعار النوق ؟ ألا يملك الإنسان ما يقيسه ؟ ليس هذا الرجل سوى جنديّ مرتزق يتسلط على بضعة جمّالين . هذه هي القضية ، وهو لا يعرف حتى أين تولد أرتال الجراد .

لم تدم هذه الإثارة طويلاً . لقد اختارَ الكهلُ المغامرة والعنف ، أما الشاب فهو يفضل بحماسة القوائم التي ترتب في هدوء الغرفة . إلّا أننا ننتمي إلى العرق نفسه ، وقد عرفته بسرعة .

ليس تنكرنا إلّا احترازاً هشاً . والأوامر التي أتلقاها من لندن ، والتي يتلقاها من دون ريب ، من باريس ، ليست سوى تبرير لمغامرتينا، وحجة لأبحاثنا. فنحن التعبين من أوروبا، قد أخفقنا في هذا البلد الغني جداً ، والقاسي جداً ، والجميل جداً ، في إقامة امبراطورية أو تحرير اتفاق . فهل نتوصل إلى ذلك ؟ لا أدري . فلربما كانت الصحراء هي التي تمتلكنا ، في أعماقها .

كنت قد قررت في البداية إبلاغ الإنكليز بأمره وهم

سيسلمونه بدورهم إلى الأتراك . كان بيدي فرصة نادرة لإغاظة نابليون ، والثأر من (ماسينا) . إلّا أنَّ بضع كلمات لفظها في النهاية ، ثنتني عن ذلك . فهذا الإنسان قد انطلق يعمل لصالح نابليون ، إلّا أنَّ الصحراء قد عملت فيه عملها : إنه يحب البدو بحيث أنه لا يمكن أن يخونهم أو يسلمهم للآخر ، وحتى معلموه الذين أرسلوه ، إذا ما وصلوا ، فلن يحصلوا منه على شيء كثير .

رسالة إلى السير جوزيف بانكس في لندن

من ج. ل. بيركهارت ، دمشق (مقتطفات آذار ١٨١٢)

سنحت لي الفرصةُ هنا ، بوساطةِ ممثل أمير قبيلة ولد علي ، بلقاء مسيحي كانوا قد حدثوني عنه كثيراً في الأشهر الأخيرة . يدعي بعضهم أنَّ هذا المغامر قد حصل على ثقة أمير قبيلة الرولة ، قبيلة ما بين النهرين الهامة . والمتحمسون له أكثر يضيفون أن بداة عديدين قد خضعوا للرولة ، معتمدين على

نصائح هذا المارق ، من أجل تشكيل نوع من التحالف الذي يمكن أن يهدد الأتراك . ولقد استطاع ــ تحت اسم إبراهيم الذي أُشاركه إيّاه ــ أن يحصل على شهرة استراتيجية .

تمنيت أن أتعرف إلى إبراهيم هذا لأعرف منه مشاريع قبيلة الرولة ، ولأحاول معرفة ما إذا كان يخدم واحدة من القوى ، أو أنه يتابع الأمر لحسابه الخاص .

الرجل كهل ، وخبير جيّد ، بالتأكيد ، بالعادات البدوية ، إلّا أنه مشوشٌ في مزاعمه ، ومجرد تماماً من أية خبرة عسكرية أو سياسية . إنّ شخصيته ومصيره يظهران وقد تضخما بمبالغات شرقية وهو يعرض ، في حقيقة الأمر ، قليلاً من الأمور . كان عليَّ ألّا أحدثك عنه لولا الذمة التي تدفعني إلى إعلامك بكل شيء ، فلربما كان في هذا الذي أكتبه شيء هام .

لاسكاريس ، مذكرات (نيسان ١٨١٢)

أفتشُ ، منذ وقت ما ، عن فرصة للقيام بعملية مشتركة

أجمع فيها قوات قبائل عدة . إنها تسمح لي بالتحقق من ولاء الأمراء ، ومن تعقيدات المناورة على مستوى عدة جماعات . ولقد زودني بنو حسن بالحجة .

فهذه القبيلة المقسمة كثيراً وغير الخطرة حقاً ، والمرهفة إلى حد يثنيها عن التفكير في المغامرة بعيداً عن مجالات نهبها ... هذه القبيلة تبقى مصدر إزعاج لنا وتهديد. إزعاج لأن مخيماتها بين القريتين ودمشق ، والمستمرة نوعاً ما ، كانت تشكل سداً يحد مدى حروبنا . وهناك أمر لا أستطيع البتة التساهل فيه : لقد ألفينا غزوات كان يمكن أن تجري قريباً من بني حسن ، ولقد رأينا فصائل تركية ، طردتها قواتنا ، تلتجىء عند هذه القبيلة ، ثم تعود من هناك إلى ثُكناتها .

كان رؤساء قبائلنا ، الحائرين في الخطة التي ينبغي عليهم سلوكها ، يعضون على الشكائم ، ويترددون في الهجوم عليها علانية . كان الجميع لا يريدون إبادة بني حسن ــ الفدّانيون خاصة لا يزالون يعتبرونهم حلفاء محتملين ــ إلّا أنهم جميعاً

تستثيرهم حالة ضبابية تسمح لبني حسن فقط بالبقاء بعيداً عن المنازعات . كان علينا أن ننهي هذا الأمر وأن نجبرهم على أن يأخذوا نصيبهم في العمليات .

ويمكن من جهة أخرى ، لقوة هذه القبيلة التي أضعفتها ، المنازعات السلالية ، أن تتركز بسرعة وتهدد قواعدنا حتى الفرات . إنَّ الشيخَ مهنا ، الذي خالطت مجلسه إبّان تَعَلُمي يمكن أن يموت في كل لحظة ، تاركاً منصبه لأقبح أولاده . كنت أعرفُ بعضاً منهم ، وخاصةً هذا الأحمق ناصر . إنه إذا ما تسلم زمام الأمور فسيترك الطريق حراً لتركمانيته ، وسيسلم قواته لباشا دمشق مقابل لقب رنّان . إنَّ بني حسن الموحدين ، المسلحين من قبل الأتراك ، والذين يقودهم هذا الشاب المجنون ، يمكن أن يخلقوا لنا صعوبات جمة .

إلّا أنهم يفتحون ، إذا ما تحالفوا معنا ، الطريق إلى العاصي . وعند ذاك أستطيع المناورة بحرية ، في السهل ، شماليّ تدمر . وإذا ما أطلق السعوديون نحونا قواتهم ، كما أخذنا نتخوف

شيئاً فشيئاً ، فإن بني حسن يدعمون أمن مؤخرتنا ، وحراسة مخيماتنا وقطعاننا ، بينما نكون نحن ذاهبين إلى الحرب . والخلاصة كنت لا أرى إلّا مزايا في حل مسألة بني حسن : وسيكون الأمر خطراً جداً ، إذا ما انتظرنا أكثر مما فعلنا .

كان ابن الشعلان ، المقتنع مثلي بضرورة الإسراع في عملية مؤكدة ، يحبذ الإسراع في الإقدام على غزوة واضحة يتقن تنفيذها جيّداً فرسان الرولة . كان يرى تصفية ناصر ومعاونيه ، وسيوافق مهنا الشيخ ، عند ذاك على أيّة شروط لاستتباب السلم .

كان لديَّ ، هنا ، بضعةُ شكوك عبَّرتُ عنها . إنَّ مهنا ، الجنديّ القديم ، المعجون بالتاريخ ، ليس ضعيفاً ولا خرفاً أبله . إنَّ اغتيالاً سياسيّاً يخفي وراءه غزوة سيصدم شرف قبيلته ، وما تبقى لديه من عاطفة أبوية . ويمكن للأمير الشيخ ، الجاهل لقوتنا ، أن يثور ، ويفقدنا وقتاً ثميناً . إنَّ العصبة الموالية للأتراك بين بني حسن تُعَدُّ من الأنصار أكثر مما يقدر ابن الشعلان : فقطع رأسها لا يكفي ، والأنسبُ غَلَبتُها ، والتأثير على القبيلة ،

كلّها ، بعرض للقوة ، يعرّف الجميع بالقوات الجديدة الحقيقية في سوريّا .

ووافق ابن الشعلان ، مقتنعاً بحججي لأنني عشت لدى بني حسن ، على أن يحدث في هذا الشأن أمراء فدّان ، وضفير ، وولْد علي ، وكذلك الشخصيات الأقل أهمية . استدعى الجميع لموعد سريّ على هضبة قاحلة ، بعيدة عن أيّ طريق أو بئر ، في مكان لا يمكن لأيّ مدعو أن يعتبره بتعقل ، أرضه الخاصة . وتناوبت الولائم التي لا تنتهي مع بعض حفلات قنص ، وتبودلت الهدايا ، وتفرق الجميع بعد ثلاثة أيام من دون أن يبدو عليهم مظهر من حضر مجلساً . وقد قيل ، مع ذلك ، كل ما ينبغي قوله : فابن الشعلان بارع في ديبلوماسية المظاهر والأبهة هذه ، ولقد حصل على موافقاتهم الواحد بعد الآخر ، في سلسلة من الموافقات السريّة التي لم تكدر جو الاحتفالات .

ولقد ألححت على سيطرة عددية تامة غمرني بها الرؤساء . ألف بندقية ضفيرية ، وألف وخمسمائة من ولْد علي ستأتي لتنضم

إلى أربعة آلاف من الرولة على بُعد عدة ساعات من النبك ، حيث توجد أسرتي ، والتي ستضطرب ، من دون ريب ، من مثل هذا التجمع ، دون أن تتخيل أنني روحه . واعتذر الفدّانيون ببعد مخيماتهم ، وعدم ضرورة إخلاء مواقعهم ، التي يهددها سعود دائماً ، من الجنوب . لقد وصل فرسانهم المائتان والخمسون متأخرين عن الحرب ، وفي الزمن المحدد لسلب بضع خيام ، وتقديم دليل على موافقتهم على اتفاقياتنا . أمّا فتح الله نفسه ، فقد ظهر في الساعة المحددة مع فرقته من قطاع الطرق ، وحثالة الصحراء ، الذين يعرف وحده كيف ينظمهم .

وتمّ كل شيء بسهولة . فجواسيسُنا كانوا يتجولون بحرية في مخيمات بني حسن المفتوحة. كنا نعرف كل شيء عن القبيلة : قواتها، ومشاريعها، وتحركاتها. عهدت إلى قبيلة ولد علي بالهجمات الأولى ، وبأمر تصفية ناصر : ولقد جلبوا إليّ بسرعة ، معطفه المدمّى ، الهدية القديمة من أحد العثمانيين .

اندفع مهنا عندئذ ، وكما توقعنا ، نحونا هائجاً ، هازئاً

بتراجعاتنا التي تجذبه دائماً باتجاه الصحراء . وهكذا وجد نفسه ، صباحَ ذات يوم ، أمام رماة البنادق من قبيلة ضفير ، المختبئين وراء بعض الصخور ، ففقد كثيراً من رجاله ، واندفع نحو اليمين . وخمنَّ في سهل خَصِب ، من بعيد ، البقعَ السود على أنها قطعان مواشينا : إلّا أنها كانت الفرق الرولية ، التي شكلتها على هيئة مربع ، كما فعلنا في العام السادس قرب الأهرامات . إلّا أنَّ فرسان بني حسن لا يمكن أن يعادلوا فرسان المماليك ... وتكفل فتح الله مع رجاله ، بما تبقى : مع شيء من القسوة التي لا ضرورة لها ، والتي أنبته عليها في وقت متأخر .

ولم يبقَ شيءٌ ما من قبيلة بني حسن . ذهبنا مع بعض الأمراء لزيارة المغلوبين . كانوا مقعين ، على نحوٍ محزن ، في الشمس ، من دون خيام ، ولا مطايا ، ومن دون ماء تقريباً ، متأكدين من أننا قد احتزنا قطعانهم ، وعبيدهم ، ونساءهم . أعدنا إليهم هذا كلّه ، بعد أن جاء مهنا يطلب السلام ، وغمره ابن الشعلان بالتشريف ، وأولم له تحت خيمته ، وعهد إليه بتربية أحد أبناء أخيه ، ودُفِنَتْ ، عربونَ صداقة أبدية ، سبعةُ أحجار

اختارها الأمراء بأنفسهم : وهو تقليد حسنيّ ارتضاه أمير الرولة عن طيب خاطر . واستمتعتُ ، من جهتي ، بدهشة القواد المغلوبين الذين تعرفوا في شخصي التاجر المتجول الساذج الذي عرفوه منذ عامين . ألم أستحق هذا الثأر الطفولي ؟.

(هذه الرواية عن انتصاري على بني حسن ، التي خربشتها بسرعة قبل أن ألتحق بالخيمة الكبرى ، لن تكون كاملةً إذا لم أذكر حادثاً غريباً أثّر فيَّ بشكل كبير . فعندما كنت أزور الخيام المدمرة ، اعتقدتُ أنني لمحت بين الجرحى الذين كانوا يتوسلون إلينا أن نسقيهم الماء ، بائعاً متجولاً ذا ذقن مقعياً قرب خادمه الشاب . كان هذا الأخير قد احتفظ ، على الرغم من الفوضى ، بعمامة الماروني الحلبي . وكان الآخر ، المخبول ، يرتل بهدوء أغنية أعتقد أنني تعرفتها ، أغنية تذكر بمدينة نيس .) .

حثثت جوادي ، وانتقلتُ إلى مكان آخر : ألديَّ حقاً الوقتُ للتوقف أمام أمثال هذه المصادفات الغريبة ؟.

الفصل الثالث

الناقة السوداء

(مايس – تموز ١٨١٢)

(نؤكد أن أكثر من أربعين ألـــف فارس مسلحين بالرماح قد اشتركوا في معركة سلمية التي حدثت في عام ١٨١٢ . إننا نؤثر أن نبقى فوق جميع التقديرات التي قدمها لنا أشخاص أهميتُهم أكثر من إطّلاعهم ، وأن نبعد عن أنفسنا تهمة المبالغة .) .

اوغست ا . دو نورسيان

مذكرة قصيرة عن العرب ، وحول طائفـــة الوهابيين

(باريس ١٨١٨)

لاسكاريس ، مذكرات (مايس ١٨١٢)

كيف أمحو هذه الصورة الشنيعة ؟ أحاول أن أنسى ، أن أسترخي ، وأنا أتتبع قطيع الغزلان مع جمع من الصيادين : إننا ننتظر أن تتعب قليلاً حتى نزيل الغطاء عن رؤوس الصقور . إلّا أنّ الصورة هناك يقينية : لقد قطعتُ هذا الصباح رأس إنسان .

أتاني فتح الله ، الذي يحلو له أن يجرجر أيامه قرب النيران الشعبية ، ليتذوق ثرثراتِ اليوم ، أتاني ينذرني بما يُحاك حولي . إن

أفراد قبيلة الرولة أخذوا يبدون نحوه نوعاً من الفتور الذي أدهشه . لقد استطاع الشاب ، وبعد تحركات وتراجعات ومناوشات ، أن يكسب صداقة هذا الشعب الصغير . والأحسن من ذلك ، أن حميّا شجاعته الحربية قد قدمته للقبيلة التي رأت فيه واحداً من أحسن فرسانها ، وأمير حرب لامعاً ، وبارعاً في الأعمال السريعة الرائعة التي تعتمد على مبادرته وتهوره .

فكيف يمكن تفسير ما حدث ، بعد هذه الظروف ، من انقلاب حال أصدقائه ، وانقطاع الحوار المفاجيء أمامه ، والظهور التي تدار فجأة في وجهه ، وحتى وجبات الطعام المختلسة تحت خيمته ؟.

قام فتح الله إذاً بتحقيقاته . قام بها حسب عادته ، وتوجهه لدى النساء ، قرب البئر في الساعة المحرقة التي يملأنَ فيها قربهُنّ . بينما يكون الرجال منهمكين في البحث عن الظل ليقيلوا فيه . ولقد فهم على الرغم من الخرس العنيد ، والنفي البارد ، والهزء المزعج ، أنّ النساء يظهرن أكثر الناس اضطراباً بسبب الهمس المفترى الذي يتجه ضدنا .

كشف له أن إقامتنا في المخيم قد سببت عقم النياق ، وأن الطبيعة تثور ضد الوجود النادر وغير الطبيعي وغير المعصوم من الخطأ لاثنين من الأغراب في قبيلة بدوية ، وأن عقم الحيوانات لن يتأخر حتى يمتد إلى النساء بادئاً ، بوجه الإحتمال ، بالكهلات الموشومات : وبعض هؤلاء كنَّ يفكرنّ بأنهن قد ضربن حقاً .

وأسرعتُ ، في الحال ، إلى ابن الشعلان ، أخرجته من بين حريمه ، وأثرت زوبعة دامت ساعة . ولقد كدت أتفجر غيظاً عندما علمت أنه على علم تام بهذه الإتهامات ، وأنه كان ينتظر ، بكل بساطة ، تقريراً من رعاته حول خصوبة النياق . كنت أراه مرتبكاً حائراً ، منزعجاً ، إلّا أنه كان نصف مقتنع بعبث الخنزير السمين . ألم ألجأ من قبل إلى قوى سحرية للدخول بين أتباعه ؟ أنا أدفع إذاً الآن ثمن نار الصيف الماضي الإصطناعية . وقبِلَ ، بعد تردد طويل ، وبعد أن هددت بنقل أحكامه المسبقة الطفولية إلى امبراطور الفرنسيين ، بإجراء إحصاء ، في المراعي ، عن عدد ولادات الشتاء ، وباستجواب رعاة المروج المتحمسين ، عن صحة هذه الشائعة غير المعقولة .

وهكذا اكتشفنا (عبسي) ، لم يكن يحمل وجه الخائن ، هذا الماكر المنافق ، الذي تخيلته صغيراً مبتلي بداء الخنازير ، لقد كان على العكس من ذلك شاباً طويلاً وجميلاً ، ويتدخل ، عندنا ، فيما لا يعنيه ، منذ بضعة أشهر مثل مغامرين آخرين من ذوي النيات الحسنة الذين يلتحقون بنا طمعاً بالغنائم الكبيرة . لقد قبلناه عن طيب خاطر ، وجنّدنا عبسي هذا معنا .

إلّا أن عبسي لم يكن مثل الآخرين . كان يوزع هنا وهناك هدايا قيّمة ، ثم سرعان ما شكل لنفسه مجلساً ما ، وخاصة لدى النساء ، اللائي غمرهن بالمجاملات ، ونظرات الغرام الملحة . وعن طريقهن إنما بدأ حملته ضدي .

استجوبتهُ بقسوة ، بمساعدة بعض الحراس الذين جلبوه لي إلى ركن هادىء ، بعيد عن المخيم . كنتُ مطمئناً : فابن الشعلان قد وعدني برأسه ، إلّا أنه كان يريد أن يعرف من أرسله ، وما الذي يعرفه عن مخيمنا .

لم نتمكن من انتزاع الكثير منه ، ما عدا أنه ينتمي إلى بدو

(المنتفك) . هؤلاء الذين يخيمون حول البَصرة . كان الإنكليز يقيمون فيها مراكز لتلقي بريد شركة الهند في الطريق إلى بومباي . ولقد قلقوا لإضطرابات هذا الشتاء ، وأرسلوا بسرعة عميلاً لهم في محاولة لتعرف الوضع . ولقد فهمتُ من بعض حركاته أنه قد خدم لدى لورد انكليـزي ، لقـد خلصوه على نحو ما ، من قسوة الصحراء . كان يدخن كثيراً ، وهذا وحده كافٍ للدلالة على أنه لا ينتمي للسعوديين : فهؤلاء المتطهرون ، لا يستعملون ، وحتى من أجل قضيتهم المقدسة ، رجلاً من طباعه التدخين .

فكرتُ ، للحظة ، في تركه عارياً فوق الكثبـان . إنـه سيموت ، في هذه الحالة أيضاً ، وأكون قد تجنبت التجربة التي تنتظرني . بإمكاني نصب الكمائن القاتلة ، ودفع الفرسان ضد نار كوكبة من الفرسان ، وتجويع أطفال للتفاوض بشكل أجود مع آبائهم ، لقد فعلت هذا كله . إنّما الكلام في المساء مع شاب أعرف أنني سآمر بموته ، في اليوم التالي ... هذا ، في الحق ، أمر أكثر قسوة من كل ما ذكرت .

لم أستطيع ، مع ذلك ، أن أتردد . ففتح الله ، رجل القلق القليل ، لن يفهم عني شيئاً . وابن الشعلان نفسه ، ينتظر ، رد فعلي ، مسروراً سروراً غامضاً ، برؤية يديَّ تقطران دماً .

وانتظرنا يوم الجمعة احتراماً لآراء المتقين . خرجت القبيلة كلها وتجمعت ، فضولية صاخبة ضاحكة ، حول صخرة عينت من أجل تنفيذ حكم الإعدام . رموا عبسي على الأرض ، ويداه خلف ظهره ، وساقاه مشدودتان . كان التعس قد أمسك برأسه بين فخذيه ، محدباً ظهره ، لا يقدم للسيف سوى كتلة منطوية على نفسها ، كتلة لا يمكن أن يقتطع منها شيء . لكن لدى ابن الشعلان جلادين ممتازين . وقد قام أحدهم بواجبه كاملاً في هذا الصدد : نحر الخاصرتين في المكان الذي يجب أن ينتصب فيه النصف الأعلى كله فجأة ، وبارتعاش لا إراديّ ، ليغدو متيبساً يائساً . وهكذا يمتد العنق في ذعر لا نهائي ، واهباً نفسه للسيف المرفوع من قبل ، والذي سيقطعه في وضع أفقيٍّ تقريباً .

وتدفق ، في الحال ، دمٌ غزير ، لا يزال ثوبي يحمل آثاراً منه .

هذه هي الصورة التي تعذبني : اندفاع دمه اللزج واختلاجات عينين تنطفأن بأبطأ مما نفكر به ، صيحة موت تنطلق من نسوة كان عبسي قد أثار لديهم الاضطراب ، ثم سكوت القدامى الذين صدمهم العنف غير المعتاد ، وكل هذا الجد الثقيل لهذا الصباح الذي يقدم لي الدليل على عظم التغير الذي حلّ بي . ذلك أنني ، وقد قسوت بفعل الضيق وقلة الراحة ، وانتشيتُ بنجاح الرولة المدهش ، واندفعتُ بحميّا رغبتي في إرضاء الامبراطور ، قد اقترفت اليوم جريمةَ إماتة روحي ، والقيام بأعمال لم أكن أتخيل ، منذ سنتين ، أنني سأُقدم عليها ، وشعرت أنني وصلتُ ، مثل التهديد المرعب ، إلى تعود القسوة الرهيبة .

يمس هذا التفكير ، في ذاكرتي ، ما لديَّ من عذوبة وحنان : صورة عبسي تتعاقب مع صورة ابنتي الصغيرة (كاتينكو) وهي تلعبُ في غرفتها بمدينة النبك ، وخوار جمال الحرب ، بزغردات كأني تحت شجرة المشمش في دارنا . يا لكاتينكو المعبودة ! آأنا حقاً أقاتل من أجل ابنتي ؟ وهل ستكون

أكثر سعادة حين أقدمها يوماً ما في قصر التويلري ؟ ألستُ في الأعماق موضوعاً لتحرك مضطرب يستعمله كل من دروفيتي وابن الشعلان ، وحتى فتح الله ، يستعملونني ويدفعونني إلى نصر لستُ سيّده ؟.

أفكارٌ مظلمة ربما لم يكن مصدرها موت عبسي فقط ، بل عدم ثقتي الخاصة . أفكار مظلمة لم تستطع إيقاف الغزلان التي تلاحقها صقورنا : هذا الدم ، على الأقل ، قد أهمل في اللحظة الحاضرة .

نلنبعدْ إذاً عن روحنا هذا الدُوار الذي يظهر فيه ، كل بدوره ، ابنتي وضحيتي ، صور ضائعة محطمة لا معنى لها ، تسبح على روح من دون هدف . إنني ، في هذه اللحظة الصعبة من حياتي ، بحاجةٍ إلى تفكير نقيٍّ ، وعقل صافٍ .

فاجأني نجاحي ، ولكنني لا أجهل أنه محدود ومؤقت . ففقر القبائل ، ونفورها من جمع أيّ احتياط يصيبها بالعطب أمام

أيّ تقلب من تقلبات المناخ . وأنـا أعـرف أيضاً أن التـوازن العسكري الدقيق بين القبائل يمكن أن يحطم ، في أيّ وقت ، بظهور أمير أكثر مهارة وطواعية . فالرولة ، هذه السنة ، تجد نفسها أكثر غنى ، وأكثر نظاميّة من المعتاد : إنّ هذا يكفي لقلب جميع علاقات القوة . لقد أحسست بهذا ، بتدخلي في هذه القبيلة ، وبتحولي صديقاً لرئيسها . لقد قاتلنا معاً ، وفاوضنا معاً . ولقد تحالفنا معاً قانعين ، أو مخدوعين أو مفتونين .

صدق هذا التحالف يخدع الغريب ، وأقدر أنه سيؤثر على دروفيتي . إنّ ابن الشعلان يستطيع اليوم ، بحافز مغرٍ إلى حدٍ ما ، إثارة خمسين أو ستين ألف محارب في سوريّا وما بين النهرين . والسعوديون يستطيعون اعطاءنا الفرصة المناسبة .

إلّا أنّ هذه القوة ستكون ذات قيمة لا مثيل لها ، واخلاص مشكوك فيه . فالفدّانيون ، وولـد علي ، والضفيريون مقاتلـون أشداء ، فهل يدعهم رؤساؤهم يتحركون حسبما أريد ؟ أما القبائل الصغيرة الموالية لهم قليلاً أو كثيراً ، والتي تنجذب إليهم ، فمن

يضمن صمودهم في القتال ؟ ثم من يستطيع أن يضع لجاماً أمام طمعهم عندما تسير أرتال جيش الامبراطور باتجاه بغداد .

باستطاعتي بالمقابل ولو لم أؤلف جيشاً ، أن أقوّم قيمة معلوماتي . فالأبدال ، وفرق العدائين ، وجماعات الإستكشاف ، واستعمال الآبار المهملة : كل ذلك يسمح لنا ، اليوم ، بمعرفة سريعة لما يجري في الجانب الآخر من الصحراء . ولقد توصلنا ، في الأسابيع الأخيرة أيضاً ، إلى إيقاف شبه تام لاتصالات الأغراب : فلكي تتصل دمشق ببغداد أصبح على تتار السلطان أن يتخلوا عن طريق تدمر المستقيم . والقوافل تتجمع حول المدن دون أن تتجرأ على الإندفاع في الصحراء مهما كانت حراستها مشددة ، وشركة الهند توجب عليها أن ترسل حقيبة بريدها إلى بومباي عن طريق يافا ـــ البصرة . ذلك كله يزعج العدو بالتأكيد ، إلّا أنه ليس أكثر من فرض للمكوس ونهب بالنسبة لبداتنا ، على الأقل . فبعد أشهر عدة ستستأنف الفوضى أكثر من ذلك .

هذه المشاشة ترهقني : فإذا ما وصل الامبراطور قبل الصيف ، فسأقدم له طريقاً حراً ، ومركزاً في الصحراء ، ونواة جيش بلادي . أأستطيع ، إذا ما انتظرنا الشتاء ، أن أحتفظ له بما أقمته ؟.

رسالة دروفيتي الأخيرة كانت حاسمة ، إنَّ اسطول طولون جاهز ، والفرق قد اختيرت ، والمصانع تهيء الملابس الخفيفة : وأمامنا أربعة أشهر . كنت قد ذهبت فخيمتُ على بُعد أربع ساعات من حلب ، حيث أرسلتُ فتح الله لرؤية والدته ، والمرور عند القنصل روسو ، لالتماس الأخبار . إلّا أنَّ الفرنسيين ، في المدينة ، لم يكونوا يتحدثون إلّا عن ولادة وليّ العهد ، ملك روما ، والإنكليز يتحدثون عن انتصاراتهم في البرتغال : فإذا ما كان هناك من مشروع للإنزال في سوريّا ، فإنَّ السر قد احتفظ به جيّداً .

أربعةُ اشهر من دون أخبار : ماذا يحدث لو أنهم لم يأتوا ؟.

رسالة إلى السيد دروفيتي ، قنصل فرنسا في الإسكندرية

من السيد لاسكاريس ، بغداد (مايس ١٨١٢)

أُرسِلُ إليك هذه البطاقة ، سريّة بالشيفرة كما ينبغي عن طريق قنصلنا في بغداد ، السيد (كورانسيه) ، الذي سأزوره إذا ما سمح لي الأتراك بالمرور . أنا أجهل ما إذا كنت ستستلمها . فالاتصالات بين بغداد ومراكز البريد في سوريّا مقطوعة منذ أشهر ، ومن المستحيل الوصول إلى غزة أو سيناء. فهل يرسل (كورانسيه) بريده عن طريق الموصل أو القسطنطينية ، وهل له صلات بأصحاب السفن في البصرة للوصول إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ؟ لا أعرف شيئاً عن ذلك أبداً .

الحقيقة أنَّ سوريّا ومناطق ما بين النهرين مسرح انتفاضة عامة للبدو . فبعد أن كانت هذه الجماعات ممزقة لمدة طويلة ، بدا ، في الوقت الحاضر ، أنها قد ذابت في تحالف تظهر دمشق وبغداد قلقتين جداً منه . يقال أنَّ ابن الشعلان أمير قبيلة الرولة ،

روح هذا الاتحاد ، وأن مستشار هذا المحارب القويّ ، نصراني من جنسية غير معروفة . قلت كل شيء ، فيما يتعلق بهذه الأخبار ، وأظنك قد فهمت عني ما أريد .

أما وقد قمتُ ، مسروراً ، بالمهمة التي كلفتني بها فإنني ألتفت إليك لمعرفة النتائج النهائية التي يمكن أن تنتظر . لقد أفدتني بقرب وصول أشخاص تعرفهم : فماذا تمّ بهذا الأمر الآن ، وكيف أفسّر صمتك في هذه الأشهر الأربع الأخيرات .

يجب أن تعرف ، ياسيدي ، أننا هنا مهددون من جهتين : فالأتراك لن يتحملوا طويلاً إغلاق طرق الصحراء . واتصالاتهم ، مثل تجارتهم ، قد ضربتها هذه الحالة ، وأنا متأكد من أنّ باشا دمشق قد أرسل تقريراً إلى القسطنطينية طالباً تعزيزات من الفرسان ، لتهدئة بدو سورية ويبدو اجتياح سعودي أخطر من ذلك . فشعب الجنوب الكبير هذا قد ضاعف في هذا الشتاء غزواته في وادي السرحان ، ووصلت طلائعه إلى حدود حوران . إنّ الأسرى الذين قبضنا عليهم يثيرون الشعور بعزمهم وحزمهم

وشجاعتهم . إنهم يسمعوننا أن مليكهم قد قرر بإصرار إنقاذ دمشق من الأتراك ، وهو يعد من أجل هذه الغاية جيشاً تعداده ستون ألف رجل . وأنت تعرف كم ستعيق هذه المعركة مشاريعنا .

أأستطيع أخيراً رسم لوحة لوضعي الشخصي ؟ إنَّ المهمة التي أنجزتها لم تتم من دون التزامات ووعود . إنَّ العيونَ مركزةٌ الآن عليَّ ، وكل تأخير في تحقيق وعودي يضعف من الثقة بي ، والاعتماد عليَّ ، ومن تأثيري عليهم ، ويجعلني أتعرض ، فضلاً عن ذلك ، لمخاطر عظيمة ، أنا وأسرتي معي .

من أجل ذلك ، أرجوك بإلحاح ، إعلامي بالطرق المعتادة ، بالأنباء الدقيقة عن عملياتنا ، وبالدليل الملموس على أنَّ مهمتي لم تكن عبثاً .

فتح الله ، ملاحظات (حزيران ١٨١٢)

كنت أذهب عند عم لي شيخ في حلب : كنت أحب

حكاياته عن الرحلات . لقد سافر كثيراً مع القوافل ، ثم سرّحوه لأنه غدا أصم ، لا يسمع دعوات رفاقه وهم يجمعون الحيوانات ، كان يقول لي « نهوض الناقة يشبه إلى حدٍ ما مولد العالم ، أو هو شبيه الصباح . الكفل المضروب بدبـوس أو هراوة ينهض نحو السماء ، ويعطي الحيوان للحظة ، صورةً لا معنى لها . إلّا أنَّ قوائمه الأُمامية التي يساعدها جهد من الحيوان تنبسط ، وينهض الصدر ، وينتصب المشفـر ، وتغـدو الدابـة جاهـزة لاجتيـاز المسافات . » .

أعيد التفكير ، اليوم في ذلك ، وأنا أرى (فضة) ، سفيرة الرولة . لم ترتجف على سرجها عندما تموج النهوض القويّ الذي أخل بتوازن مطيتها . لقد تركت نظرها الجامد ، نظر ابنة الأُمير المتعالي يطوف بنا .

لم تكن فضةُ جميلة جداً ، فالحلق الذي يثقب أنفها ، والأساور الثقيلة ، وصفائح الفضة ، والعقد الرباعي ... كل ما يزينها لم يكن يخفي أنفها الضخم إلى حدٍ ما ، ولا فمها الناعم .

فلسحر القبائل التي أرسلت إليها وإغوائها ، كان ينبغي اختيار جمال أكثر جاذبية : ولا يعوز ذلك أميرات رولة .

إلّا أنَّ فضة لم ترسل إلى الرؤساء المتحالفين لسحرهم أو إغوائهم ، فضة أرسلت لإثارة الرعب ، والإقلاق ، والتمزيق . إنها نذير الدموع والدماء ، رسولة الموت : لقد اختاروها لإعلان الحرب ضد سعود ، هذا تفسير سواد ثوبها ، وسواد سجف هودجها الذي تركته مكشوفاً حتى تتمكن من تحية أسرتها . إنها ستسدله ، بعد قليل ، لتنزوي في محفتها . وهي مكعب أسود مزين بريش قاتم يهتز على سنام الناقة ، الناقة السوداء كذلك .

ستسير فضة في حرارة حزيران القاتلة ، وعندما تنزل السماء سيول الحمم ، من قبيلة إل قبيلة لإيقاظ الغضب وطلب الإخلاص الذي وعدت به قبيلة رولة . وسيعرض الرؤساء المجتمعين حولها عليها كعكةً وحليباً ، وسيتوسلون إليها أن تقف لبعض الوقت ، مشيرين ببضع ساعات من الراحة ، ليلة فقط ، تستطيع فيها الرسولة ، أن تدخل إلى نسائهم ، وتنالَ شيئاً من الراحة .

إنَّها سترفض كل شيء ، محتقرة وحزينة . وهي ستجيب دون أن تضع رجلها على الأرض ، بشيء من النصح والإرشاد قائلة « ناقة الرولة السوداء ليست بحاجة إلى كعكاتك ، يا أبا سعدون ، ويا أمير صابا ، إنَّها بحاجة إلى مقاتليك . لقد أتيت معلنةً الحرب ، وطالبةً منك الوفاء بالعهد الذي أقسمت عليه تجاه عمي ابن الشعلان . » .

وستصف المخاطر التي تهدد قبائلنا ، وتروي حكاية غزوات السعوديين في وادي السرحان ، كيف جوّعوا حلفاءنا الفدّانيين ، وكيف يهاجمون اليوم حلفاءنا ولد علي . وسيرفع من نبرة خطبتها ، حرارةُ حديثها ، والفظائع التي تتخيلها ، وبعض الأعشاب التي تمضغها .

وسيغدو الحديثُ أكثرَ سرعة ، والتنفسُ أكثرَ عمقاً ، والرعب الموصوف أكثر تجريداً . فليس السعوديّ وحده هو الذي يهددنا ، إنَّه العطش ، والألم ، وريح الرمل ، وموت النوق والأطفال أيضاً . فضة ستروي ذلك كله ، فضة ستقاتله ، فضة تطلب

المساعدة بعيون جاحظة ، وخيط من لعاب يسيل في زاويتي شفتيها الناعمتين . وتنزلق دعوتها المفككة ، المقطعة ، وصرخاتها الخرقاء ، وتأوهاتها القصيرة ... ينزلق ذلك كله إلى عظة تقطعتها أغنية موت وقتال .

وستنطلق مرة ثانية وهي تئن ، يتبعها ركبها صامتاً ، تاركةً خلفها القبيلة مضطربة ، والرؤساء قلقين ، والشباب متحمسين ، مستعدين للموت لإنقاذ الأميرة السوداء من الشر الذي ينتظرها .

وستصل يوماً بعد يوم إلى مخيمات أخرى ، باعثةً فيها الرعب ، وسيندفع الرسل في كل مكان خلفها ، لرواية قصة مرور الناقة القاتمة ، وإثارة القبائل مرة ثانية ، وإنهاض المقاتلين وتلقي تعليمات ابن الشعلان .

من أجل هذا اختيرت فضة . لم يكونوا بحاجة إلى زيارة جميلة لإثارة جنون الجماعات ، بل كانوا بحاجة إلى زيارة جنيّة تعرف الأعشاب التي تستدعي الشيطان .

بعد رحيل الأميرة ورهطها ، عدتُ نحو الخيمة الكبيرة

لاستجواب الأسيرين السعوديين اللذين جلبوهما . لقد سقوهما الماء دون أن يحلوا وثاقيهما . كانا ينتظران بهدوء تحت القماشة التي رفعت لتقيهما شر الحرارة القاتلة . كان بعيرهما يجتر على بُعد خطوتين ، إنه دابة جميلة صهباء يكشف خفاها المجرحان ، وسنامهما الرخو عن الملحمة التي قامت بها . لقد تركوا عدتها عليها حتى أتمكن من فحصها .

يتدلى من جانبي الحيوان سلتان من الأغصان ، محزومتان على شبرق من جلد النعام . يسافر المحاربون في هذا الزورق المزدوج ، متعلقين ، ركبتهما في ذقنهما التي تكاد تتجاوز بصعوبة حافة السلة ، إلّا أنهما جاهزان مع ذلك ، لملء بندقيتهما ، وقتل رجل على بُعد مئتي متر .

ويرتفع هرم غريب يفرق السلتين ، يتكدس فيه ما يكفي للعيش عشرة أيام في طرق محرقة : كيس من الطحين ، وكيس من التمر ، يشكلان قاعدة هذا البناء الثابتة . وترى بعد ذلك قربة ماء ، وجرة زبدة خروف مثبتة بين جفان من الجلد والأغطية .

وتتـوج الـذخيرة ذلك كلـه : أكيـــاس صغيرة من البــــارود والرصاص ، سيخ بندقية ، وفتيل وقطع غيار .

اقترب بدويّ مني بينما كنت أفحص سقط المتاع ، وهمس في أذني حتـى لا يستطيـع الآخرون سماعـه ((أتـرى ؟ لهذا سيكسبون الحرب)) . أدرت رأسي مستثـاراً بهذا النذيـر من الشؤم ، فعرفت نايف ، الرولي المتشرد . لقد غادر القبيلة شاباً ، والله يعرف بسبب أيٍّ شجار . ولقد عمل إسكافياً في بغداد ، وشاعراً في البَصرة ، ومـن دون ريب ، قرصانـاً على النهر بين المدينتين ، وهو يدعي أيضاً أنه قاتل السعوديين في جيش الباشا . كان ذلك منذ خمسة عشر عاماً ، في زمن الملك عبد العزيز ، عندما كسرت حملة الأتراك في رمال الكويت . كيف عاد نايف مهنا ؟ لم يقل لنا ذلك أبداً . وها هو ذا اليوم وقد بلغ الأربعين ، يعود إلى قبيلته مجذوباً بسحر غنيمة ينالها : مع أنه قد تزوج من أرملة غنية إلى حدٍ ما . إنّه ابن القبيلة الجيد ، محارب صامد وعنيد كنت أصحبه عن طواعية ، في غزواتي .

يسمون هذا (المردوف) فكل تركي في المعركة بحاجة إلى ثلاثة جمال . أمّا السعوديون فيركبون جنديين على دابة واحدة . ويتفرق هؤلاء الصقور في الصحراء ، يتبع كل منهم طريقه ، متحاشياً آبار المياه ، والمراعي . وفي اليوم المعين ، وفي المكان المحدد ، يجتمعون فجأة بالآلاف ، مكونين جيشاً ضخماً ، لا يمكن لأيّ مراقب أن يعلن عنه . من أجل هذا سيكسبون الحرب .

الرولة أيضاً قد هزموا الترك يا نايف ، بينما كنت تخيط الصنادل في أسواق بغداد ، إنهم أغنى بحيث يعطون جملاً لكل مقاتل . والسعوديون فقراء ، ومن أجل هذا سيخسرون الحرب .

كان القياس تافهاً ، إلّا أن نزق لهجتي أسكتت نايف ، كنا نعرف ، نحن الاثنين ، أننا على خطأ ، وأن السعوديين أغنى منا ، وأن فرسانهم المردوفين يستطيعون مفاجأتنا في كل لحظة : إلّا أنه لم يكن يريد ، ولا أنا أريد ، الحديث باسهاب عن تفوق العدو ، بينما كان الرفاق قد بدؤوا يسترقون السمع .

كان السجينان ينتظران دائماً تحت قطعة القماش التي تظللهما : كانا شخصين بلون أسمر ينظران إليَّ من بُعد بأعين مدققة . كانا آتيين ، كما قالا لي ، من عسير ، وهو جبل معشب ، عامر بعيون الماء الصافية ، في الجنوب البعيد ، على حدود اليمن . أميرهم ، عملاق أسود ، يصفونه مغالين ، ويدعونه (أبا نقطه) . كان قد وعدهم ، منذ زمن ، باحتلال صنعاء ، إلّا أن الملك سعود قد منع عنهم هذه الغنيمة القريبة والمغرية جداً . ووعدهم ، مقابل ذلك ، بدمشق . لقد جُنِّدوا في نهاية الشتاء ، بعد أن توالدت النياق ، من أجل معركة تستمر ستة شهور .

ولم يكشف الرؤساء ، كالعادة ، شيئاً من مشروعات الجيش . وتفرق المردوفون في الصحراء ، بعد أن كانوا قد تجمعوا في نجد . وكانوا يتواجدون ، مرة في الأسبوع ، وبجماعات قليلة العدد ، حول بعض موارد الماء ، التي لم يستطع جنودي الجسورون المغتربون عن منطقتهم ، أن يكشفوا منها ، إلّا القليل ، ويتلون ذلك الجيش بسرايا فرسانه ، وفرق القتال من الجمال ، والحرس ، وأركان الحرب التي يقودها أبو نقطه . كم يبلغ عددهم جميعاً ؟

إنهما لا يعرفان شيئاً ، ويقذفان ، بالتأكيد ، أرقاماً لا تصدق : ألفان من الجمال (غزوة بسيطة من قبيلة ولد علي ، وحدها يمكن أن تهزمها شر هزيمة) ، أو مائة وخمسون ألفاً (أكبر عدداً من الجيش التركي) . وفهمت من هذه التناقضات الحاسمة والحمقاء ، أنَّ المشاة لا يملكون فكرة عن الأرقام : ولم نستطع استخلاص شيء منهما .

جزيرة العرب . كم تثير اهتمامي وتحيرني ! كم تعذبني وترهقني هذه الأرض المحرمة الممنوعة عليّ ! وهكذا من خلال استجوابات مماثلة ، بدأنا في تشتيت الظلمات التي تغلف مقاطعات شبه الجزيرة . وأخذت ، هذه الكتلة المجهولة الخطرة المؤذية ، التي تدفعنا المنفعة لمحاربتها ، بالاتضاح شيئاً فشيئاً . لقد ظهرت قطراً ، حقيقياً . ليست وهماً مثل هذه الولايات (الباشيليكات) التي يتسلط فيها موظفون أغراب يعملون في خدمة سلطان خرافي ... ولكنها قطر موحد له مليك وقواد ووزراء ، وكلهم من العرب ، يأتمرون بأمره ، وشرطة عربية بسطت النظام العربي .

كم نحن بعيدون عن هذا كله ؟ بتحالفاتنا التافهة ومعاهداتنا العابرة . السيد لاسكاريس ينتشي بنجاحات ديبلوماسية صغيرة ، وبأفخاخ ينصبها لبعض القبائل الصغيرة ، ويعتقد أنه سيّد سوريّا . إلّا أنَّ من الواضح أن العظمة الكبرى ، والقوة الحقيقية إنّما تكمنان في سعود ، الحليف الوحيد اللائق بنابليون ، والذي يجب أن نتفق معه قبل أن يقودنا تقدم جيشه إلى ما يتعذر إصلاحه .

حاولت أن أعترف بهذه الشكوك إلى معلمي شاعراً بأنه هو نفسه أيضاً حائر ، معجب جداً بالسلام السعودي المبسوط على جزيرة العرب . ولم أستطع انتزاع شيء منه ، ما خلا هذه الصرخة المؤلمة من الكلام الصاخب « حكم العقل هو الذي يطلب منه مقاتلته . » ، ومنذ ذلك الوقت أخذ يرد عليَّ بعنف ، بادي الحذر ، مرتاباً ، وقاصراً نشاطي على الجانب العسكريّ البحت .

ويلاحظ ابن الشعلان فتنتنا المؤكدة شيئاً فشيئاً ، يبتسم

لها ، أو يحزن ، من يدري ؟ فمن خلال جلبة الخيمة الكبيرة التي لا تنقطع ، ووسط ذهاب الرسل ومجيئهم ، ومع الخدم ، والقواد العامين ، ووسط مجموعات الكتيبة وسفارات القبائل البعيدة ، وأولاد الأمراء المتحالفين يتلذذ أمير الرولة اليوم بقوته . إنه هو أيضاً مقتنع بأنه سيد الصحراء ، ومفزع الأتراك ، وربما غدا غداً كارثة السعوديين . ويتلقى السيد لاسكاريس إلى جواره ، ثمار إخلاصه ، ومهارته ، دون أن يفهموا ، كما يبدو لي ، أنهم إنما يكرمون نابليون من خلاله ، نابليون الذي ينتظرونه .

نابليون الذي لا يزوّدنا ، إذا ما صدقنا نزوات معلمي ، بأيّ خبر من أخباره .

لاسكاريس ، مذكرات (حزيران ١٨١٢)

يجب أن نخضع لحكم الواقع : سعود سيصل قبل نابليون . إنّ صمت دروفيتي تجيب عنه جلبة سكان الجنوب التي أرهبها تقدم القوات الوهابية . وغبار الكشافة السعوديين الراكبين اثنين

اثنين على مردوفهم الذي لا يكاد يصدق ، قد عمَّ الصحراء . لقد شوهدوا أمام دمشق ، وفي تدمر التي احتلوها لفترة ما ، وحتى قرب الفرات . ويصعد الجيش في إثرهم ، متخلفاً عنهم أياماً قليلة . أعطيت الأمر بالتراجع نحو العاصي . قام الولْد علي بواجبهم بشجاعة ، مؤخرين العدو لمدة شهر . ومنذ ذلك الوقت ، ينتظرون بسلام ، بعد أن انسحبوا إلى فلسطين ، نتائج العمليات .

قررتُ اجتذاب العدو إلى أبعد مكان ممكن عن قواعده ، معتمداً على التعب ، وحرارة حزيران ، وإزعاج قواتنا ، لإنهاك عزيمته وإضعاف حماسة المقاتلين . وهو الأمر الذي أعطي للقبائل بالتمركز في سلمية ، البلدة الصغيرة التي طردنا حاميتها الصغيرة ، والتي أحللنا بسرعة محلها رماة البنادق الضفيريين ، الوحيدين بيننا الذين بعرفون استعمال الجدران متاريس للقتال .

وبين سلمية ونهر العاصي الذي يغسل هذا السهل ، وعلى جبهة عرضها ميل تقريباً ، وزعت قواتنا من الرولة : مربعات

صغيرة واسعة شائكة بالرماح ، مشكلة حول كوكبات فرسان ، وجاهزة للانفتاح لتحرير هجماتها المعاكسة . لقد أعدنا المناورة عشرين مرة .

وخلف البلدة كانت أكثرية الخيّالة تنتظر . ستهاجم بموجات متتالية مكلفة بإبعاد رماة البنادق السعوديين ، والإستيلاء ، عند الإقتضاء ، على مدافعهم (ولكن كيف نقل سعود مدافع عبر ألف كيلو متر من الصحراء ؟ إذا ما تمكن من ذلك فإننا نكون ، بالتأكيد ، قد سحقنا : فبداتي لن يصمدوا أمام مثل هذا التهديد الجديد . فالأفضل عدم التفكير فيه) .

وسيأخذ الفدّانيون أخيراً أقصى يمين التشكيل : وسيضاعفون ضرباتهم مستندين إلى النهر ، ومختفين في سريره بين أشجار الدفلى ، على جانب العدو ، ملتفين حوله ، إذا أمكن ، لتهديد قطعانه وحرّاسه ، وخيامه من خلفه . فخِيَمُنَا ، أو بالأحرى مخيماتنا ، تتوزع خلف النهر الذي يحميها ، وستكون قريبة مع ذلك بحيث يعرف كل محارب أنه إنّما يقاتل دفاعاً عن ذويه .

ذويه ، ذويّ ، ما شأن أسرتي في هذه العاصفة من الحرب ؟ أسقف النبك زودني برسائل مطمئنة ، وقد بذلت جهدي حتى أجتذب العدو نحو الشمال ، بعيداً عن دمشق ومنطقتها . وإذا ما فشلت مع ذلك ؟ إذا ما قذف السعوديين بأنفسهم على العاصي ، وثروات مدنه ، فهل يتمكن الأتراك من حماية مراكزهم ؟ عاهدني فتح الله على الدفاع عن النبك مع أنصاره إذا ما ظهر أن غزوة ستهاجم المدينة . فتح الله ، في الحقيقة ، قد استأذن البارحة ، ورحل . هذا التلميذ ، هذا الرفيق في الكثير من المعارك ، هذا الصديق لن يشهد المعركة العظمى التي سأثيرها . لقد طلب إليّ ، وقد أعماه إعجابه بسعود ، ألّا يحمل السلاح في وجهه . فعل ذلك ببساطة ، وحزن ، متأكداً من أنّ المجد الذي حصل عليه يبعد عنه أيّ اتهام بالجبن . ولقد أغمض ابن الشعلان ، بفضول ، عينيه عن هذا العصيان ، وطلب إليه أن يتجه إلى القريتين بحجة محاولة إقامة كمائن في شعابها : والنبك على بُعد ساعتين من هناك .

اذهب يا فتح الله إذاً . لستَ تلميذي الماروني المذعور

الذي يرتجف على بغله ، عندما غادرنا حلب منذ سنتين . أنت زعيم من زعماء رولة ، تحت تصرف أميرك ، ستسلم ، عن طواعية ، إلى سعود كل قبائل سوريّا لإقامة دولة عربية ، أنا أعرف ذلك : وإنه لحلم نبيل ، يثيرني أنا الآخر . إلا أن (دروفيتي) لا ينتظر مني نبلاً ولا حلماً .

لاتعتقد أنَّ إثارتي لهذه المعركة سهل عليَّ . لا تعتقد أنني بعيد عن إغراء نسيان باريس ، والمكاتب ، والكورسيكي ، وعن الذهاب لمصالحة سعود وتوقيع معاهدة معه .

أتذكر عندما غادرنا حلب منذ سنتين ؟ كانت المدينة ، شأنها في ذلك شأن سوريّا كلها ، تجن أمام وصول السعوديين الوشيك الوقوع . كانت القبائل القوية تتهاوى . وكان هؤلاء السعوديين الأشداء تنفيذاً لدينهم المتشدد ، يجتاحون كل ما يقف عثرة أمام تقدمهم . لقد احتلوا كربلاء المقدسة لدى الشيعة ، وكذلك مكة والمدينة ، وأزالوا منها مظاهر الوثنية ، بحيث لم يكن أحد ليستطيع كبح غضبهم . والأشد من ذلك خطراً ، أنهم أوقفوا

قوافل الحج ، فرجع الحجاج القهقرى ، على أعقابهم ، باتجاه دمشق أو بغداد .

لقد قضى هؤلاء الفقراء على التجارة قضاءً مبرماً في نواحيهم . لقد احتلوا ينبع ، والوجه ، وجدّه ، وجميع شواطىء البحر الأحمر ، بحيث لم تعد القوارب الشراعية المصرية لتجرؤ على الإقتراب . وكان حلفاؤهم من القواسم يجتاحون الخليج ، مدمرين تجارة اللؤلؤ والعبيد التي كانت دائماً تغني تلك المناطق : ولقد كان على الإنكليز أن يرسلوا بعضاً من مدمراتهم لإعادة النظام إلى ذلك المكان .

أمّا الترك فقد أعدوا أنفسهم ، كما هم دائماً ، لتوقي الرعب . لقد عرضوا في دمشق بعضاً من جنود باشا بغداد ، وهم بقية الجيش المرسل إلى الكويت ، والذي كان السعوديون قد مزقوه إرْباً إرْباً . لقد حدثوني حديث استعراض هؤلاء المشوهين الشنيع ، وهؤلاء المجانين الذين كانوا يضحكون هازئين وهم يسبحون بحمد الله والسلطان . لقد تاه رفاقهم في الصحراء طوال عدة أيام ، قبل

أن يلتقطهم الخيّالة العرب محترقين عطشاً . ولقد عرفت أنهم ، بناءً على أوامر من سعود ، قد سقوا الماء القراح قبل أن يسجنوا باعتبارهم أسرى حرب .

أصبح الآن ، من السهل عليّ ، فهم سبب إشاعة الترك أخبار الرعب من السعوديين . فباشا بغداد ، الذي هزم مرتين أمامهم ، يأمل في تبرئة نفسه أمام الآستانة . بينما يهنىء باشا دمشق نفسه لتوقف قوافل الحج : فحمايتها كانت تكلفه غالياً .

وآتت هذه الدعاوة ثمارها المرجوة ، فلقد كان الناس في حلب ، عام ١٨١٠ ، يعيشون في رعب ، وكانت غرفة التجارة الخلفية تردد أصداء اللعنات ضد سعود .

كنت أنا نفسي خائفاً ، مثل الآخرين ، من دون أن أدري لماذا . لم أكن مهدداً بتجارتي ، بالطبع ، إلّا أنني كنت أحس بنوع من القلق الغامض من مَقْدم السعوديين ، ما دام مفروضاً أنهم سيقتلون الناس جميعاً . لم تكن هذه النقطة من الكرة الأرضية يوماً ما هادئة ، والقلق والذعر ينتشران فيها بسرعة ، قلق من

النهب ، والسلب ، وذعر من عسكريّ يجتاح المسكن بعد رفس بابه برجله .

هذا القلق ، وهذا الذعر اللذان ركزا حول موضوع علم به الجميع ، وهو أن السعوديين يدمرون كل شيء ، قد عرفتُ كيف أستخدمهما لحمل البداة على الاتحاد . ففي الصحراء أيضاً ، في هذا الوهج الذي لا يرحم ، والـذي يمحـو الظـلال ، ظلال الأشياء ، وظلال الأرواح ، في هذه الصحراء بدأت أنا نفسي أشك . فإذا ما كنا أنا وأنت ، يا فتح الله ، قد غدونا بدويين فهل يكون سعود عدونا حقاً ؟ هنا لا توجد تجارة لنحميها ، ولا ثروات في خطر ، ولا مدنيون يرتجفون . وإذا ما كان سعود يجلب معه الجوع ، أيكون أسوأ من سحابة جراد على مراعينا ؟ وإذا ما جلب معه العنف ، فهل هو أسوأ من جيراننا الذين يحاربوننا منذ ألف عام والذين يجلبون معهم الرعب ؟ أهو أسوأ من الأتراك ؟ كنت عندما أتحدث عنه ، أرى أشعة من التحدي تلتمـع في أعين محاربينا ، أشعة من الإستهانة والفضول ، إلّا أنها لم تكن البتة أشعة حقد .

وهناك أخيراً ، المعتقد والإيمان . أنت تعرف ، يا فتح الله ، أنَّ هناك إيمان السعوديين المشتعل والمدمر ، المولود في الصحراء ، والمغذّى بقسوتها ، والقويّ بنقائها وطهرها . لا أزال أذكر أنهم عندما كانوا يحتجون بصخب ، في حلب ، عند ذكر اسم (عبد الوهاب) ، حليف سعود ، والذي أقنعه بفكرته في تجديد الإسلام ، كان العلماء يبقون صامتين ، مقطبين حواجبهم ومفكرين . فلقد كان هؤلاء العقلاء الشيوخ ، الصم أمام دعاوة الأتراك ، مثلما هم صم أمام سباب التجار الغشاشين ... كان هؤلاء العقلاء ، حفظة كلام الله ، يشعرون بأن شيئاً ما كبيراً يجري في قلب الإسلام .

صحيح أنَّ السعوديين قد جرّدوا مكة والمدينة من زينتهما . فماذا في هذا الأمر ؟ وهل هم بحاجة إلى الذهب واللآلىء لتزيين الأماكن المقدسة ؟ ألا يكون المرء ، على العكس من ذلك أكثر إيماناً وقداسة ، عندما يكون أكثر بساطةً واعتدالاً ؟.

ولقد اعترض السعوديون قوافل الحج ، من دون ريب ، إلّا

أننا نعرف الكثير أيضاً عن عصابات الزناة الوثنيين الذين كانوا يدنسون هذه القوافل . وكان الناس يمرون ، مع ذلك ، فلا يزالون المؤمنون الحقيقيون يؤدون فريضة الحج عن طريق القصيّم وجدَّة . ألا يقال : أن أمير مراكش قد اتبع هذه الطريق ؟ وأنه استقبل ، على جبل عرفات ، من قبل الملك نفسه ؟ كان ذلك كله يهمس به الناس بعيداً عن الأتراك ، في ظلال المساجد الرطبة ، وعلى عتبات المكاتب التي تعلم القرآن ، وفي حدائق المدارس العالية .

ولأن إحساسي قليلٌ أمام الله ، ولأنني أكثر انشغالاً بالتنبؤات السياسية التي أحدثتها الثغرة السعودية في جسم الإمبراطورية العثمانية ، فإنني لم أعر هذه الأمور أذناً صاغية ، ولم أولها شيئاً من اهتمامي ، وكنت أعتبر الرجال المتدينين أناساً ثرثارين ، لا نفع منهم .

كم غيرتني الصحراء ، إن عذابها الذي عوقبت به ، من جوع وعطش وحرارة ، قد أنعش روحي أكثر مما أيبس جسمي ،

ونورها القويّ جداً قد جعلني بصيراً بعيد النظر ، بدلاً من أن يعميني .

أنا أعرف الآن أنهم لا يفترون أبداً على الأتقياء السعوديين تحت خيمة الرولة ، ولا يهزؤون من إيمانهم . ولقد كان عليَّ ، غالباً ، أن أعدل سير خطبي الجدلية ، بعد أن شعرت أنها تصدم مستمعيّ . وإذا كان من المؤكد أنَّ الإرغام على الزهد ، والإجبار على الصلاة ، ومنع الدخان خاصة وهي الأمور التي فرضها بشدة متحمسو جزيرة العرب ، ستضايق القبائل البدوية ، وهي في الحقيقة ليست متدينة ، إلّا أنني كنت أحس أن رجالها قلقون من دعوة عبد الوهاب ، راغبون في معرفة المزيد عن دعوته ، ومحترمون إيمانه الذي تؤكده القبائل المجاورة لهم . ذلك أنهم ، من دون ريب ، ومن أعماق شقائهم الطبيعي ، قريبون من الله .

أنت ترى ، أنه ليس من السهل ، يا فتح الله ، إعداد معركة بين الإخوة . فجماعتنا تتبعني بالتأكيد : الزعماء لأنني وعدتهم بذهب نابليون ، واحتلال دمشق ، والجنود لأنهم يفهمون

بصعوبة ما أشرحه لهم . ثم إنَّ هناك إدارة سعود الثقيلة ، التي تحكم جزيرة العرب ، مثل بروسيا مكبرة خمسين مرة : كل هذه الشرطة ، كل هذه الأوامر ، هذا التجنيد للجنود من أجل حروب بعيدة ، هذا التحكيم بين القبائل المتعادية ... رجال الصحراء يحذرونه ، وهم الغيورون على تجوالهم تحت الشمس ، وعلى غزواتهم العنيفة ، وعلى قرون استقلالهم . إنّهم حائرون وسيحارون دائماً ، في اختيارهم بين بغض الشرطة ، واستعادة القوة العربية .

ينتظرون مني أن أوقف سعوداً ، وأن أجلب لهم الإمبراطور ، فكيف أخيّب أملهم ، ولو أنني أحس أحياناً ، بأنني أخونهم ؟ اذهب ، يا فتح الله ، أيّها المحارب الحر ، والأكثر بداوة مني ، احرس النبك ، واحم منزلي . أُنقذ (كاتينكو) على الأقل ، هذا المخلوق الصغير الثمين الذي يتبع والده كثيراً من الأوهام .

قبل أيام ، وبضع ساعات ، من معركة حاسمة ، وبينما يعلن عنها في كل مكان ، وبينما اعتمد على فصاحة ابن الشعلان لتأكيد

شجاعة الناس ، غدا هذا الأمير أكثر انغلاقاً على ذاته ، وأكثر غياباً . ضباطه يطيعونني ، ولقد عنفهم ظاهرياً ، إلّا أنه نفسه ، قليلاً ما يحضر مجالسنا ، كما لو أنه يريد أن يطبع هذه المعركة التي أردتها أنا ، بطابعي ، فإمّا أن أربحها أنا ، أو أخسرها أنا . كان بعد أن انسحب في الغالب لدى نسائه ، يخرج أحياناً ليشرح لأولاده تقاليد معركة خاصة : كما لو أنه يريد أن يوقف سعوداً متحدياً إيّاه ببعض الأبطال .

.

كان يمضي ، ما تبقى من الوقت ، في مراقبة إعداد ما يسميه (العطفة) . فمنذ يومين وعبيده يعملون في تزيين ملمّع لهودج امرأة . إنه يخدمنا ، بعد حزمه على ناقة ، شعاراً ، بوقاً ، صرخةَ حرب . باختصار يخدمنا ككل هذه الأمور المصطنعة التي تدفع الشباب إلى الموت بسرور . كل شرف القبيلة يتركز في هذه الراية الغريبة ، المغطاة بالريش والحرير ، والمرايا ، والنقود . لقد أفهموني أنه سيكون من غير اللائق متابعة القتال إذا ما سقطت (العطفة) في أيدي العدو .

وتكمل مجموع هذه الأمور فتاة جميلة جالسة على حشايا السرج ، يوعد بها أشجع الأبطال ، ويشار إليها ضحية شفيعة لهجوم العدو . بإمكانها ، حسبما توحي ، الإشادةُ بالشجاعة ، وشتم الخصم ، والغناء ، والتأوه أو البكاء . إنَّ اختيار بطلة تسند إليها مثل هذه التقاليد الدقيقة يشغل أميرنا منذ أيام عديدة . فهذه الفتاة ليست نبيلة بالقدر الكافي ، وصوت الأخرى مبحوح ، والثالثة يعوزها الجمال ، ولا ينفك يصرف الأمهات اللائي يأتين جماعاتٍ جماعات ، عارضاتٍ ذريتهن للقيام بهذه المهمة .

لاسكاريس ، مذكرات (حزيران ١٨١٢)

ها هم أولاء السعوديون يتراجعون في مساء اليوم الثالث، مع أنَّ الهجمة الأخيرة لفرساني من الفدّانيين لم تغير أيَّ شيء في الموقف العام . فكالمعتاد ، وكما كان الأمر في التمرين ، تراجع خط العدو الغامض بضع مئات من الأمتار ، لكي يستعيد من جديد

وضعه . وانتظرت الهجوم المعاكس ، هجوم جمال السباق التي تنحدر بسرعة نحو رماة البنادق لدينا ، كما فعلوا في هذا الصباح ، والبارحة ، وأول البارحة . إلّا أنّ صرخات الحرب ، هذا المساء ، قد سكتت : تراجعت الجمال في نظام ممتاز نحو الجنوب ، بينما خمّنا أنّ جماعات ، في البعيد ، من النساء والعبيد كانت عاكفة على تقويض الخيام ، ورفع المخيم الواسع .

لم يغير الفدّانيون من الأمر شيئاً ، ولا سيّافة بني حسن في جناحي الأيسر ، ولا رماة بني ضفير المستندين إلى جدران من الحجر ، ولا تحركات الرمال ، ولا هياكل الجمال ، فوق جثث المقاتلين . كل ذلك لم يغير من الموقف شيئاً . أمّا الذي فعل فعله فهو مقاومة الروليين التي لم تكل ولم تمل ، المربعات التي علمتهم كيف يشكلونها ، الرماح المنصوبة التي مات الكثيرون من الشجعان عليها ، وهذا العناد ، وهذا الصمود من دون اضطراب أو اهتزاز ... هذه هي الأمور التي نالت من حماسة العدو وكسرت حدة شجاعته .

انصرفوا تعبين أكثر منهم مهزومين . سنحتفظ في هذا الصيف بمراعي الشمال ، وبإمكان بورجوازيي دمشق أن يناموا في أمان وسلام .

أردت ، بينما كان آلاف من المقاتلين الشعث يهللون لي ، أن أنعزل بنفسي ، أن أفرّ من جميع هؤلاء الزعماء الذين أتوا يعانقونني والعرق يسيل منهم . انعزلت فوق هضبة ، قريبة من النهر ، حيث غدت صيحات النصر صمّاء. النصر ، نصر جميل كلاسيكي ، من دون ريب ، يتوّج معركة ديبلوماسية وعسكرية كاملة ومعصومة عن الخطأ : ألم أنفذ بدقة كل ما كان ينبغي عمله للنجاح ؟ ألم أفعل ذلك كآلة ؟ آلة ركبها دروفيتي ؟.

أصبح باستطاعتي اليوم نقل كل قبيلة بدوية ، تقسيمها ، إعادة جمعها ، تذويبها مع الأخريات ، جمع عشرة آلاف جمل هنا ، وإرسال عشرة آلاف فارس هناك . وغدا بإمكاني إقناع أو إجبار أيّ مجلس في جميع أنحاء سوريّا . فهل ينبغي أن أكون فخوراً ؟ فبفضل هذه القوة الواسطة أستطيع إقامة الحرية ،

والتحالف مع قبائل الجنوب التي تتفرق عند الأفق تحت راياتها الخضر ، وربما تحقيق السلام ، والرخاء والرفاهية .

أنا لم أعمل إلّا في مجال الحرب والموت . وباسم من يا إلهي ؟ وهكذا وجدت نفسي ، في عشية هذا النصر الحاسم إلى حدٍ ما ، بعيداً عن الإستسلام لنشوة النجاح ، من دون هدف ، ومن دون فخار ، خجولاً حتى من أنني فهمت ، بأخرة من الوقت ، أنَّ إعادة السلام إلى هذه الصحراء فيها أيضاً خيانة هؤلاء الرجال ، هؤلاء الرجال الخشنين الأصفياء الذين لم ينتبهوا لشراكي ، والفقراء الذين يحتقرون الذهب ، ويفضلون عليه استقلالهم ، وحريتهم .

فلنخبر الامبراطور الآن . هذا ما يجب فعله : إنَّ صنعتي جاسوساً تأمرني بذلك ، ولكنني لا أملك من الشجاعة ما أستطيع معه التضحية بمجدي من أجل هذه الشكوك التي توثقني وتشدني . لقد نجحتُ ، هذا صحيح : وبإمكان الجيش العظيم أن يمر . وسيأتي ملك نابولي ، وليّ العهد ، ليقفز على آثاري . إنَّ

جندياً مرتزقاً محظوظاً ، لا يمكن أن يفتح ، بمناوشة سريعة ضد الترك ، ولاية ، كما غنم دوقيات أوروبا الوسطى . لأُسَمِّ واحداً منهم (لوفيفر) لم لا ؟ قد يسمى ، باشا حمص ، بالإضافة إلى لقبه السابق ، دوق ذانترينغ ؟.

سيقتلون كثيراً ، كما فعلوا في فلسطين قبل عشرة أعوام ، وسينجحون، بعد كل شيء، في الوصول إلى فارس والهند. عند ذاك سيعود أصحابي من البدو بعد أن كوفئوا ببعض قطع من الذهب ، وببعض قطع من الأسلحة ، سيعودون إلى رمالهم ، ومنازعاتهم . لقد مسّ التاريخ تدمر ، من جديد ، وستنام السهوب المحرقة من جديد ، كما حدث ذلك بعد موت زنوبيا ، ستنام ، لتجد خدرها الناعم وأحلامها ، بعد أن هزتها الأحداث لبعض الوقت . .

كان لا بدٌّ من وجود حلم لإغناء نوم الصحراء هذا ، إلّا أنه ليس الحلم الذي يغذي في رئاسات أركان الحرب الأوروبية . حلم يتردد فيه وقع حوافر خيل جامحات ، ورنين قراع سيوف ، إلّا

أنها ليست السيوف الفرنسية ، ولا الخيول الأوروبية ، التي يرتجف ليل الرمال منها رعباً . إنه ركض النوق السريعة الذلولات فوق الكثبان ، وسيف عمر الذي قاد كتائب النبي : ركض وسيف ناما منذ وقت طويل .

الليل يهبط عذباً أزرق اللون . ونار السعوديين لن تشعل الأفق بعد الآن . أما عندنا خلف النهر فسيحتفل العسس بالنصر في جلبة خمسة آلاف خيمة . جماعات ترقص على أنغام حارة ، وجمر من النار يقذف إلى السماء باقات من الشرر ، ونساء منهمكات حول السفافيد يشوين الماعز والخرفان .

وأتى طفل خجول ، يلتحق بي ، فوق صخرتي . إنه أحد أولاد ابن الشعلان ، الذي أحبه كثيراً ، وأغني له دائماً أغنية بلغة مدينة نيس . كان يفتش عني : فأبوه ، والزعماء ، ينتظرونني تحت الخيمة الكبرى ، لإعداد المعركة القادمة ، ورفع أمجاد الرولة إلى الأعلى أكثر فأكثر .

رسالة لسير جوزيف بانكس ، الجمعية الإفريقية ، لندن

من ج. ل. بوركهارت ، دمشق (مقتطفات حزيران ١٨١٢)

المعلوماتُ التي تلقيناها من الصحراء ، وإن كانت غير دقيقة ، تحمل المرء على التفكير بأن أحداثاً كبيرة قد جرت في سوريّا إبّان الأشهر الماضية . أرغب في تقديم تقرير عنها في الحال ، واعداً بإكماله ، في أسرع وقت ، بمعلومات أوثق .

عاشت دمشق ، شأنها في ذلك شأن المدن السورية الأخرى ، منذ شهر آذار ، مذعورة من هجوم سعودي . همهمات ترددت ، مضخمة من قبل العملاء الوهابيين الكثيرين بين أبناء الشعب البسيط : لقد قرر سعود متابعة تحرير المدن المقدسة من نير الأتراك إنه يرجو ، بعد كربلاء ، وبعد مكة والمدينة ، تطهير دمشق من وثنيتهم ، حسبما يقول . وستتبع القدس هذه المدينة .

جيش عملاق مجنّد في الجزيرة العربية في طريقه إلى سوريّا . الحويطات ، وشمر ، وحرب ، وهي قبائل محاربة مشهورة تشكل هيكله ، مدعومة بوحدات من عمان والحجاز . ويقود عبد الله ، ابن الملك سعود ، هذا الجيش يؤازره قائد يدعى (حرك) ، وآخر اسمه (أبو نقطه) ، شيخ عسير . التقديرات الأولية المجنونة تتراكض في الأسواق : يتحدثون هنا عن خمسين أو مائة أو مائتي ألف من الرجال ...

ويقوم الأتراك ، المتحصنون في ثكناتهم بتمارين تستحق الرثاء ، توقعاً لمعارك ستأتي ، إلّا أن المشاة ، المتأخرة رواتبهم أربعة أشهر يفضلون الفرار من أماكِنهم على الدفاع عن الأسوار . أمّا الخيّالة ، الذين يعاملون معاملة أفضل ، فإنهم يقومون بطلعات حذرة على طريق مزيريب ، دون أن يعثروا فيها إلّا على كشافة تائهين تعلق مشانقهم هنا وهناك .

وزيادة في القلق ، يحكى أن بدو سوريّا تجمّعوا بدورهم ، في مكان ما في الشمال ، إنَّ تحالفاً مع أبناء عمهم السعوديين

يبدو لا مفر منه : وبذلك يمكن أن تسقط حماه وحلب قبل دمشق .

ولم يجتح القلق ، مع ذلك ، جميع القلوب ، فرعب البازار يجيبه هدوء المساجد . أنت تعلم أنني أخالط هنا رجال الدين : لقد ظهروا لي هادئين جداً ، واثقين من رحمة الله وعدالة سعود ، راغبين في الحوار حول العبادات والعقائد مع العلماء الوهابيين . أنا نفسي ، وأعترف بذلك ، أشعر بأنني شديد الفضول للقاء هؤلاء الرجال ، ولو كان ذلك في مدينة خربة ، ثم معرفة مذهب عبد الوهاب منهم .

ومع ذلك تمت معجزة انقذت بواسطتها دمشق وسوريّا . إذ بينما كان القلق على أشده ، حوالي منتصف شهر حزيران ، علم في القصر أنَّ الجيش السعودي يتراجع بانتظام نحو الجنوب . أشير إليه قرب القريتين ، ولمح قريباً من حوران ، ثم اختفى بعد ذلك في رمال جزيرة العرب .

وأذاع الأتراك ، في الحال ، نشرةَ انتصار لم يصدقها أحد .

ويبدو التفسير الوحيد المعطى اليوم لهذا التراجع غير المأمول ، بعيداً عن التصديق . ذلك أنهم يزعمون أنَّ الرولة وحلفاءها ، المرهقين بادعاءات سعود الذي يود إخضاعهم لدفع الضريبة ، قد سدوا عليه الطريق قريباً من حماه . وبعد معركة غامضة ، تخلّى السعوديون القلقون من هذه العقبة غير المتوقعة ، عن دمشق ، في هذه السنة على الأقل .

بدت لي هذه الفرضية ، كما قلت بعيدة الإحتمال . فالرولة لا يستطيعون ، ولو دعموا بقبائل أخرى ، زج فرق مقاتلة إلى الحد الذي يتمكنون فيه من إرجاع جيش السعوديين النظامي . ما المنافع التي يجنونها من هذا العمل ، هم الذين كانوا يحاولون دائماً مهاجمة الأتراك ؟ الواقع أنهم يتحدثون عن عملاء أجانب موجودون قرب هذه القبيلة لتعليمها وقيادتها . أعليَّ أن أرى فيها يد بونابرت ؟.

لاسكاريس ، (مذكرات ، تموز ١٨١٢)

انقطع الهرج والمرج الكبيران ، وصخب المحاريين قد تبدد

كما لو أن الرمل قد ابتلعه . وهكذا ما إن وزعت الغنائم ، وفرقت الأسلاب ، وما إن طبعت الدفعة الجديدة على أكفال الجمال المستولى عليها ، حتى أخذت القبائل ، الواحدة بعد الأخرى تتفرق . ينصرف المدعوون في الفجر بعد وليمة ، حضر الزعماء عند ابن الشعلان ، لتناول غليون أخير ، واحتساء قهوة نهائية . ولقد عولجت قضايا الساعة بسرعة ، وكذلك شؤون الأسرة ، ومشاريع الزواج . وعانق الناس بعضهم بعضاً مرات عديدة ، ثم اندفعوا نحو الأفق الملتمع ناشرين راياتهم .

كان الضفيريون يريدون الإندفاع باتجاه كربلاء ، طالبين وعوداً بالدعم ضد قبيلة المونتفك . وانسحبت أجزاء من قبيلة فدّان جنوبياً ، باتجاه الأردن . وكان بنو حسن يعدون غزوات ضد الموالي حول حلب : لقد استعادت كل جماعة حريتها ، وحياتها بلا تبصر . وكانت رائحة نتنة لا تحتمل ترتفع من المخيم المهجور . كانت أقذار خمسة آلاف خيمة تفسد تحت أشعة الشمس ، التي كانت تشوي جثث الخيول المنتفخة تحت الذباب . أمّا ماء الآبار فقد كانت روائحه مقلقة . كان الواجب يقتضي أن يرحل

الجميع ، وأن تتفرق الأسر ، ويتحرر التابعون الكبار وجماعاتهم ، للتفتيش في مكان آخر ، عن العشب الطريّ ، والماء الرائق ، والهواء الصافي .

واستذكر ابن الشعلان ، في مجلسه الأخير المسألة السعودية أمام مساعديه الرئيسيين ، وإخوته وأبنائه ، وأمام مستشاريه المتقدمين في العمر ، وأمام فتح الله ، وأمامي أنا .

بدأ بموازنة نصرنا القريب . كان معتاداً على فترات التوازن الطويلة ، لذلك هجر ، بهذه المناسبة المغالاة لصالح فصاحة أكثر دقة وحسماً ، فصاحة رهيفة قاطعة ، تريد أن تقنع العقول من دون أن تدفىء القلوب . كانت الجمل القصيرة تتساقط الواحدة بعد الأخرى ، مثل أمواج لا تتعب في ضربها ساحلاً رملياً .

((كان الإنتصار جميلاً ، أظهرت الرولة مكانتها (استهلال مُطَمْئِنْ : الأمير مسرور) ، مكانة كوفئت بغنيمة ممتازة ، وزعت بالعدل (ليتوقف الذين يشعرون بأنهم مغبونون عن الجموح ، ولينتظروا المعركة القادمة) ، مكانة لم تضعفها بعض

المناورات الدخيلة كما كنا نخشى (انتبهوا إلى هؤلاء الذين يسخرون من تشكيل المربعات الذي أدخله لاسكاريس) .

الرولة وهم فئة النصر الأهم (طبعاً) قد ساندهم بنشاط إخوتهم الضفيريون والفدّانيون وبنو حسن . هذا التحالف ليس وقتيّاً عارضاً ، بل سيستمر ، وهو نافع للرولة (هذا موجه للمحافظين الذين يشمئزون من تحالفات نادرة) ، مما لا يمنع زعماءنا من الدفاع إذا ما أخلّ حلفاؤنا بتعهداتهم : سيعرف الرولة كيف يحمون آبارهم ومراعيهم (السلام ليس للغد) .

من المناسب إذاً ، فحص الطبيعة الحقيقية لإنتصاراتنا بدقة . إنَّ السعوديين قد رحلوا كما تقول قواتنا ، بانتظام ، وجيشهم لم يمسَّ بأذى كبير ، وكبرياؤهم تكاد تكون مهانة . سيعودون في العام القادم ، ينبغي ألّا نشك في ذلك . أينبغي أن نحمل مرة ثانية ، في كل صيف ، ننهك قوانا من جديد في معركة أخوية ؟ من يستفيد من هذا الخصام ؟ الأتراك ، بالطبع ، الذين ستبقى مدنهم هادئة ما دمنا نقيم العقبات في وجه سعود . فما الحل إذاً .

لقد قاتل الرولة من أجل الباشا (همهمات) ، لقد مات شجعاننا من أجل دمشق (زمجرات) .)) .

وسكت ابن الشعلان ، وأدار عينيه الصغيرتين القاسيتين في المجلس . أجابه قدامى المحاربين أولاً . أشادوا ، بادىء ذي بدء ، بقوة الأمير وحنكته ، وتابعوا مثمنين وزن الأعراف ، ووزن التاريخ . إنَّ هذه التغييرات قد أقلقتهم ، وهذه التحركات بعيداً عن المراعي المحفوظة ، وهذه الوجوه الجديدة في المجلس ، وهذه المعارك التي لا تنقطع من أجل أهداف غير مفهومة قد أتعبت الرولة . فالذي يهم ، كما قالوا ، القطعان والغنائم : ألا يمكن الإكتفاء بتربية الجمال ، وفرض الأتاوات على القوافل ،كما كان الأمر في الماضي ؟.

وأجاب العسكريون الذين كانوا أكثر شباباً وحماسةً ، والذين شجعتهم المدائح التي تَلَفّظَ بها الأمير ، بأن القطعان كانت هنا لتشكل فرسانهم ، وأن القوافل لا تمر البتة ، والشعراء بحاجة إلى أعمال سلاح جديد لتجديد شباب ملاحمهم . لقد وجدوا

أنفسهم سادة الصحراء ، فيجب أن يفيدوا من هذا الوضع ، باحتلال المدن ، وطرد الأتراك منها نهائياً .

بدأت بذكر الأسوار والمعاقل ، وشرح ما معنى الحصار والتذكير بأننا لا نملك المدفعية ، عندما بدأ فتح الله خطابه . لقد التحق بالمخيم منذ عدة أيام ، وهنأه الأمير علناً على المهمات الهامة التي حققها حول القريتين . ولقد انتقدوا إبّان فرحهم بالنصر ، غيابه عن المعركة . لذلك فرح الجميع لعدم اقتسامه الغنيمة معهم . إنهم يفكرون بأنه كان في مهمة سريّة ، وهو يجيب بنعم ، فلقد هاجم موكباً تركيّاً صادفه، وغنم منه مغانم قدّم بعضها للأمير .

كانوا يستمعون ، بفضول ، إلى حديث فتح الله . كان كل واحد منهم يعرف فصاحته المجتمسة التي تعجب هؤلاء المقاتلين ، وصوته الرنان الذي يثير حماستهم ، والقصائد الثمينة التي كان ينظمها في المعجبات به ، إلّا أنهم لم يستمعوا إليه مرة واحدة يجادل في مجلس الأمير . كان بعضهم ، من الذين أساءوا

الحكم على تحفظه ، قد اعتقدوا أنه غير أهل للتغلب على حجج السياسة القبلية الدقيقة .

وهكذا بدأ كلامه بصوت متواضع ، متأثراً ، كما أكد ، لأنه يتحدث وسط هذا الجمع الحاشد من العقلاء والشجعان . إلّا أن صوته اكتسب الفخامة بسرعة ، وأخذت جمله ترن في تأكيد هادىء ، والحجج الواضحة تتفجر من بين شفتيه بقوة . إنه قد أسكت في الوقت الحاضر ، جميع الوشوشات ، بعد أن ركز عينيه على أصحابها .

((رجال الرولة لا يستطيعون وحدهم أن يحاصروا المدن التي يحتلها الأتراك ، هذا صحيح ، إلّا أنهم ، وقد بلغوا ذروة قوتهم ، لا يستطيعون البتة ، أن يعودوا إلى رعي الجمال ، ونسيان انتصاراتهم الكبيرة ، وقصر جهودهم على غزوات تافهة . لقد أرجعنا السعوديين ، وكان علينا أن نفعل ذلك ، لأنه لا ينبغي أن تفرض على قبيلة الرولة أيّة وصاية . إلّا أنَّ من العقل ، في ذلك الوقت الذي حددنا فيه ، بالدم سلطة سعود ، أن نعترف بعظمة هذا الملك ، وأن نخضع لها ، وأن نذوب فيها .

إنَّ ابن الشعلان ، عندما يحمل إخلاص القبائل السورية ، سيؤكد لنفسه مكاناً مشرفاً في مجالس سعود . إنه سيفاوض من أجل استقلال ذاتي ، وسيحصل على الدعم اللازم ضد الأتراك . عند ذاك سنفكر في محاصرة دمشق . دفاعاتها قوية بالتأكيد ، إلّا أنّنا ، بمساعدة من الملك ، وعن طريق الكويت ، نستطيع شراء المدافع من الإنكليز)) .

ربما كان بإمكان فتح الله ، وهو ابن قبيلة الرولة المتبنى ، أن يؤكد أكثر منهم على ما يقربهم من القبائل السعودية : الأصل نفسه ، والأشعار التي تنشد نفسها ، والرغبة الشديدة ذاتها للوحدة . كان يلزم إخوانه إذاً بالتفاوض مع سعود . كان يعرض عليهم أن يحاول بنفسه تجربة الرحلة الخطرة نحو الدرعية ، عاصمة آل سعود البعيدة ، الغارقة وسط بحار الرمال . وهناك ، عندما يصل باذن الله ، سيبين لهذا العاهل عظمة الرولة ، وحبهم له ، ورغبتهم في السلام .

كانوا يتشربون كلماته ، وكان الشيوخ ، والأمراء والرؤساء المأخوذين بسحر بلاغة الشاب ، قد استسلموا لحميا الحلم

الأخوي القديم : حلم توحيد العرب من جديد . لقد تناسوا هجمات العدو الشرسة ، وابتزازاته القاسية ، والضحايا التي أنزلها فيهم . لقد تناسوا قسوة شرطة حكومته ، وواجبات متعصبيه المتزمتة الصارمة . فليدفعوا الضرائب ، وليوفد منهم المجندون ، وليصلوا لله خمس مرات في اليوم ، وليخفوا غلايينهم ومجوهرات نسائهم ، فكل هذا غير مهم . إنّما المهم أن تمحى إلى الأبد المنافسة التي تفقد الإرادة ، والحقد الذي يمحو العقل ، فالتحالف الكبير ، التحالف المقدس ، يبدو لهم الطريق الوحيد . لقد ظهر لهم المسيحي ، فتح الله ، في صورة الملاك جبريل الذي تتحدث عنه السنّة المشرفة .

وارتجفت برداً تحت الخيمة الدافئة ، وشعرتُ بأن موجات من الخطر تدور في الجو وتمسني محاصرة إيّايَ . ذلك أنَّ فتح الله وهو يتبنى الحلف مع سعود قد هدد مهمتي بقوة ، والأسوأ من ذلك ، قد هددني أنا شخصيّاً . فالرولة عندما ينضمون للقوة العربية ، سيحرقون بالتأكيد تمائمهم ، ويدمرون أوثانهم ، وينبذون مرشدهم الغريب : لقد فقدت في لحظة واحدة تأثيراً كنت قد

حصلت عليه بصبر ، وهأنذا أجد نفسي عاجزاً تماماً عن فتح الطريق أمام الفرنسيين . إن جهودي في سنتين قد استحالت إلى سراب ، أو أنها تحولت بحنق عن غاياتها : لقد فكرت في العمل خدمة للامبراطور ، إلّا أنَّ سعوداً سيرث بمساعيّ ، سوريّا الموحدة . وهناك ما هو أكثر من هذا سوءاً . فلقد شكوتُ دائماً ، أمام هذا المجلس ، من التهديد السعودي ، وكنت قد احتججت ضد تعصب الوهابيين ، وقدت جماعة الرولة إلى معركة قاسية ضد جيوشهم . والحقُّ أنني فعلت ذلك آسفاً ، ومعجباً بسعود الذي لم أكن لأكرهه ، وقد عرفت الكثير من لحظات التردد والقلق ، وكثيراً ما لعنتُ مشاريع الامبراطور التي لم أكن لأجد لها مبرراً . كنت قد صنفت بوضوح عدواً ، ومسؤولاً عن الأخطاء الماضية ، وعن العقبة التي وضعتها في وجه الوحدة المرتقبة بشوق . وبما أنني كنت قليل الثقة بمثابرة البدو ، فقد رأيت أنني لست ، في أعماق نفسي ، بعيداً عن مشاركتهم حماستهم . أخذت أفهم ، في الوقت الحاضر ، لا مبالاة ابن الشعلان الحذرة تجاه الإعدادات للمعركة . إنه لم يزج نفسه كليّاً في هذا الأمر

الذي قدته وحيداً ، وأن باستطاعتي الدفاع عن براءته أمام سعود .
ألم يُعْنَ بإبعاد فتح الله يوم المعركة مهيئاً فيه ، من ثم محامياً ، ذكياً وأميناً لم يسفك بيديه نقطة دم سعودية . ربما وجد فتح الله نفسه ، مع ذلك ، في قلب هذه المؤامرة : فبين التلميذ المندفع ، والأمير القاسي ، من الذي خانني إذاً ؟ ومن الذي أراد ضياعي ؟ لا هذا ولا ذاك بالطبع : فلقد أعطياني مائة دليل على تقديرهما وصداقتهما لي ، إلّا أنني كنت قد وعدتهما طويلاً بوصول الفرنسيين ، ولم ينفذ (دروفيتي) وعده . لقد أتعبهما الانتظار ، وسعود فتنهما ، وأنا غدوت مُتْعِباً مُزْعِجاً .

كانوا ينظرون إليّ جميعاً في الوقت الحاضر ، هؤلاء الذين اتسموا بالصداقة الخالدة ، وهؤلاء الذين تآمروا عليّ ، وهؤلاء الذين تبعوني فرحين لمهاجمة دمشق ، وهؤلاء الذين كانوا يريدون حمل أذنيَّ المدماتين إلى سعود . فهل أوافق على أن أطرد كخادم ؟ وهل أعرّض نفسي للتضحية على مذبح الوحدة العربية : أبداً . يجب عليَّ أن أتغلب من جديد على هذا المجلس ، سأسحره مرة

أخرى ، وسأناضل فيه ، وليكن لآخر مرة ... وبعدها ، من دون ريب ، الرحيل .

رددتُ على فتح الله في جمل قاطعة ، هنأته لأنه أحسن التعبير عن فكر معلمه ، مشيراً إلى الإحترام الذي أكنه لسعود ، وإلى كرهي للأتراك ، وولائي للرولة . هذا الولاء الراسخ يضطرني إلى الوقوف في وجه التسرع المتلاحق. إنَّ فرنسا ظلت صامتة، إلّا أن الحملات العسكرية لا تعد في الساحات العامة . إنما تنضج في سرية المجالس . ولنمض من ثم إلى العمل . لقد استدعيتُ إلى دمشق لمقابلة عميل الامبراطور ، سألقاه سريعاً ، مغادراً ، منذ الغد ، مخيم أصدقائي . سيعلمونني ، من دون ريب ، نبأ الإنزال . سيكون هناك تحركات كبرى . والرولة ، المتحالفة مع نابليون ، والتي يقودها صديقه ، ستشترك في هذه البلبلة المتوقعة . إنهم سيفاوضون سعوداً كما يشاؤون ، وكما ينبغي ، إنما أكثر غنى بالذهب والسلاح ، وموثوق بهم ، ولكي يحصلوا لأميرهم على مكان الشرف الذي يستحقه في مجلس سعود ، في الدرعية .

تأكيدي أثّر ، من دون ريب ، في بعض الموجودين . كان الزعماء يستمعون إليَّ ، مقتنعين أو غير مقتنعين ، مسحورين دائماً بالفصاحة التي تعلمتها لأخدمهم بها . كنتُ على كل حال ، قد هدأت من ثورة البغضاء التي جعلتني أخاف ما هو أسوأ ، ممن هم أكثر تحمساً . ولقد أرضى الإعلان عن رحيلي القريب أعدائي ، وشعر الذين كانوا قد أحبوني بالراحة ، لأنهم لم يطردوني . أمَّا ابن الشعلان وفتح الله ، فقد أكدا ، مثل الآخرين ، على ضرورة سفري ، ونهضا معانقين لي بحرارة .

واتفق على أن يقوم ابن الشعلان ، بعد ترك شعبه في الجوف في فصل الخريف ، برحلته الخطرة إلى الدرعية .

فتح الله سيرافقه . أمَّا بالنسبة لي ، وبعد أن غلبني أصدقائي عشية انتصاري ، فقد كان عليَّ أن أخترق حجب الصمت الفرنسي الذي لا يطاق . سأذهب مطالباً بالأخبار ، مترنحاً لتركهم إيّايَّ ، إلّا أنني لا زلت أقف على ركبتي .

سأرى روسو في حلب ، كورانسيه في بغداد ، كاتافاغو

في صيدا ، أو هذا العميل السري الذي يتعامل معه (دروفيتي) في دمشق . سأذهب إلى القسطنطينية ، إلى الإسكندرية ، إلى باريس إذا ما تطلب الأمر ، لكنني سأنتزع البرقية التي حلمتُ بها دائماً : (تحت إمرة الأميرال « دوكريس » شخصيّاً ، غادر أسطول طولون هذا الميناء رافعاً أشرعة سفنه باتجاه قبرص ..) .

الفصل الرابع

ملكة دمشق

(١٨١٢ـ١٨١٣)

(على بُعد عدة أميـال من بيروت تقـع
النبك ، مدينة صغيرة يقيم فيها من طلبت إليّ
« لادي ستانهوب » إيجاده . إنـه لاسكـاريس ،
وحكايته شاذة غريبة .) .

مايرون ،
رحلات لادي ستانهوب (لندن ١٨٤٦)

لاسكاريس ، (مذكرات أيلول ١٨١٢)

((أنتظرك منذ مدة طويلة ، أيها السيد الشوفاليه .)) في الغرفة المفروشة بالساتان الزهري والأخضر ، حملتْ النسمةُ صوتَه الهادىء إليَّ ، كما لو أن الشيخ كان يخاف ، إذا ما رفع النغمة ، أن يهدد الترتيب الهش للزجاجيات والصيني والبسكويت التي كانت تملأ الغرفة ، وتستولي على المنضدة ذات الأرجل المبرومة ، والصُوان المنفوخ المزيّن بالعاج ، وحتى يصل إلى المدفأة ذات

الحدود المائلة ... في هذا المكان كان (شابوسو) ، الدكتور (شابوسو) ، يشعل النار منذ شهر أيلول .

تعدل شمس دمشق العالية العنيفة من قوتها خلال سحابة من قماش الكريب ، ثم تموت أخيراً ، محتضرة ، على زجاج مدينة البندقية ، مشعلة في حدودها المائلة ألف نار لطيفة ، مثل تلك التي تلتمع في فرساي ، وهو الإلتماع الوحيد الذي يهدىء الطبيب الشيخ .

ينظر إليَّ مبتسماً ، شبحُ جيل آخر ، ومن خط طول آخر أيضاً ، تمسكه إرادة الإستمرار حتى النهاية ، في المشروع الذي حدده لنفسه منذ أربعين عاماً : خلقِ شكلِ حياةٍ ما ، والتمسكِ به في ظل المسجد الكبير ، شكلِ الحياة الذي اعتمده لمرة واحدة متمشيّاً مع طراز باريس في ظل الملك لويس الرابع عشر .

أزعجتُهُ وهو ينهض من المكان الغارق فيه ، كان يلبس عباءة مبطنة بالفرو ، ويعتمر طاقية من شعر القندس تسمح لبعض خصلٍ من شعره الأصفر بأن تفر منها . الشعر المستعار

يرتديه ، فيما بعد ، حوالي الظهر . في هذه الساعة الحارة كان (شابوسو) ينضح بالمسك ، ويزيل تجعيد سرواله القادم من نانكين . يرتدي معطفاً آخر مذهباً ، ويمسك بيده عصا بكرة مفصصة ويخرج من النور ، ليمشي في أزقة دمشق . يمشي تحت القناطر ، مزيناً بالمسحوق كوكيل مطران ، راشقاً هنا وهناك ضربات عصا ماكرة ، ليراها ويسمعها الأهلون باستنكار . يتبعه ثلاثة عبيد ، يحملون المراهم والحقن . هكذا كان الدكتور (شابوسو) منذ عام ١٧٧٠ ، يمشي غير مبالٍ بالتاريخ ، ولا بعبقرية الشعوب ولا بالحرارة ، يخرج ، في القيلولة ليجرع الإنكشارية الدواء ، ويقدم لهم الحقن الشرجية .

((أنا بانتظارك منذ مدة طويلة .)) لقد فتشتُ في كل مكان ، ومنذ شهرين . من اللاذقية حتى يافا ، كنت أسأل رجال المصارف ، والتجار ، والقناصل ، والرهبان : أهناك رسالة لي من الإسكندرية ؟ الأخبار التي تلقيتموها من فرنسا ، ماذا تعرفون عن حركات الجيش الامبراطوري ؟.

لم أجنِ سوى سخرية الحجاب والبوابين ، شهود فوضى حظي ، وكثيراً من الآراء الصديقـــة حول سوء سيرة مدام لاسكاريس : لا شيءَ جديداً على وجه الإجمال . وقد يصل إليَّ أحياناً بقية من أمل ، أهذا الجيشُ الروسي الكامن في جورجيا ؟ أهو طلائع هجوم مشترك مع فرنسا ضد الباب العالي ؟ وهل تعلن هذه الموقعة البحرية أمام « فاما غوستا » عن وصول أسطول طولون ؟ ولكن لا ، لا شيء يجري في الحقيقة . ومن النيل حتى القوقاز يبقى كل شيء جامداً لا حراك فيه . يتحدثون ، مع ذلك ، عن حرب فرنسية ـــ روسية ، فالجيشُ العظيم قد اجتازَ نهر « النيمن » كما يزعمون . حادث معارض جداً لكل ما كان دروفيتي قد وعد به ، وهو مخالف كل المخالفة لمشاريع نابليون الشرقية ، بحيث أنني كنت أرفض تصديقه . والزمن يمضي ، والرولة يَنْفُذُ صبرهم وأنا من دون أخبار : فلا أسطول ولا رسالة ، بل هناك الصمت .

((لقد انتظرتك طويلاً . وهذه الرسالة وصلتني في كانون

الثاني . وها نحن أولاء في أيلول . لقد فقدنا ، إلى حين ، أثرك ، الكولونيل دروفيتي ، وخادمُك .)) .

هذه المفارقة التاريخية العابرة المنسوبة إلى دروفيتي لم تدخل عقلي . فأنا عندما تلقيتُ دعوته أرجأت الإجابة عليها ، لأنني لم أحس نحوها بالحماسة أو بالأسف . فمن المعروف ، في دمشق ، أنه بسبب ما يقدم من أدوية ، وما يقوم به من فصود ، قد كسب جميع الأشخاص المهمّين ، وأنّ أمراء البدو يستشيرونه ، في غالب الأحيان ، من أعماق صحرائهم . ورسائله ، في ظل الحمايات العديدة التي يتمتع بها ، تحرث الولاية حتى العراق ، لتقديم الطبابة والوصفات ، وهو يتجر بوجاهته ، ويبيع لرؤساء القوافل جوازات مرور مكفولة لدى أكثر القبائل طمعاً : تجارة تسيء لمثل هذا السيد النبيل ولكن ماذا في الأمر ؟ يمكن تقديم هذه الخدمة مقابل ست ليرات ، بدلاً من دفعها ذهباً عثمانياً .

تعطيه هذه الأنشطة بالتأكيد الوسائل من أجل الإستعلام عن أحداث الصحراء وإمكانية إرسال رسل حتى إلى المخيمات

المعزولة . كنتُ وأنا أفكر أمام هذا الطبيب الغريب ، بمقطع ذكر فيه دروفيتي بمراسل في دمشق . ولقد تلقيتُ من حين لآخر رسائلَ الإسكندرية يحملها فرسان انتماءاتُهم غامضة . كانوا يجدونني بحماسة شيمٍ فطنة مدهشة في جميع أنحاء الصحراء . ولقد كنت أستلم الرسائل دون أن أستجوب الرسل ، إلّا أنني كنت أكافئهم ملوكيّاً . كنت دائماً كريماً ، وسعة كرمي كانت تجعلهم يهملون التأكد من أن هذه الرسائل قد أُتلفت من قِبلي بعد تلاوتها . فأنا أحب جمع برقيات دروفيتي هذه ، الكاشفة والموحية ، والساذجة في العمق . شابوسو كان إذاً سيّدَ هذا البريد .

لماذا لم يستطع الوصول إليَّ منذ كانون الثاني ، هذا الرجل الذي يملك جوازات السفر ؟ فهل أنضبت تعليماتي حين قطعت اتصالات الأتراك ؟ أحسست بضيق لدى توقفي عند هذا السر الصغير . فالرسالة تنتظرني ، وهي آتية من دروفيتي ، وهي تحوي نبأ الإنزال الفرنسي ، تتويج معاركي ، ومفتاح مجدي . أخذتها من

فوق الصوان المرمري الذي أشار إليه الدكتور ، وأدخلتها إلى جيب ثوبي . حسٌّ داخلي ، برق ماكر في عين الكهل القوية ، منعاني من فضها بحضوره .

لقد رفضتُ المرطبات التي عرضها عليَّ و (الشوكولا) كذلك ، التي أحبها ، والتي لم أذقها منذ تركي مالطا قبل سنوات كثيرة ، وخرجت بعد أن دسستُ خمسة دراهم في يد الزنجي الحزين الذي فتح لي الباب . لقد أثار شفقتي بكسوته الصفراء ، وضفائر شعره المنسدلة على الرقبة ، وشعره الرمادي . شابوسو ، الوفي لفولتير ، والذي يدعي أنه تراسل معه ، وأنه مثله عاشق للحرّية والمساواة ، يعامل خدمه معاملةً سيئةً .

اخترت ظل شجرة فستق للجلوس أمام ثكنة فرسان . كان حراس مهملو الهندام يقومون بواجبات الحراسة . كان من الممكن أن أختار مقهى ، أو مخزناً خلفيّاً في البازار ، إلّا أنني تعلمت من البدو عادة تذوق الهواء الطلق من أجل اتخاذ القرارات

الهامة . فالبارحة ، في مثل هذه الساعة بالتأكيد ، كنتُ القائد المنتصر في ذروة مجده .

كان المغلف قد اصفرَّ قليلاً ، واسمي مكتوباً عليه كتابةً عادية سريعة رفيقة ، تعرفت فيها خط سكرتير دروفيتي . إنها تحمل علامة رجال البريد الأتراك الذين أتوا بها من الإسكندرية ، ثم الأختام القنصلية ، ذوات النسر المكسورة من جانبين . لفت إنتباهي خاتمٌ أخضر : إنَّه خاتم قنصلية حلب . وبدأت ، من دون أن أفهم بعد ، بالإحساس بالنبأ السيء الجديد . بالفخٍّ الرسائليّ . ولقد رفعت عينيَّ ، غريزيّاً نحو ديدبانات الثكنة المتراخين الذينِ أحسست أنهم يمثلون تهديداً .

قاعدة تقاريري المطلقة مع دروفيتي تتطلب أن يبقى بريد سوريّا الديبلوماسي جاهلاً جهلاً مطبقاً بنشاطاتي . حسن التقدير لديه مسألة اعتياد ، ولديَّ مسألة أمان : فهذه المساكن أكثر ثرثرة ، وأكثر صداقة للترك مما يعتقد . إذا ما قُدر لي أن أذهب للحصول على رسائل لدى القناصل ، فإنهم يسلمونها إليَّ مختومة

بالرمز الذي أحفظ عن ظهر قلب ، مفتاحه . فلست بالنسبة لروسو في حلب ، ولكوانسو في بغداد سوى تاجر ، تاجر رحالة ، على صلة بالمصريين ، والذي لم تبتسم له الثروة منذ سنتين . هؤلاء المغفلون لم يكونوا بحاجة لمعرفة المزيد . فالجاسوس الدقيق ، الذي هو أنا ، الراغب حقاً في الحياة ، يهتم بتستره ، ويلذ له أن يكون مجهولاً ويقلق من مخالفة القواعد البسيطة التي تحميه . فبأيّ حق فتح القنصل روسو رسالتي ؟.

كان المغلف يحوي ورقتين من حجمين مختلفين . على الأولى تصطف كتلة من الحروف الكبيرة المخطوطة بدقة متناهية . عرفت من نظرة العين السريعة أنَّ الرمز العادي لا يسمح لي بإدخال الرمز . وما حاجتي للمفتاح . كان كل حرف مشطوباً بخط دقيق برهن فيه كاشف النص في حلب عن تقدم ترجمته . أما الورقة الأخرى ، فقد كانت تحمل النص المشروح ، والمؤشر عليه قانونيّاً من قبل روسو ، كما يجب .

كما يجب ، عندما يقتل عميل ، لأن الرسالة كانت تعني

قتلي . لقد فقدتُ هذه الرسالة ، التي مزقتها غَضَباً بعد الذهول الذي تلا قراءتها . على كل حال ، شيء ما فيَّ رفض الإحتفاظ بهذه الأسطر ، بهذه الكلمات الدقيقة ، التي طعنني دروفيتي بخنجره بواسطتها . كانت الكلمات تقول ما يلي

١٣ تشرين الثاني ١٨١١ (التاريخ أذكره لأنني فكرت في الحال في الأشهر العشرة التي قضتها هذه الرسالة مسافرة من مِطْيَرةِ اسكندرية إلى يَدَي لاسكاريس المضطربتين . عشرة أشهر ، كنتُ خلالها قد قمت بأعمال كثيرة باهرة) .

١٣ تشرين الثاني إذاً .

((أيُّها السيد. صاحب المعالي وزير العلاقات الخارجية طلب إليَّ أن أضع نهايةً لنشاطاتك في صحراء سوريّا . أرجو عند تلقيك هذه الرسالة أن تقدم نفسك إلى السادة (كاتافاغو) في صيدا : سيدفعون لك المبالغ التي نحن مدينون لك بها ، وستمتنع عن إعادة أي اتصال مهما كان بقبائل الرولة وحلفائها . وكل

مساندة تحملها لابن الشعلان ولتابعيه ، هي ، منذ الآن ، ضد مصالح الامبراطورية .

الكولونيل (بوتان) ، والسيد (دونورسيا) موفدا جلالة الامبراطور في الشرق ، منتظران قريباً من الموانىء . سنقدم لهما تقريراً عن نشاطاتك ، وتضع نفسك بتصرفهما من أجل أيّة مهمة يمكن أن يعهدا بها إليك ..)) .

هكذا ، بكل بساطة ، لا شروحَ ، ولا شكرَ ، ولا شفقة أو رحمة أو حنوّ . دروفيتي رفيق قديم . أرسلك إلى الصحراء في أقسى الشروط ، وذهبت هناك . لقد نجوت من الموت عطشاً ، أو الموت بالحمّى ، أو بالزحار ، ولقد ضحيت بكل ما تبقى لديك من ثروة ، وربما من عقل ، ولكن كفى . دروفيتي صديق قديم ، ستبقى في الصحراء . يطلب منك أمراً بسيطاً في جملته : كسب البداة المتصارعين إلى فرنسا ، البداة الثائرين على كل القوانين ، المتعصبين والقساة ، وإيجاد تحالف بين الزعماء الذين يكره بعضهم بعضاً منذ الهجرة ، وإنقاذ سوريّا من الخطر السعودي .

يجب أن تقوم بذلك كلّه وحيداً ، من دون إرشادات ، ولا دعم ، إلّا أنَّ عين الامبراطور ، كما قالوا ، عليك . ونجحت بمعجزة ، ونجوت من الخنق ليلاً ، أو القتل بالسم .

إلا أن عين الامبراطور ، فجأة ، ليست عليك . إنّه ينظر إلى موسكو . وإذا ما رغب في احتلال موسكو ، فمن المستحسن أن يساعده العثمانيون بتجميد جيش الجنرال (باغراسيون) في القوقاز . وحتى يساعدك العثمانيون ، يستحسن عدم تقسيم إمبراطوريتهم ، ومحو جميع آثار هذا المشروع . لاسكاريس يعود آنئذ إلى تفاهته . دروفيتي قد اخترعه ليدفع منافعه الخاصة في مكاتب باريس ، وباريس تلفظه ، وترسله إلى النفايات . لا احتجاجات ، من فضلك ، فلقد دفع لك أجر عملك .

وجماعاتي ؟ والعهد الذي أقسمت من أجله لابن الشعلان ؟ والأمل الذي أيقظته في الصحراء ؟ وانتصاري على سعود ؟ إلى النفايات هذا كله ؟ تحت تصرف السيد

(دونورسيا) ، شخص تافه حقير راغب في التنزه على ضفاف العاصي ؟ شاب أنيق سيخدمه دروفيتي اليوم جيداً فلربما اشترى منه غداً تماثيله .

الإرتجافات التي انقضت عليَّ كانت تشبه نحيب الكهول الجاف . فهمتها أولاً على أنها فواق الغضب ، إلّا أن أموراً أخرى كانت تجري فيَّ : فساقاي بدأتا في الإرتجاف ثم في الإلتواء والرقص في الهواء في صورة تشنج . ومرات مفرزة فرسان ، عائدة إلى الثكنة بعد التمارين ، غير مبالية بالجسم الممسوخ الذي عانق رقصة القديس غليوم تحت شجرة فستق .

وفقدت وعيي . أو استعدت وعيي لأنني أفقت ، أو حلمت . كيف أعرف الحقيقة ؟ حلمت أنني في منزلي بحلب ، على أهبة القيام بأعمال قتالية بطولية محاها دنيء خسيس . هذا الحلم ، هذه اليقظة ؟ قد أصبحا لديَّ عاديين . لم يعودا يقلقانني أبداً .

كان الليل قد هبط عندما عدتُ إلى وعيي . كان تعب

التشنجات يسحقني أكثر من إرهاق المؤامرات والخيانات . وبعد وصولي بصعوبة إلى خان على باب مزيريب ، ألقيتُ بنفسي على الأرض بين لبنانيين مريبين ، دون أن أستطيع أن أتحرك للسؤال عما إذا كانوا قد عنوا بمهري .

وكانت ليلةً مثقلةً مريعةً ، بالطبع ، غرقتُ في نوع من الحمى كان يخيل إليَّ أنها تزيد من جو غرفة النوم الخانق ، والمثقل بالعرق والبول . كان مسافر يئن في زاوية بلطف . وقضيتُ ساعات أو دقائق من نومٍ ثقيل ، تسكنه الكوابيس البشعة المتنافرة . ولم تكن لحظات الاستيقاظ أقلَّ سوءاً . فلقد كانت صور تتزاحم في رأسي ، صور جذلة بالانتصار ، وصور منحوتة ، لا شعوريّاً ، على طرق الانتجاع مع عسس مخيم في الصحراء : لقد عرف لاسكاريس بما هو أهل له ، لقد استأجر لاسكاريس لشجاعته وكفايته ، انتخب لاسكاريس ملكاً حقيقيّاً على البادية ، لاسكاريس المحبوب ، من يدري ؟ ألا إنه معترف به ومحبوب حيث تعرف قيمته ، وليس في مراعي الرولة العابرة فقط .

لاسكاريس يحتفى به في حلب ، في القاهرة ، في مالطا ، في باريس .. في باريس .

وانبجس ، فوقَ هذه الصور التي ساعدتني على تحمل سنتين من الشقاء، والحبرُ الأسود. كان يجري ببطء فوق حلمي ، مما أثار أوهامي الواحد تلو الآخر ، وغطّى كل شيء ، ببقعة قاتمة كانت تأخذ فجأة شكل (دروفيتي) ...

لو أنني أملك فرساني الفدّانيين ، إذاً لكنتُ قادراً على الركض بهم حتى الإسكندرية لكي أخنق هذا الدنيء الأقطع الأكتع . آه ! يا للذة الإلهية التي سأشعر بها لو رأيته يحتضر ، في مطيرته ، وطيور المطر لديه تنقر عيونه !.

وكان ذلك البارحة ، ليلة البارحة ، وهأنذا أسير ممتطياً حصاني على طريق النبك حيث تنتظرني أسرتي . أأجد لديها عذوبة الحياة ، والعناية التي يمكن أن تهدىء ألمي ؟ الهواء ينش بحرارة الظهيرة ، والطريق خالية . فالتجار ، ورجال البريد ، والجنود ، والرهبان ، كل من يسافر في سوريّا ينام في هذه الساعة في خانات

أو تحت أيكات منتظرين أن تمر الساعة القاسية التي يتجرأ فيها المجانين مثلي على المغامرة والسفر .

أجل المجانين ، وكذلك هؤلاء الذين رققت الصحراء من حواشيهم . هؤلاء الذين يعرفون كيف يقضون على السرج عدة أيام مع حفنة من التمر وجرعات من الماء لكي يصلوا إلى العدو بسرعة ويفاجئونه قبل أن يبلغ بئره . أأنا حقاً مجنون ، بصورة خاصة ، أم أنني قاس بشكل خاص ؟ إنَّ مكاتب باريس قد مزقت روحي ، وأضعفت جسمي ، أنا أحتفظ بجفاف أعضائي ، وبساقَيْ الفارس اللتين لا تتعبان ، وبعينَيّ اللتين لا تستطيع أقسى الشموس أن تجبرهما على الرفيف .

وماذا ؟ ماذا أفعل بكل هذا الجَلَد ، وبكل هذه القوة ، وبكل هذه الخفة في الحركة ، ماذا أفعل بهذا كله في مطبخ السيدة لاسكاريس ؟ علمي لم يعد يصل لشيء ، فامتلاك صداقة عشرين أميراً ، واحترام مائة زعيم حرب ، ومعرفة توجهات كل قبيلة ،

وعواطف جميع الشيوخ ، والسيطرة على حجج المجالس الدقيقة ، أمورٌ جميلة ، لمدرس كمان يهزأ به الغلمان .

ذلك أن المستقبل قد مات منذ البارحة . وطرق المستقبل التي طالما تخيلتها متلألئة ، مشمسة مثل هذه الطريق ، بدأت اليوم تضيع في ثنايا مظلمة يرتفع فوقها ضباب محزن كئيب . فعلى امتداد عامين ، وربما للمرة الأولى في حياتي ، عرفت بدقة إلى أين أسير . لقد مشيت مثل غازٍ يعود منتصراً إلى مخيمه ، مثل رجل يتعرف البئر القريب بعلامات مألوفة ... لقد مشيت مثلهما نحو المجد . إلّا أنني ، اليوم ، وفي نهاية هذه الطريق ، لن أجد مخيماً ، ولا بئراً ، ولا مجداً ، المستقبل ، هو العودة إلى النبك ، والتكسب من تدريس الكمان ، وصراخ السيدة لاسكاريس ، والأطفال الذين يكبرون بشكل سيء ، والذين لن يعرفوا ، أو لن يصدقوا أنَّ أباهم قد كان بطلاً .

وماذا لو أنني عدت ؟ وماذا لو أنني لم أتلقَ هذه الرسالة أبداً ؟ تغيّر مفاجىء ، عودة إلى دمشق . ابن الشعلان ، في

مكان ما في الشرق ، قرب الموصل ، من دون ريب ، حيث يحتفل بالعيد مع قبيلة ضفير . الضفيريون ، أعرفهم ، أعرف أين هم الآن ، فبعض أسرهم توجد دائماً شمالي تدمر . وهكذا أصل إلى الموصل ، على بعير سريع ، بعد ثمانية أيام ، محاطاً بموكب . هناك ، في الموصل ، آخذ ابن الشعلان ، مرة ثانية ، من يده ، وأبعده عن فتح الله ، وعن إغراء التصالح مع سعود ، وأعد بل أخترع ، حرباً جديدة .

وماذا يقدم هذا كله ؟ لا شيء ؟ لنكن واضحين ، إذا كنا مغلوبين . فالقبائل لا تبقى متحدة إلّا إذا استطعت أن أغريها بمشروع كبير . لقد جمعتها متحدة ضد سعود ، وبإمكاني ، عند اللزوم ، دفعها نحو تحرير مفترض لخوزستان ، هذه المنطقة العربية البدوية من فارس : وسنجتاح (خرم شهر) في طريقنا . ولكن ماذا بعدُ ؟ لن أدفع فرسان هذه القبائل ضد الأتراك ، ومدفعيتهم .

وعند ذاك ، وبعد تعبهم من النظام ، سيستأنفون

منازعاتهم . تختلف نساؤهم حول آبار المياه ، ويأتي رجالهم ، والمدى في أيديهم ملتمعة ، ويركض الزعماء إلى المجلس مطالبين بثمن الدم المراق . فباسم أيّ شيء أرفضه لهم ؟ إنهم سيتركوننا جميعاً ، فأنا أعرف ذلك . بنو حسن ، والفدّانيون ، وولد علي ، والضفيريون القبيلة بعد الأخرى ، سيعودون إلى أوهامهم ، إلى حقدهم على الرولة ، إلى حريتهم .

ويشيخ لاسكاريس إلى جانب ابن الشعلان ، يتقاسمان المجد والشرف مع الزعماء والكهول . مجد يتغنى به حفنة من الشعراء ، وشرف يتلقاه أفراد القبيلة . وسأموت فيما بعد ، إذا لم يرسل إليّ دروفيتي من يسمني قبل ذلك . لأن لاسكاريس سيغدو مزعجاً ، لأنه يحتفظ بالكثير من الرسائل ، ولأنه يتكلم كثيراً عن دسائس القنصل . ويمكن أن يغدو الأتراك مرتاحين لمعرفة ما يحاك أخيراً ، أي ما يحاك صدهم .

أنا أستطيع بالتأكيد أن أذهب للقائهم مع أدلتي . لا في دمشق ولا في بغداد على كل حال : فالباشوات الذين يحكمون

هنا ، قد باعوا أنفسهم لمن يدفع أكثر ، وربما تكون باريس قد اشترتهم . سيرسل دروفيتي (شابوسو) ليكذبني ، وليطفىء القضية . لا ، يجب أن أذهب إلى القسطنطينية ، سأقطع الأناضول كلها متنكراً ، لأصل إلى عاصمة الإمبراطورية ، من دون أن أدع الترك يتعرفون عليّ ، ومن دون أن أعتمد على أية رسالة وساطة . ثم أصل بمعونة الصبر والرشاوى إلى باشا بثلاثة أذناب ، المرتبة الوحيدة التي لا يكون الموظفون الأتراك ، انطلاقاً منها ، أمبين تماماً ... باشا بثلاثة أذناب لن يصدقني ، سيعتبرني أحد العصاة ، وسيعلق مشنقتي في ساحة سجن قذر . سيحملونني على الكلام قبل ذلك ، وسأقول لهم كل شيء ، وسيكلفون باشا بغداد بوضع السم مرة واحدة في جميع آبار الرولة ، وجلب ابن الشعلان نفسه ، إلى القسطنطينية .

لا ، أبداً ، إذا ما كان هناك شيء أريدُ الإحتفاظ به في كل هذه الورقة فهو حرية البدو : فليكملوا مشاجراتهم الحمقاء ، ولكن ليبقوا أحراراً .

أحراراً ، ولكن نافعون لمجد لاسكاريس . كيـف يمكـن الإفادة من هذه القوة الجديدة التي تغطيها سهوب الشمال ؟ مَنْ مِنَ الناس يستطيع استعمالها ؟ الإنكليز ؟ كيف أعمل لأبيعَ نفسي للإنكليز ؟.

رسالة إلى السيد القنصل دروفيتي ، في الإسكندرية

من م . دوشابوسو ، باريس ، المقيم حالياً في دمشق
(أيلول ١٨١٢)

سيدي العميد

لقد أتممتُ المهمة التي كلفتني إيّاها ، فأعطيت الشوفاليه لاسكاريس دوفانتيميل المغلف الذي يتضمن رسالتك ، التـي نقلها إليَّ القنصل روسو . ولقد أكد هذا الأخير في بطاقة منفصلة أنه قد أخذ علماً بمحتوياتها . لقد حلَّ شيفرتها بنفسه ، كما رغبت في ذلك .

لم يشأ الشوفاليه لاسكاريس (فضَّ المغلف) أمامي : لقد انسحب فجأة ، مع وهم العجرفة الذي منحته إيّاه الصحراءُ ، لقد رأيت ، منذ السيد فولني ، كثيرين من المغامرين الذين يفيضون غروراً وغطرسة ، بحجة أنهم زاروا تدمر . وإنني لأعترف بأن التشبيه تعوزه العدالة . فالسيد لاسكاريس ليس رحالةً كالآخرين : لقد خدمك جيداً . فإذا ما كان قد توجب عليه أن يسرك بخلق فوضى في الصحراء ، وبإرباك العثمانيين ، فبإمكانك أن تكون مسروراً منه . فمنذ عام والقبائل لا تنفك تتقاتل ، على حساب التجارة . أما وأنَّ من تحميه عائد إلى أسرته ، فأملي كبير بعودة البداة إلى صوابهم : إنَّ عقلهم يأمرهم أن يتركوا القوافل تمر ، بعد فرض إتاوة متواضعة عليها .

أنا ، كما ترى ، راضٍ عن رغبتك في انتظار الصيف لنقل تعليماتك إلى عميلك . أنا ، باعتباري رجل علم ، لا سياسة ، أعجب بالأسرار الديبلوماسية ، من دون أن أتعمقها ، وأرفض ، بالطبع ، الإعتقاد بأن قنصل فرنسا يستطيع ، حسب مخطط خاص به ، تأجيل تطبيق ما يشير به وزيره .

إنَّ الاضطرابات البدوية قد استمرت مدة أطول مما كانت تريد باريس . لقد أصبحت أثمان جوازات السفر المباعة باهظة ، مثلما ارتفعت أثمان التحف الشرقية .

القضية الكبرى هنا ، منذ كفَّ الناس عن الخوف من هجوم السعوديين ، هي وصول (الليدي ستانهوب) : لقد أعلمتني عن ذلك في رسالتك .

فبعد إقامة قصيرة في القدس ، أصرَّت الإنكليزية ، الغريبة الأطوار ، على تعرف دمشق . مدينتنا ليست مضيافة بالنسبة للأوروبيين ، وأنت تعلم الثمن الباهظ الذي أدفعه ، والصعوبات البالغة التي ألاقيها ، لبقائي هنا . فدمشقُ ، من دون أن تعتبر مقدسة ، محرمة على غير المسلمين ، وتبقى مزاراً ، ومحترمة جداً من قبل المسلمين . والموارنة واليهود فيها حذرون جداً ، وبعض الفرنجة الذين يغامرون بدخولها ، إنّما يفعلون ذلك متنكرين .

أمّا بالنسبة للأوروبيين ، فأنا لم أقابل أحداً منهم منذ أربعين سنة ، وفكرة استطاعة واحد منهم التنقل بحرية عبر بساتيننا ، تبدو

لي حتى الآن أمراً غير معقول . استثني من ذلك النساء الفقيرات اللواتي يعشن في الحريم واهنات : بروفنسيات سباهُنَّ المغاربة ، أو إيرلنديات متروكات في مصر ، أو كالابريات مراهقات باعتهن أسرهن .

ليدي ستانهوب ، بالتأكيد ، تنتمي إلى عرق آخر . لا يمكن أن يتخيل أحد أنها تقبل التنكر أمام الخطر ، أو على الأقل ، قضاء أيامها في ظلمات الحريم : لقد قررتْ دخول دمشق من دون حماية أو نِقاب ، على الرغم من امتعاض متعصبي المساجد ، والإنكشارية قاطعي الآذان ، والشعب الكاره للأجانب .

وهكذا رُؤِيَتْ الفارسةُ الصلفةُ داخلةً إلى المدينة من باب صيدا ، متربعةً على حصان كميتٍ رائع . كان عشرون فارساً يحيطون بها : هدية باشا عكا . ويتبعُها موكبٌ طويل من الهدايا ، والمتاع والخدم . ربما كان هذا المشهد أعجب ما قابلْتُ في هذه المدينة ، ولا ينقصه في الحقيقة إلّا مزمار القرب حتى يغدوَ موكباً إنكليزياً حقيقياً . كان الموكب يتقدم باتجاه القصر ، يـ`ـنُّ طريقَه

عبرَ جمهورٍ أذهلته هذه الجرأة . كنت أنتظر طلقةَ بندقية ، أو خنجراً متعصباً يعيد كل شيء إلى نصابه من دون أن يفاجأ به إنسان أو يتحرك له : إلّا أنَّ شيئاً من هذا لم يحدث . لقد دخلت هذه المرأةُ المدينةَ المقدسةَ وحيدةً ، متحديةً قروناً من التقاليد ، تحميها فقط ، سمعةُ جيش يهتم ، بعيداً عن هنا بآلاف الأميال ، بمهاجمة قومنا من الفرنسيين في (سالامنكا) الإسبانية . لقد شاهدتُ بنفسي الشعبَ الدمشقيّ ، المأخوذ بجسارتها ، ينتقل في لحظات من السخط إلى المفاجأة ، ثم إلى الإعجاب ، وأخيراً إلى الحماسة . وهتف متسكع محيّياً (الملكة) ، وسفح بعضهم القهوة الساخنة تحت حوافر جوادها . وهكذا استقبل باشا دمشق الليدي ستانهوب في قصره ، بأبهة وبذخ ، بعد أن تأملتها دمشقُ كلُّها .

وتتالت ، بعد هذا ، الإحتفالاتُ على شرفها ، الضباط والفرسان ، ومحاسيبُ الوزير ، وذوو المكانة من جميع الفئات يتنافسون على استقبال الملكة ، وتقديم حريمهم إليها .

الليدي ستانهوب ، حقاً الكائن المدهش الذي وصفتُ ، جسمٌ ضخم ، من دون أن يكون شنيعاً : هيكل قويّ من عظام ، كتفان ثقيلان ، وردفان مثلهما في الثقل ، بطن مسطح ، جلد أشقر مكسو بزغب تحته تتكور عضلات . في وسط الوجه ، تتحرك شفتان باستدارة أكبر من معاييري ، وتتألق عينان شهلاوان تحت شعر كث ، يتموج حتى منتصف الظهر ويؤرق الآن ليل جميع الدمشقيات . باختصار : رأس عذراء ، فوق جسم محاربة تحمل بندقية .

نجهلُ الدوافعَ السياسية لهذه المسافرة المغامرة المدهشة ، إلّا أنه يبدو من المؤكد أن منافع إنكلترا ستخرج منها معززة . فإذا ما كانت المسافرة ، كما قلتَ ، ابنة أخت (بيت) رئيس الوزراء ، وإذا ما كانتْ موضع ثقته ، فهناك الكثير مما يُراهَن عليه ، بل يؤكد ، من أنها قد أقبلت من لندن مكلفةً القيام بمهمة أخرى غير مهمة إثارة جنون الأغوات .

تفيد آخر الأخبار ، أن الليدي ستانهوب قد قررت أن

تغادر دمشق ، وأن تتوغل في الصحراء . فهي ، بعد أن استولت على قلوب الباشوات ، ترغبُ في هزٍّ قلوب الأمراء ، ثم زيارة تدمر ، بعد هذا ، كما فعل الكثيرون . يُشاعُ في الأسواق أنها ترغب في تأسيس امبراطورية جديدة تنافس ، أمام التاريخ ، زنوبيا ، وتجدد ، بعد خمسة عشر قرناً ، عظمةَ بلاطها .

لقد تعلمتُ أن أحذر كثيراً الجلباتِ التي تثار في الأسواق ، هذه . فتحتَ مظاهر خفة المشاريع يمكن أن يستتر تصميمٌ آخر ، أكثرُ برودة في تعقله ، وهدوءاً في تصميمه !!.

رسالة إلى الليدي ستانهوب في دمشق

من السيد لاسكاريس دوفانتيميل ، فارس جزيرة مالطا
من النبك(تشرين الأول ١٨١٢)

يا مليكتي

أردتُ ، مثلك ، بعد أن تعبتُ من صخب أوروبا الذي لا

طائل تحته ، أن أفتش في الشرق عن الهدوء الذي وعد به محمد هؤلاء الذين يعيشون ، مثلما أمر به المؤمنين أن يعيشوا . فتحت السماء الصافية ، وحيث يمحي فتور بلادنا السلتى ، بدت لي الحياةُ ، مثلما بدت لكِ ، أكثر نبلاً وبساطة .

نقل إليَّ أصدقائي في دمشق أخبارَ دخولك ، كالمنتصرين ، إلى هذه المدينة ، وتفاصيلَ محادثاتك ومحاوراتك مع سعيد سليمان باشا . لا أشك في أن أبهة بلاطه وعادات النبلاء الريفيين العثمانيين المثيرة للفضول ستسليك لبضعة أيام . إلاّ أنني أعرف ، وأحس ، بوجود رغبات أخرى لديك ، وبأن دمشقَ ليستْ بالنسبة لمليكتها الجديدة إلّا معبراً أو باباً للصحراء ، كما تسمى هنا .

في الصحراء يا مليكتي ، اكتشفتُ الثقة الهادئة بتفاهة الأشياء ، وفي وسط أصدقائي ، من البدو ، فهمتُ لماذا لا يكون الإنسانُ كبيراً إذا لم يأت إلى الشرق . هنا ستجدين الهدوء ، وربما المجد .

المغامرة لا تكون بدون مخاطر ، وماذا تعني المخاطر بالنسبة لأرواح مثل أرواحنا ، المغمورة في تقلبات الزمن وتعاقب الفصول ، ثم إنَّ قيادتنا للآخرين تقودنا إلى السيطرة على أنفسنا . أصدقاؤك من الأتراك ، يعرضون عليك ، من دون ريب ، موكباً ، اسمحي لأوروبي مثلك متعوّد على الروح البدوية ، بأن ينصحك بعدم قبول هذا النهج في السفر ، فالعرب ، هم السادة على بُعد ميلين من دمشق ، وأتراكك تافهون لا قيمة لهم أمام فرسانهم .

والذهابُ ، وحيدةً ، مع مجموعة من الأصدقاء الخلص ، ووضعُ النفس بثقة تحت حماية أول شيخ يلتقى ، هذا ، من دون ريب ، أحسنُ دهاءً ، وأنبل مناورة ، إذا لم تكن القبيلة التي استقبلتك قد هزمتها قبيلة أخرى أقوى منها . ذلك أنَّ معرفة جغرافية الصحراء ، لا تعني شيئاً يا مليكتي ، إذا لم نعرف أيضاً جغرافية القبائل .

فبين الأتراك الرسميين ، والبداةِ الطيورِ الكواسر ، يجب أن

نجتاز ما يسمى العتبات . اسمحي لي إذاً ، وأنا المحال على المعاش ، والرحالة الكبير ، أن أقدم لك يد المساعدة .

ملاحظة

أخبرني رجال ، ينتمون إليَّ ، أنَّ قبيلة بني حسن القوية ، والشرسة ، تخيم في مكان غير بعيد عن حماه . لقد ركبت الخيلُ كثيراً مع أميرها مهنا الفضل . أدعو الله ألّا تقعي بين يديه ، فهو يكره إنكلترا أكثر مما أعجب بها أنا .

لاسكاريس ، (مذكرات تشرين الأول ١٨١٢)

فلنمض في هذه الطريق الجديدة . ستنجح رسالتي لدى ستانهوب : أشعر بنفحة مغامرة تختلط بها مشاعر عاطفية ... فليأخذني الشيطان إذا لم أتوصل إلى إثارة الإنكليزية واللعب بها .

هكذا يخون الإنسان . يخون ، كيف ؟ خمس عشرة سنة

في خدمة فرنسا ، بالنسبة لنيسيّ* لا ينتسب إلى دولة جديرة بهذا الاسم ، بالنسبة لفارس جزيرة مالطا . الذي كان قسمه الوحيد الإجهاز على البرابرة ، خمس عشرة سنة من الحياة من أجل الفرنسيين . هذا يكفي . أليس كذلك ؟ وإذا ما كانوا قد سرحوني بسفالة ، فلديَّ الحق ، كما يبدو لي ، بالتفتيش عن سادة آخرين .

أيعتقدون إذاً أنني سأتخلى عن البداة أصدقائي ، وسأترك الإتحاد يموت ، وأدمّر هذه الجامعة التي أنشأتُها ؟.

سيكون في ذلك خيانة ، وجريمة لا تغتفر ، وخِسّة . ولكنَّ فيه الإنتقال من باريس إلى لندن ، وترك الفرنسيين الذين تركوني . فما أهمية ذلك إذاً ؟.

صحيح أنني ترددتُ لعدة أيام . كنت أفضل لو شخت في خدمة الامبراطور : لقد اختارني ، من قبل ، في القاهرة ، وهو

* نسبة إلى مدينة نيس .

يفهم الشرق أحسن مما تفهمه لندن ، ثم إنهم في أسرتي يفضلون القرصان على الخائن . خائن . أيضاً هذه الكلمة كم تزعجني ! وهذا الإزعاج كم يثير أعصابي !.

لِنَدَع هذا الأمر ، ولنترك التفكير فيه ولننسَ هذا كلَّه . لننسَ ، إذا كان ذلك ممكناً ، هذه المساومات القديمة في العام السادس في مالطا . كان الأسطول الفرنسي يقترب ، وكان يريد محاصرتنا ، تحريرنا ، ومن دون مؤامراتي الصامتة ضد رئاسة نظام فروسية مالطا ، لم يكن نابليون ليستطيع أن يحتل (لافاليت) . أأنا إذاً ، منذ ذلك الوقت ، محكوم عليَّ بالإزدواجية ؟.

لنُسكت هذه الشكوك ، لنطفئها قبل أن تصبح آلاماً ، ولنفكر في المستقبل، مستقبلي، يلزمني مدافع لاحتلال بغداد، وبرونز الإنكليز أجود من برونز فرنسا ، هذا كل ما في الأمر ، لا يوجد أيّةُ خيانة في هذا .

لا عمل لديَّ الآن ، فماذا أنتظر ؟ خيوطي ممدودة وصنارتي تتراقص أمام الإنكليزية فهل تقضمها ؟ لقد تسرعتُ في

التعرف إلى هذه المرأة . قيل لي : إنَّها جميلة جداً ، وخبيثة جداً ، خطرة إذاً ، أكثر من شيخ قبيلة غضوب ، سريع في احتقار الآخرين .

ماذا نعرف عنها ، عن أسباب رحلتها ، عن الدوافع التي تسيّرها ؟ لا شيء ، لا شيء تقريباً . إنها ابنة أخت وزير ، فهي وزيرة ، ولقد كانت تمارس ، بشيء من الصلابة ، جزءاً من السلطة الإنكليزية في الساعة الحرجة التي يلقى فيها النسر مصيره ، إنها ساعة (الطرف الأغر) بالطبع ، ولكنها ، أيضاً ، ساعة التهديد بالغزو ، ساعة (اوسيتر ليتز) ، دون أن نتطرق إلى قلاقل ايرلندا .

إلّا أنها وجدت نفسها ، بعد موت (بيت) منفردة ، مهددة ، ولقد رفع كل من الحقد والإذلال والحسد رأسه الكريه حول المرأة الشابة ، وضغط عليها الأعداء ، فهربت وانعزلت في ممتلكاتها ... ثم ظهرت في الشرق بعد خمسة أعوام . فما الذي أتت تصنع فيه ؟.

العمل من أجل إنكلترا ، كذلك يؤكد حولي قراء الصحف ، العمل من أجل إنكلترا ، وكسب جميع الباشوات والأمراء إلى جانبها . همس في داخلي صوت آخر ، يقول : إنَّها تعمل لمصلحتها ، إنها تريد ولاية أو إقطاعاً في هذه البلاد ، وادعاء السيادة عليها ، ثم احتقار أوروبا فيها ، والانتقام ، على هذا الشكل ، من إنكلترا .

أين الحقيقة ؟ لا يهم ، بإمكاني ، في الحالتين ، خدمتها وقيادتها . لكن أتستطيع المناورة كما ينبغي ؟.

إمرأة ، وجميلة فضلاً عن ذلك . إنَّها تريد اجتذابي إلى حب العالم ، إلى حذلقات الصالونات ، وربما إلى الصالون نفسه . يجب مقاومة هذا الأمر ، والبقاء أعمى أمام الأوضاع الراهنة ، أمام ارتجاف الأجفان ، وقيادتها بدوري إلى ميدان السياسة ، والمغامرة ، والحرب .

وستكون اللعبةُ هنا صعبة ، فالطريدة تطير عالياً ، وهي محنكة صعبة في تلقي الهجوم ، ومقاومة الشرَّاك ، ومتعلمة في

مدرسة (سان جيمس) ، إنَّها شيءٌ آخر ، غير أمير يحكُم على ألف خيمة .

انتظرْ إذاً ، والعب بحذر . أظهرْ القسوة ، ولكن إلى جانب العظمة ، دعِ الناس يستشعرون السلطات العظمى ، لكن اكتشفْ أقلَّ ما يمكن . حاولْ أولاً كشفَ السر الذي يحيط بها ، وسبر أعماق مشروعاتها ، قدّم التأثير الذي لا تزال تتمتع به في لندن ، ووضع ثروتها . ثم أسْمِعْها بلطف ، بلطف شديد ، إنَّ بإمكانها أن تخدم ، وأن هناك رغبة في لقائها لدى عسكريين على أعلى المستويات ، وأنهم يحبون أن يتحدثوا معها عن مصير سوريّا . وعليّ أن أبقى ، مع هذا ، حذراً : فهي تخالط ضباط أركان الحرب الأتراك ، وهي انكليزية وامرأة ، فهي إذاً تظهر بوجهين . فلأختبرها ، أو الأسوأ ، فلأعشقها ، وعند ذاك ستعمل الرحالة الجميلة لحسابي في قصور دمشق .

إنّما قبل كل شيء ، ينبغي أن أصحبها إلى الصحراء ، إلى داري ، لأريها من هو لاسكاريس . سيساعدني ، مهنّا أمير بني

حسن الشيخ ، الذي يرهب ابـن الشعـلان ، في مؤامـراتي ، سينصب لها مثلاً كميناً أحضر أنا ، في اللحظـة المناسبـة ، لإنقاذها منه . سنرى هذا كلّه ، إنّما علينا في هذه اللحظة ، أن ننتظر ، لندع رسالتي تترك تأثيرها . أهكذا يخون الانسان ؟ لا ، هكذا يثأر الانسان لنفسه .

لاسكاريس ، (مذكرات تشرين الثاني ١٨١٢)

يا إلهي كم كبرت كابتنكو ! وكم هي جميلة مشمشتي الوردية الشقراء وهي تحافظ على نعومة الاثنتي عشرة سنة ، تحت المظلة التي أهديتها إيّاها ! الشمس ساطعة شديدة هنا ، والحياة قاسية ، الحياة . أسعيدة ، ابنتي كاتينكو ، في دارنا الفقيرة ، مع عملها المنزلي الذي تقوم به ، مع الخِيّاطة التي تتسلى بها ، مع صراخ إخوتها الأوغاد ، ودروس الخوري موسى ؟ أتعطي مثلي أهمية لنزهاتنا المسائية ، في الساعة التي يحل فيها صرير النـواعير محل أزيـز الصراصير ، عندما نهبط حتى الجسر لنفاجىء الضفادع في حوض النهر ؟.

سأحاول إخفاء إضطرابي عنها ، وثقل وجودي ومخاصماتي مع السيدة (لاسكاريس) التي تعاملها معاملة منافسة محتملة . أتخمن شيئاً من هذا كلّه ؟ لقد رجتني ذات يوم ، بألا أغادر مرةً أخرى (مسافراً) ، كما تقول ، ابتسمتُ ثم بكيت . أعلّق على مظاهر الحنان هذه أملي المتواضع بتقديم خدماتي . إن لم أكن نافعاً للامبراطورية ، كما يبدو ، فلا أقل من أن أكون نافعاً بالنسبة لهذه الفتاة الضعيفة السريعة العطب .

لقد حلمت بجنون بأن أخدم الواحدة ، والأخرى في آن واحد ، وأن أؤمن مستقبل ابنتي بانتصار سيدي . فهذا المجد الذي تابعته بإصرار من خلال الرمال ، قد تقاسمته ، يعلم الله ، معها . (كاتينكو لاسكاريس فانتيميل) ، ما دمتُ قد فقدت الأمل بتزويجك يوماً ما إلى عميد ـــ كونت ، فدعيني ، على الأقل ، أحميك سنين عديدة أخرى من هذا العالم ، من الأتراك سنين أخرى أيضاً ، من أملك . اتركي لروحي السريعة التأثر بالبرد ، حرارةَ أمل نهائي ، أمل اعتقادي بأنني لا أزال نافعاً ، قولي ، إنكِ بحاجةٍ إليَّ ، يا كاتينكو .

أمران وصلا هذا اليوم ، وحملا إليَّ قليلاً من العزاء والتشجيع ، أولاً رسالة من فتح الله . أبلغني إيّاها عن طريق أسقف النبك : فرئيس العصابة ، بين غزوتين يستعيدُ عادات الماروني ويعنى بعلاقاته مع التنظيم الديني . ولكن ليس إلى حد ائتمان الكنيسة على رسالة مكشوفة . فرسالته منسوجة بالكنايات والمواربات والإشارات المحلاة بالصور . لقد أنفقت وقتاً طويلاً في حلِّ شيفرتها ، ملتهماً بجرعات نهمة استعارات الشاعر وأخبار الصحراء .

إنه عند أمه في حلب ، بعد أن ترك ابن الشعلان والرولة يقضون الشتاء في الجنوب . المعاهدة مع سعود وِقعت في نهاية رحلة خطرة إلى الدرعية : يجب الإفادة من هذه القضية في عمل محتمل . يعطيني فتح الله موعداً في تدمر . إنَّه يفكر في اللحاق بقبيلة ضفير فيها لكي ينتظر معها الربيعَ ، وعودةَ قبيلة الرولة .

نقلتني هذه الأنباء إلى عالم آخر : إذاً بالنسبة لبعض الناس لا أزال موجوداً . ونفحات الماضي تصعد إلى الرأس حاملةً معها

خدراً ونشوة لذيذين . لقد أحيا فتح الله في بضعة أسطر ألفَ مشهد كنت أعتقد أنها قد دفنت في الأعماق من وجداني . لقد وجدت فيها حقاً ، القلق الذي يسببه لي خادمي الذي أصبح تلميذي ومنافسي إلى حدٍ ما في الأشهر الأخيرة . إنني أعجب على الرغم من السهولة التي يتحرك بها بين القبائل وكونه على صلة دائمة بمخططاتها، وعلى علم دائم بمنازعاتها وتحالفاتها الموسمية، إنني أعجب به ، إلّا أن ذلك يثيرني كما كان يثيرني من قبل الإحترام المبالغ فيه الذي يبديه نحوه بعضُ الشيوخ ، والحماسة التي يثيرها لدى المحاربين ، ثم استدعائي أخيراً إلى تدمر مثل رجل قافلة عادي .

هل أذهب ؟ ماذا أستطيع أن أقوم به هناك ؟.

أيّة أخبار سأحملها إلى البدو ؟ إهمال فرنسا لنا ؟ إلغاء الأحلام ؟ إنهاء التحالفات ؟...

أضاعَ كل شيء بالنسبة لجماعاتي ؟ لا . فإذا ما كان فتح الله قد تفاوض مع سعود ، ففي هذا أمل كبير ، أجمل وأغنى

وأكثر استمراراً من الوعد الذي قطعته للقبائـل . ليس هذا ، بالطبع ، عملي ، إلّا أنه عمل تلميذي . لقد عرف كيف يقنعنا ، وكيف يقنع سعوداً ، لقد عرف كيف يبقى بعيداً عن التعرض للخطر في سلمية ، عرف ، من دون ريب ، كيف يتنبأ قبلي بارتداد الفرنسيين وتخليهم عن وعدهم . أليس للأستاذ الشيخ ، من خلال تلميذه الأكثر مهارة وذكاء ، الحقُّ في فضلات نجاح ، في جزء من زهو ؟.

سأذهب إلى تدمر للإصغاء إلى فتح الله ، على الرغم من أن نجاحه يشير إلى فشلي ، بشكل قاتل . سأذهب إلى تدمر على الأقل لسماع ثغاء القطعان ، وشم رائحة المخيمات ، والإقعاء أمام النار التي يقعقع فيها الروث ، سأذهب مرة أخرى ، من يدري ؟ لعلها تكون الأخيرة .

ولن أذهب وحدي ، مع ذلك ، وسيكون بإمكان فتح الله أن يلاحظ أنَّ أستاذه القديم لم يخدع تماماً ، وأنه لا يزال قادراً على النضال ، والعض .

وفَتَحَ حدث اليوم الثاني الطريق إلى احتمالات فهمت أنها محاولات مغامراتٍ جديدة : فالإنكليزية قد تناولت الطعم .

ذلك أنني وجدت ، عندما عدتُ ، مع كاتينكو إلى المنزل مساءً ، شخصية مضحكة قابعة في مطبخنا ، لقد قدم نفسه على أنه الطبيب القيّم على شؤون الشقراء الأرستقراطية . كان الرجل قصيراً بطيناً ، ذا سحنة ماكرة تحت رأس أصلع يجعله يبدو شيخاً . كان نظره الهارب يقفز ، ولا يستقر إلّا على الأجزاء الرحبة من جسم مدام لاسكاريس ، وكانت هي منتشية بذلك .

لقد أرهقنا بحكاية رحلته الطويلة من دمشق ، نادباً حظه السيء ، وشاكياً من متطلبات سيدته ، ومن آلاف المخاطر التي تعرض لها بسببها : إنّها تتمنى التعرف إليّ ، وتدعوني لزيارتها . وبقيتُ مع هذا محترساً ، على الرغم من أنني كنتُ أرتجف من نفاذ الصبر : لم يرَ فيَّ سوى شيخ حفيّ بشوش ، مختلٍّ العقل إلى حدٍّ ما . لقد حانَ الوقت لأن أكشف للإنكليزية من الذي ستتعامل معه .

رسالة إلى دوروتي ماك ليود ، دوقة فرامبورو — فرامبورو

من استير ستانهوب ، في الشرق (كانون الثاني ١٩١٣)

لا أرى حولي ، يا عزيزتي دوروتي ، سوى الرجال . فليس بين سائسي الخيل ، والأدلاء ، والطباخين حولي من يرتدي تنّورة . وهأنذا منذ ثلاثة أشهر أسرّح شعري بنفسي ، وها هي ذي ستة أشهر تمر ، من دون أن أصفع فيها وصيفة .

منذ الصباح يتدافع الزوار على بابي . تجار يشتهون ذهبي كما أتمنى الحصول على كشميرهم، وعلماء محترمون أرسلهم رجال المسجد الكبير للتحقق من شخصي ، ومما إذا كنتُ الشيطان ، وكثيرون من الضباط . وهؤلاء أقلّ خجلاً من حرس (السير دافيد) ... الكثيرون من الزوار ، ولكن لا زائرات .

وليس في استقبالات المساء سحر نسويّ . والباشا ، الذي يحبني كثيراً ، قدم لي كل ما يستطيع من احترام . تقام على شرفي

ولائم عشاء فخمة ، وكلُّ المدعوّين إليها من الذكور . فضلاً عن أنها غير مريحة : فنحن نتناول الطعام جالسين على حشايا ، ساقايّ تصلبتا بفظاعة داخل السراويل المنتفخة التي خطتها على عجل للإحتفاظ بالحشمة .

أنا إذاً المرأة الوحيدة بين ذوي الشوارب. العيون مركزة عليّ ، والقلوب أيضاً . هنا ، كما أعتقد ، كل أركان الحرب في سوريّا ، رجال المشاة يصحبونني إلى مقاهٍ خاصة . والفرسانُ يقترحون نزهاتٍ باتجاه العاصي . ورجال الشرطة يعدون باجراءات صارمة . وأوافق على كل شيء ، بالطبع ، أهدِّىءُ بنظرةٍ ، أكثرَ الرجال لجاجة ، وأصغي إلى أبلغ الفصحاء ، وأسأل أكبر العلماء : وأفتن . أفتن ، وكلُّ هؤلاء الأتراك العاشقين لشقرتي التي لا يصلون إليها ، يطلعونني على أسرارهم ، كما سيخضعون لي كتائبهم . قبل انقضاء ستة أشهر سيطيعني هؤلاء العسكريون ، وسيكون الباشا رئيس وزرائي .

ألمحُ ، من هنا ، عينيك المستديرتين ، تصرخان جنوناً ،

وتعتقدين أنك تتعرفين ما يسمى نزوات استير . ألا تفكرين ، أيتها الدوقة العزيزة ، أنَّ ست سنوات مضت من العمل قرب (بيت) الكبير ، قد أعطتني من الحسِّ السليم ما يكفيني للتأكد من أنَّ هناك سلطةً يجب أن يستولى عليها . سوريّا ، يا عزيزتي (دوتي) ، ثمرة ناضجة ، وأنا التي ستقطفها .

(ولكن هذا انقلاب . أنتِ . وحدك .) .

نعم ، يا دوتي ، وحدي . ما أنجزه (كليف) في الهند سأنجزه أنا في سوريّا ، مفتاح الهند .

(ولكن كليف رجل ؟) .

كفي يا دوتي ، ألست من أسرة ستانهوب ، أتظنين أنني لستُ جديرةً بالمساواة مع ابن عتال ؟.

قبل ستة أشهر إذاً ، سأغدو ملكةَ دمشق ، يساندني في ذلك الجيش الذي فتن قواده بي ، ويدعمني السوق الذي سأعطي الحرية لمواثه ، ويحييني الشعب المدله بنزهاتي على الجواد .

((ولكـن ، القسطنطينيـة ، البـاب العـــالي ، الصدر الأعظم ؟.)) سيرسلون جيشاً أحطمه. أتعرفين لماذا سأحطمه؟ لأنني ، إلى جانب القوات التي قدمت لي ، قد جَنَدْتُ جيشاً من البدو في الصحراء . هذا شيء لم يستطع أحد قبلي أن يقوم به ، وليس هناك من يعتقد بإمكان حدوثه . لكنني أعرف منذ شهر أنني سأصل إليه ، بفضل التقائي رجلاً يجب أن أحدثك عنه .

فلقد استقبلتُ ، بعد رسالةٍ غريبـة ، هذه الشخصيـة الخارقة للعادة . لقد تعلق بي مثل الآخرين ، إنه لا يقود فرقة ، ولا يتعاطـى تجارةً كبيرة ، إلّا أنـه سيخدمنـي في السيطـــرة على الصحراء ، التي ينبغي أن نمسك بها إذا أردنا أن نملك هنا .

للسيد لاسكاريس ميزةُ كونهِ أوروبيّاً ، فيا للراحة التـي أجدها معه بعد حياتي مدة طويلة مع الأغراب ! وهو بالإضافة إلى ذلك من أسرة نبيلـة : سأعتمـده ، فهـــو أفضل كثيراً من باروناتك . ثم هو قد تعلم كل ما ينبغي تعلمه . إنّه يعرف الزراعة مثل فيزيوقراطي ، الصناعة مثل موسوعي . لقد سألتـه مرات

عديدة ، عن وسائل استثمار ثروات الصحراء : إنَّ رأسه يعج بالمشروعات الهائلة وأعدك بألا تكون موضوعات رسائلي المقبلة فقيرة .

كفايته في الأعمال العسكرية أصيلة . إنه لا يعاشر الأتراك ، ولا يعرف شيئاً عن جيشهم ، إنه يعرف البدو بالمقابل . كيف؟لا أعلم شيئاً عن هذا. إنَّه، في هذا المجال، متحفظ، ينطلق قليلاً ، ثم يكتفي بذكر معارك غامضة خاضَ غمارها .

ولما كنت حذرةً جداً في البداية — لأننا نلاقي كثيراً أمثال هذا الشاب المتغطرس — فقد تحققت من بعض مزاعمه بوساطة إنسان يدعى بوركهارت ، وهو سويسري مارق يدرس هذه الأمور . لاسكاريس لا يخدعني في عدد البدو (الذين يمكن رفع عددهم من ثلاثين ألفاً إلى أربعين) ، ولا في موضوع تسليحهم (يدعو للرثاء ، إلّا أن بالإمكان تدبر هذا الأمر) .

ولقد دفعتُ محاولات تأكدي من تأثيره المدَّعى ، فرجوته أن يصحبني بزيارة تبعد ثلاثة أيام من هنا ، لدى أمير قبيلة

شرسة : بني حسن . لقد وجدت شيشروني على صلة طيبة بهم ، يحترمه هؤلاء القساة ، وزعماؤهم وأميرهم نفسه . ولقد تبادل معهم أحاديث سريّة مشبوهة حول زيارتي المقبلة لتدمر ، أحاديث أزعجتني حقاً . ذلك أنَّ هذا العصفور الذي هبط عليَّ من السماء لا يخلو من عيوب . فهو يجهل نفسه بشكل مضحك ، على الرغم من معرفته الجيدة بالعالم الذي يحيط به . إنه يرى نفسه جميلاً ، وهو ليس إلّا إنساناً مثيراً للاهتمام . يتخيل أنَّه عفيفٌ طاهر ، وهو ليس إلا خجولاً . يظن بأنه لا يعوّض ، وهو ليس إلّا شخصاً نافعاً . إنّه خاصة يفرض نفسه سيّداً مطلقاً على الصحراء ، والصحراء لا تحتمل إلا عاشقاً واحداً . ينبغي إذاً معاقبته أحياناً ، تذكيره من هي الملكة التي تستشيره . لقد اضطررتُ ، مراتٍ عديدة ، إلى شتم هذا الرجل الشجاع ، مبيّنةً له أن ستانهوب عنيدة وتنام وحيدة .

ستعترضين قائلة « وحيدة . أيتها الوقحة . ماذا ؟ أيعقل ألا يكون هناك مغامرة ، ولا انفعال عاطفي في هذه الأرض

العاطفية جداً . ولا عناقات مسكرة مع هذا أو ذاك من هؤلاء الضباط الوسيمين الذين يعبدونك ؟ » .

نعم أنا وحيدة . أنا بحاجة ماسة إلى جميع هؤلاء الرجال لأختار من بينهم مَنْ أفضل . أُلمح بلباقة ، أُعد قليلاً ، ولا أمنح أحداً شيئاً .

وتسألين بهيئتك المخنثة المكّارة « ولكن ؟ ماذا بعدُ ؟ » ماذا بعدُ ؟ يبقى العبيدُ ، يا ابنتي الحلوة ، فهم يقدمون الرفاهية وسهولة العيش . رجلٌ من رجال الضواحي يستأجر لي ديكة في الليل ، ثم يبيعُها في الصباح إلى تجار القوافل من الفرس . ويكون هؤلاء الرجالُ الديكة في طريقهم إلى أصفهان قبل أن يدركوا ماذا حلَّ بهم . يصدمك هذا بلذة ، أليس كذلك ؟ أعبدك .

ملاحظة

هل وصلتك هديتي من نبيذ قبرص ؟ أرسلي لي معقود الثمار ، فالأتراك يجهلون مشروب توت العليق .

لاسكاريس ، (مذكرات كانون الأول ١٨١٣)

ها نحن أولاء في تدمر ، منذ يومين . كنت أفضل السفر وحيداً على هذه الدروب المألوفة ، والإفادة بعض الوقت من ضيافة قبيلة ضفير ، والتحاور براحة مع فتح الله ، وعدم التظاهر بغير ما أنا عليه ، وأن أكون أخيراً أنا ذاتي . لقد داعبني بعض الوقت الأمل برحلة أكثر مجداً : فلقد مررتُ بعظمة ، إلى جانب الإنكليزية ، يتبعنا موكبٌ طويل من الحاجيات والخدم أمام البدو المدهوشين ، صرخات تحيتهم أقنعت ستانهوب ، وروعة الموكب ذكرتهم بمكانتي ... كان عليها أن تخفف من غلوائها .

ولقد خفتُ أنا من غلوائي بسرعة ، منذ التقيت ستانهوب في قصرها بدمشق ، الذي أدخلني إليه رسولها الأصلع الذي أحضرني . لقد أعددتُ بدقةٍ تفاصيل هذا اللقاء ، إلّا أن ذلك فاتني على نحو مزعج .

لقد توقعتُ ترحيباً آخر ، تتبعه أسئلة مركزة تتكسر فيها

قدرة النبيلة أمام قوة المغامر الكهل . كنت أنتظر فضولاً مستثاراً . وتلذذتُ سَلَفاً بالغموض الذي سأغزل خيوطه : فليس أكثر سحراً ، في مثل سني ، من التآمر على ليدي . كنت أتوقع منها أيضاً محاولات إغراء ، يصدّها ، من جهتي ، وقار أب . كنت أنتظر كل شيء ، ما خلا هذه اللامبالاة التي استُقْبِلْتُ بها .

أسئلة عن أسرتي ، وعن نظام جزيرة مالطا ـــ فكل ما يفسر الشعارات يسحرها ـــ بعض ملاحظات عن الصحراء ، تبعها حوار طويل ثقيل عن الامبراطور اورليان والطرق التي اختطها هنا . كنت أعرفه جيداً ، فلقد ترك بصماته لدينا أيضاً ، في البروتاني ، وكنتُ أملك عن تاريخه بعض الأضواء . وكان ذلك كافياً لحصري نهائياً ودفعة واحدة في خانات رأسها التافه : خانة أستاذ مثقف بعيدة ، بعيدة جداً عن مكانة سمو رجل أشيب ، أو خانة أوسع ، خانة يتدافع فيها العشاق المحتملون .

(آه ، يا للحمقاء ! يا للسفيهة القديمة التافهة حقاً !

أحاول أن أبقى هادئاً ، يقال إنَّ الجاسوس الحقيقي لا يكشف عن حقيقته ، لا في الحياة ، ولا حتى في هذه المذكرات ، كما لو أن هناك من سيقرؤها ذات يوم . فلأبق مكتوماً حتى النهاية في هذه الحرارة ، والضيق ، والضربات المردودة ، والمواجهات . ولأبق هادىء الأعصاب ولو بدوتُ بارداً : فلقد كان فتح الله يلومني على ذلك . إنما ، مع ذلك ، أمام إمرأة مجنونة بخبث ، وتريد أن تمتلك الصحراء ، لتقوم بدور الملكة فيها ، لي الحقُّ ، أمام مثل هذه المرأة ، في السماح لغضبي بالإنفجار . لكن ، لنمض ، لنتابع هذه المهزلة .

منذ ذلك اليوم ، ولقد مضى على ذلك شهران ، وأنا أحاول إقناعها بأنني أصلح لأمر آخر غير قراءة الكتابات ، أو رسم النواعير . إلّا أنّني كنت أقاسي من صعوبة إثارة انتباهها إبّان إقامتها بدمشق : فشارب بسيط أسود ، ونصب تاريخي تافه مزين يثيرانها أكثر مما تفعل أحاديثي عن البدو ، وأمضيت أياماً من دون أن أتمكن من محاورتها . كنت أضيع في جمهور المتملقين العديدين

الذين يحيطون بها ، حيث أصبح من الصعوبة بمكان التعرف إلى العاشق الساخط ، أو إلى المفضل في الغد ، أو إلى الطفيلي الذي ينتظر الأجر .

وغضبت لوقوعي في هذا المأزق ، وقادني الغضب أحياناً إلى الخرق والرعونة . لقد تكلمتُ ذات مساء طويلاً عن السعوديين ، بحضور ضباط أتراك ، رأيتُهم يقطبون حواجبهم ، وأسفت كثيراً لحدتي تجاه الإنكليزية في موضوع متذلق كان يعرض نفسه دليلاً في الصحراء : فلقد أحسستُ في البرق الذي التمع في عينيها الشهلاوتين ، أنَّ النبيلة لا توافق على أن يُمْلَى عليها سلوكُها . وكان عليَّ أن أعتذر أنا . ووجب عليَّ من بعدُ ، أن أذهب إلى الشيطان .

ومع ذلك فقد حصلتُ على وعد بالكتابة إلى لندن ، لتقويم معرفتي العربية ، وتجربتي ، وكرهي لنابليون ، بغيةَ الحصول لي على عمل . وبدا لي بوضوح أنني لن أصل إلى شيء مع هذه الطائشة ، إلّا أنّه كان بإمكانها أن تُلْفِتَ إليَّ أنظار العسكريين :

فهم الذين سيفهمونني . ومعهم أستطيع التحدث بجديّة أعمق ، وعرض آرائي بشكل أوضح . وسضع مخططاً ، وسأحصل على المدافع وأستولي على بغداد .

وكان عليَّ في انتظار ذلك ، أن أخضع لنزوات الميلادي . كانت إقامتها في تدمر ، لمدة طويلة ، تعرضنا لأخطار كبيرة . قلت لها ذات يوم إن المغامرة يمكن أن تتحول بفضلي إلى رحلة امبراطورية الموكب . ولم أصدق ، كالعادة ، وكلفت ، بكل بساطة ، أمر مهمة استكشافية . ولقد أضافوا إليَّ الطبيب الأخرق الأصلع ، خوفاً من تعريضي لمخاطر الصحراء . ولقد ضايقني بنواحه الأحمق ، وفكرتُ ، أولاً في تركه لرمال الصحراء . وبدا لي أن من الحكمة اصطحابي مدام لاسكاريس لكي أعادل ثرثراتِ الطبيب بصُراخ المرأة الشرسة .

وتقوم كاتينكو بالرحلة معي : فيا للسعادة التي كنت ستحسُّ بها عندما أريها الصحراء ، وفجر الشتاء الرمادي فوق الرمل الأبيض ، وجدران بيمارستان القريتين ، وخرائب تدمر ،

وخيول البدو تركض في البعيد فوق الكثبان ! أتكون سعيدةً في مخيم الرولة ؟ مادمنا قد تخلينا ، مؤقتاً ، عن باريس ، فهل بالإمكان تخيل مستقبل لها لدى البداة ؟ فكرة عابرة ، وشرسة بالنسبة لأبٍ : فحبي لحياة الصحراء يتبارى مع ذعري من تعريض هذه النعومة الشقراء لمثل هذه القسوة المذكّرة : أميرة نبيلة فوق محفة غنية ، يحيط بها العبيد ، ويدللها زعيم باسل مقدام ، لماذا لا ، لكنْ ... هناك صورة أخرى تفزعني : صورتُها وهي تسحب الماء من بئر في الساعة التي يقيل فيها الرجال ، وترفع خيمة محارب مغمور .

تحدث إليَّ جماعة من قبيلة ضفير في سوق القرية : كانوا يبيعون الماعز ، ولم يتعرفوا إليَّ . فتح الله عندهم ، في مخيم لا يبعد سوى ساعتين عن هذا المكان : سيعلمونه بمقدمي في الغد . سأرسل مدام لاسكاريس وكاتينكو للنزهة بين الخرائب ، سيجن الدكتور فرحاً بصحبتهما من دوني ، سيغازل غزلاً مضحكاً زوجتي التي تتقبل ذلك منه بعرفان للجميل فخور . سيكون يوماً جميلاً عامراً بالأمل بالنسبة للجميع .

ساعتان فقط ، ووصلت . كان الطقس رديئاً : ريح شمالية متجمدة محملة ببرد الأناضول ، يصحبها وابل خشن لم أعرف مثله من قبل في هذا المكان ، كانت الخيام يتجمع بعضها إلى جانب الأخريات في واد صغير ترعى في أعماقه الجمال ، التي تتجمع أكفالها هي الأخرى ، وتتجه مشافرها نحو الجنوب ، صامتة حزينة في وجه الزوابع .

لم يكن هناك حرس : ولم ينتظرني إنسان كم تنسى الإشارات بسرعة ! وكم كان بودّي أن أضرب بالسوط ، في مجلس القبيلة ، محاربين بمثل هذا الجحود ! إلّا أنه كان لديَّ عمل ، ولقد تعزيتُ بضرب الأولاد الذين صحبوني إلى خيمة كبير القوم ، بخيزرانة كنت أحملها بيدي .

تعرف إليَّ هذا الكبير بسرعة ، كان أعور قصيراً بديناً ، ثم رحب بي بجفاف عزوته بسهولة إلى عامل الزمن . وبعد أن أحيا بنفسه النار الضعيفة التي كانت تملأ بدخانها الخيمة ، أرسل يستدعي فتح الله الذي كان يغازل النساء .

واقتحم الخيمة بعد قليل متدثراً بمعطف من فرو الغنم كان يمنحه وقار ضابط من ضباط الفرسان . لقد وجدته قد نحل بعد رحلة طويلة في جزيرة العرب المقفرة . كان شعره ينسدل جدائلَ خلف رأسه ، مثلَ رجال الجنوب ، بينما كان شارباه المقصوصان بنعومة يجعلان وجهه قاسياً ونبيلاً في آن .

شعرتُ بعاطفة عميقة عندما رأيته بعد ستة أشهر ، وأعتقد أنه ، على الرغم مما كان بيننا من منافسات ، قد كان سعيداً بلقاء معلمه . وجلسنا في ركن مظلم من الخيمة بعد أن تعانقنا مرات . وأتى بعض الرجال لتحيتي ، ثم بقوا حول النار التي كانت تنضج القهوة على لهب خجول . وسقطتْ حباتُ الجليد من جديد ، مع صرير لطيف ، على ظهر الخيمة التي كانت تتساقطُ منه خيوط من الماء المتجمد ، الذي كان يغيب بسرعة في الرمال .

عند ذاك قصَّ عليَّ فتح الله قصةَ سعود ، لم أحتفظ من حكايته الطويلة إلّا بالأساسيّ . سأُجمِلُه هنا ، محاولاً أن أوجد

الكلمات والجمل التي يفضلها ، معلناً عن عدم جدارتي بإعادة نغمة حديثه البسيطة ، وصوره الشاعرية المعتنى بها ، ولثغته بالراء التي كانت تذهل البداة .

حكاية فتح الله (كانون الثاني ١٨١٣)

انتظر ، يا سيدي ، انتظر : فسعود واتفاقنا معه لن نصل إليهما إلّا في نهاية قصتي . هَدِّئْ إذاً من روعك . لقد رأيتُ الدرعيةَ ، عاصمةَ العرب . إنّها تقع فوق أرض صلبة وجميلة ، إلّا أنَّ الوصول إليها قد عرّفنا أننا ، قد اجتزنا مصاعب ، ومررنا بتجارب . تريد أن أختصر : سأحاول .

عندما غادرتَنا لكي تعود إلى دمشق بعد معركة سلمية (أذكر رحيلك في شهر تموز ، كان الطقس حاراً جداً) ، حرر ابن الشعلان القبائل من إلتزاماتها ، كما نصحتَ ، فتفرقت إلى أمكنة متباعدة . أمّا أنا فقد بقيتُ مع عشيرة الرولة ، ثم بدأنا بالنزول باتجاه الجنوب ، في رحلاتٍ قصيرة لا تُجهِدُ دوابنا .

كنت أمتلك مهراً استوليتُ عليه من الأتراك ، وكان حيواناً رائعاً . كان السعوديون قد تركوا كثيراً من الخيول خلفهم ، وأنت تعرف كم هي جميلة ، هذه الخيول العربية ! وكم هي فخورة بنوعها ! إنَّها متحدرة من نجد ، أرض سعود حيث شهدت مرابط لتربية الخيل ، يموتُ شوقاً لرؤيتها أصحابك من النبلاء . كانت قطعاننا قد زادت عدداً بما أضيف إليها من جمال العدوّ ، وكانت خزائننا مليئة ، وأكياسنا مكتنزة بالطحين ، وكان الجميعُ يضحكون سروراً بهذا الثراء . كانت النسوة ، في المساء ، يرقصنَ حول النيران ، ويأتي الشعراءُ لينشدوا آخر ما نظموا ، شعراً تحدثوا فيه كثيراً عنك ، وكنا ندخل ونحن نحلم بأن البدوَ إخوة ، كما كنتَ دائماً تقول .

هاجمنا قافلة صغيرة ، في مكان قريب من هذا المكان ، كان أكثر أفرادها من الفرس ، وبعضهم من النصارى الذين أطلقت سراحهم من دون أن أزعجهم .

كان الخريفُ قد أقبل عندما بلغنا الجوف . كان ابن

الشعلان يريد أن تقيم قبيلته فيه ، كما هو شأنها في كل عام : أرض مخصبة ، فيها ماء كاف ، وشجيرات دائمة الخضرة تلتهمها النوق ، ويظهر أنها جيدة جداً من أجل الحليب . عسكرنا في ظل جدران المدينة ، حيث علقنا مشانق بعض الأتراك ، وفرضنا إتاوة على التجار . ثم أرسل ابن الشعلان هدايا إلى القبائل المجاورة ، (الحويطات وبني شاكر) ، ليطمئنهم على حسن نواياه . وبعد أن اتخذنا جميع الاحتياطات ، وأصبحنا متأكدين من أنَّ بإمكان الرولة قضاء فصل الشتاء في سلام ، أعددنا أنفسنا للرحيل إلى الدرعية لمقابلة سعود ، وعرضٍ تحالفنا عليه ، والتماسِ مساعدته ضد الأتراك .

كانت سفارتنا قليلةَ العدد . اختار ابن الشعلان التواضعَ لكي لا يثيرَ حفيظة العاهل المخيف . وهكذا كنّا مع الأمير خمسةَ عَشَرَ رجلاً : حملة أسلحته ، و سوّاس صقوره ، وأربعة مقاتلين وعبداً أسود ، وأنا . ورافقتنا ستة جياد احتياط وثلاثة جمال للأمتعة ، حمل أحدها هدايا للملك .

وجدت جماعتنا خفيفة بالنسبة لمثل هذه المغامرة البعيدة ، في أرض تفرض فيها الاتاوة على قافلة عدد رجالها خمسة آلاف ، إلّا أن أميرنا كان يؤمن بحسن طالعه ، وبجوازات المرور التي أرسلها سعود إلينا . أمّا أنا فكنت أعتمد خاصة على دليلنا من قبيلة شمر . لقد ضمنا على الأقل حياد هذه الجماعة ، سنجتاز أرضهم ومكانهم ، بالنسبة للمسافرين ، كشراستهم أسطورية . كنت لا أعتمد البتة على جوازات المرور .

وكان الأمير على حق ، فجزيرة سعود العربية ، ياسيدي ، ليست البادية السورية ، إنها بلد مراقب جيداً . يعاقب فيها ، من دون تردد ، قاطع الطريق ، وتنفذ بدقة أوامر العاهل ، وتُحتَرَمُ جوازات السفر التي يمنحها . سنحت لنا ، بالتأكيد ، فرصة استلال الحسام ، إلّا أن ذلك كان ضد لصوص جبناء كانوا يهاجموننا ، من دون حماسة ، ويهربون ، من دون حياء ، عندما يلاحظون أول بادرة مقاومة . ولقد أسرنا أحدهم في الأيام الأخيرة من الرحلة ، واقتدناه مربوطاً وراء جمل بعض الوقت ، قبل أن يسلمه الدليلان إلى رجال الشرطة المحلية . تذمر أميرنا ، ووجد في

ذلك تصرفاً شبيهاً بما يفعله الأتراك ، إلّا أنه على هذه الصورة كما أعتقد غدت المملكة آمنة مطمئنة .

وإذا ما كان النهابون قد تركونا وشأننا ، فإن العطش لم يهملنا ، وإنني لأرتجف كلما فكرت في النفود .

إن جزيرة الجغرافيين القدامى العربية ليست مقفرة . لقد زرتُها ، إنها مسكونة ، وضاحكة أحياناً ، إلّا أنها محمية ، في الشمال بصحراء صدّت القوافل دائماً . هذه الصحراء هي النفود ، والنفود ، يا سيدي ، هي الجحيم .

خرجنا من الجوف وقطعنا بساتين النخيل : وصلنا في أقل من يوم إلى قرية قارة . الدرب إليها سالك ، والرعاة يظهرون بين الشجيرات . لا آبار ، بالفعل : فهذه هي الصحراء ، ولكنها ليست النفود بعد . بعد (قارة) بدأنا في تسلق منحدر محصب لا ينتهي : لا شجرة نخيل ، ولا ضجة تسمع ، سوى صوت تنفس الدواب . كانت الشمس تلتمع فوق الصخور : هذا هو

الحماد ، الذي يذكرنا بمناظر بلادنا السورية . هذه صحراء أخرى ، ولكنها ليست النفود أيضاً .

واعترض الأفق ، في المساء ، في الجنوب خط أحمر : أهو انعكاس المغيب ؟ أم سراب ؟ لا ندري . وفي الفجر التالي كان ذلك الخط لا يزال موجوداً ومحتوماً لا مفر منه . هذا الخط الأحمر ، في البعيد هو النفود . نتقدم ، والساعات تمضي ، يرتفع الأفق ، يتموج ، يغدو شريطاً ارجوانياً ، كتلة بنفسجية ، جداراً من الغرانيت . عسكرنا في المساء في أسفل جرف . وأخذ الرجال يتخيلون ما ينتظرهم .

كانت النفود هناك ، سهباً وعراً من الرمال الرخوة ، مرتفعة فوق الحماد ، خشنةً موجودة مع أسرار الرياح . ربما كانت كوكباً من الرمل أتى يوماً ما يتكسر فوق الصخرة العربية الواسعة ، مغطياً إيّاها بهذه المادة المحرقة ، التي يبلغ سمكها ست مائة قدم ، والتي قضينا ستة أيام في اجتيازها ، إنها صحراء توضعت فوق صحراء .

وبدأنا في تسلق المرتقى . رجالنا ودوابنا معتادون على تحمل

الألم ، ويعرفون كيف يتحدّونَ العطش ، والحرارة ، والتعب .
ولكننا عندما تسلقنا هذا الجدار من الرمل ، آملين أن نكتشف في أعلاه امتداداً مسطحاً نستطيع فيه أن نمشي بسهولة ، وعندما وصلنا إلى القمة ، ولمحنا ما هناك ، عندئذ ذاك ترنح الرجال والحيوانات ، وقد أصيبوا من النور ، والغبار ، والخوف ، بما يشبه العمى . ذلك أنَّ الصحراء هناك في الأعلى ، لم تكن مسطحة ، بل كانت مثقبة بحفر غريبة ، كان علينا أن نقطعها في خط مستقيم ، في وضح النهار ، لئلا نضيع آثار الدليل . يجب علينا ، إذاً ، تحت الشمس ، صعود هذه المنحدرات الهشة الخائنة وهبوطها ، ثم صعودها وهبوطها مرات ، بدون توقف : الجحيم ، يا سيدي ، هي النفود .

ويستمر الركضُ ، وتغرق الجمال في الرمال حتى ركبها : فليس هناك ما هو أسوأ من هذا الرمل الأحمر الدقيق جداً . والذي يكاد يكون متحركاً . يجب على الفارس ، في كل لحظة ، أن يقفز إلى الأرض ، ويأخذ المقود والهراوة ليخرج مطيته . هناك بطء

القافلة في جهة ، ونفاذ احتياطي الماء السريع في الجهة الأخرى : وكان السباق ، بالفعل ، قد بدأ بينهما .

كان دليلنا يرقب معالم الطريق . زاوية من صخرة في البعيد ، باقة من عشب رمادي ، كومة حطب ميت مكدسة من السنة السابقة . كان أحياناً يفقد دربه ، فيوقفنا ، ويرسم حولنا دوائر كبيرة حتى يتمكن من رؤية الإشارة المنقذة . الإشارة التي تقود إلى آبار (شقيق) . احتجنا إلى ثلاثة أيام حتى بلغناها ، هذه الآبار الثلاث المنحوتة في الصخر والتي أنشأها النصارى من قبل ، والتي قدمت مثاباتها من احتكاك الهبال . إنّها آبار ثلاثة فقط ، يا سيدي ، في صحراء النفود كلها .

وبعد شقيق آه ، يا إلهي ! بعد شقيق قيل لنا : أمامكم خمسة أيام حتى تبلغوا (الجبه) ، حدود النفود ، أي الخلاص والنجاة . خمسة أيام إذا ما جرت الأمور كما نريد ، وإذا ما كان الرجال قادرين على السير وهم يسحبون دوابهم المنهكة ، وإذا ما استطاع الدليلُ العثور على آثاره ، وإذا لم تسقط الجمال . أنت

تعرف ، يا سيدي ، أنه يجب أن يشرب الجمل في اليوم الرابع .

سمّاني الأمير ، شيخَ الماء ، السيد المطلق على احتياطنا الفقير ، والمشرف على القِرب وحاكماً مطلقاً على جرع الماء المقترة . منعت لذلك شرب نقطة ماء في النهار ، حتى على أميري الذي كان يترنح من الألم تحت شمس الظهيرة . وكنت في المساء ، وفي الصباح ، أقدم لكل واحد ملعقة من الجلد مملوءة حتى حافتها . وفي اليوم الثاني وضعت حصوة في قعرها قبل أن أملأها ، ثم حصوة أكبر في اليوم التالي ، ثم ثالثة أكبر في اليوم الثالث . كانوا ينظرون إليَّ من دون أن يتفوهوا بكلمة ، لسانهم أسود وشفاهم مرملة ، مقدرين من حجم الحصوة الماء القليل الذي قدم لهم . نقطتان ، في المساء الأخير ، فلقد غدت الحجرة كبيرة بحيث ملأت الملعقة .

لم يعد الرجال يغنّون أبداً ، فلقد انكفؤوا على ألمهم ، مركزين ما بقي من طاقتهم ، على التقدم خطوة ، للإنغماس في الرمل ، وسحب ربلة الساق الثقيلة كالصلب ، مستندين إلى زمام

الجمل ، تم الشروع في الخطوة التالية ، وفي خطوة أخرى من بعد .

اجتزنا صخور (عاليم) ، حصون الحجر الرملي التي تسهر على العدم ، وكان ذلك بعد ثلاثة أيام من (شقيق) . كانت الجمال تثير من الشفقة أكثر مما يثير الرجال ، واحد منها خاصة ، ذلول طويل من نياق السباق الذي انتصر في أكثر من معركة والذي كان يبدو الآن مغلوباً على أمره ، بسوقه الطويلة ، مغلوباً على أمره بجنون سيده الذي صحبه معه بعيداً ، في هذا التموج من الرمل ذي الحفر العميقة التي سيموت فيها ، من دون ريب .

ولم يمت ، ذلك الذلول الطويل ، فلقد لمحنا في اليوم الخامس ، وعندما نضب جميع احتياطينا ، من الماء ، جبلَ شمّر ، الذي هو نتوء مرتفع وحشي يعلن عن (الجبه) وآبارها عن نهاية النفود ، عن الحياة .

أعتقد أننا لو خيرنا لاخترنا البقاء أُسبوعاً في (الجبه)

لنستريح في ظلال أشجار النخيل ، إلا أنَّ ابنَ الشعلان ، كما تعرف ، ليس الرجل الذي يتأخر إذا ما كان عليه إنجاز مهمة . لذلك استأنف المسير في مساء اليوم التالي ، متزودين بالتمر والبطيخ اللذيذين . واجتزنا جبل شمّر في ثلاثة أيام ، ثم بدت أمامنا مدينة (حائل) .

إنّها بلدة قصبة تتألف من حوالي ألف منزل ، نظيفة جداً ، ومملوءة بالحدائق . تحصيناتُها بدت لي تافهة : جدار ارتفاعه عشرة أقدام ، وسمكه قليل ، وآجره يستسلم أمام بضع قطع من مدفعية ، ولو كانت خفيفة ، أمّا قصر أميرها فقد بدا لي أكثر تحصيناً بجدرانه وحصونه البارزة حيث لمحت مدافع اشتُرِيَتْ ، كما يبدو ، من الكويت . لقد قمتُ كما علمتني برسم مخططات دفاع المدينة وقلعتها . وستكون مسروراً من عملي ، مسحتُ الخندقَ متظاهراً بأنني أعبث ، بينما كان ابن الشعلان يتناقش مع الأمير ، المسمى رشيداً ، وهو نبيلٌ من قبيلة شمّر ، عيّنه سعود أميراً على مدينة حائل ، وبدا لي مسيطراً جداً على حاشيته . استقبلنا بلطف . فهؤلاء الرجال الذين كانوا يخافون منا على

ضفاف العاصي ، يشعرون بأنهم مطمئنون في حصونهم . ولقد خمّنا ، في نظراتهم ، أنهم لولا جوازاتُ مرور سعود لكانوا آثروا خنقنا ثأراً للنوق التي كنا قد احتزناها منهم .

بقينا في حائل أسبوعاً ، كان ابن الشعلان يحضر في كل صباح مجلس الأمير ، وكانت القبائل المجاورة ، وقد علمت بمقدمنا ، تأتي لتحية سيد عشيرة الرولة . ولقد وزع الهدايا ، بعد أن دهش لشعبيته في منطقة بعيدة جداً ، كما وافق على تزويج فتيات ، ووضع بعض القبائل تحت حمايته ، كما كان يفعل بين عشرة آلاف مقاتل في مراعينا على الفرات .

مكانة ابن الشعلان هذه لدى هاته الجماعات ، التي ترفع من قيمتنا ، أزعجتني . فالأمير رشيد استثير أيضاً ، وسمعتَهُ يتذمر ويبرطم عندما أتى شيخ شرذمة صغيرة من أعماق الرمال ، يقبل يد زعيمنا . لا بدَّ أنه قد أرسل إلى سعود تقارير عن إقامتنا ، وإنني لأتساءل كيف سيتحمل الملك وخزات الإبر هذه لسيادته المطلقة .

بين جدران المدينة كان الصنّاع وأصحاب الحوانيت يعاملوننا بلا مبالاة . فهؤلاء كانوا مرتبطين بعاهلهم ارتباطاً وثيقاً . لقد خلّصهم من السلب ، وحماهم بذراعه القوية ، والقاسية أحياناً . وفي حائل رأيت للمرة الأولى الشرطة الوهابية . إنهم يندفعون ، في ساعات الصلاة في الشوارع وعلى الساحات وفي البساتين مسلحين بهراواتهم ، يسبّون المتأخرين عن الصلاة ، ويدفعونهم نحو المساجد ، ويضربون جميع هؤلاء الذين تظهر على هيئتهم علائم الرفاهية . ولقد اختفى التبغ ، لذلك أشعل غليوني ، في غرفتي مساءً ، متخذاً احتياطات كثيرة .

غادرنا حائل محملين بهدايا أميرها . كما أهداه ابن الشعلان مسدساً تركيّاً وبضع قوارير من القار .

كان طريقُنا يجتاز منطقة القصيّم . رأينا فيها مراعي خصبة تفصل مدناً عديدة محصنة ، ومحاطةً كلها بالبساتين . النواعير تصرّ في حقول الشعير والعدس ، التي اجتاح الجراد الكثير ، في هذا العام ، بعضاً منها مع الأسف . تسر العين لرؤية هذه المنطقة

الجميلة والشعب فيها يبدو سعيداً ، كنا نلتقي قرويين أكثر مما نلتقي بدواً ، ولم نجد فيها هذه المخيمات التي نَحسّ في داخلها بأننا أكثر راحة ، (عنيزة وبريدة) أفضل أماكن هذه المنطقة ، وقد أعددت لك مخططيهما .

يتغير كل شيء عندما نصل ، جنوباً إلى نواحي نجد ، موطن سعود ، ومهد قبيلته ، ومعقل قوته . الرجالُ هنا أطول قامة مما هم هناك ، وأقسى أيضاً وأكثر صرامة . كل دقيقة من حياتهم تتصل بالدين ، وهذا الدين لا يبدو سهلاً .

لقد صورتَ لي صرامةَ الدعوة الوهابية ، وأحسستُ بأنك تهتم بهذه الناحية ، وربما تتعاطف معها : هذا شأنك ، يا سيدي ، إلّا أن التقشف والزهد بعيدان عني . فإذا ما حرمنا التبغ والموسيقى ، وانتزعنا خيوط الذهب من معطفي ، والنقود التي ترن في رحمي ، وإذا ما مُنعتُ من الضحك ، وكان عليَّ أن أتكلم بصوت خافت ، وأن أقطب الحاجبين وأن أستمع خمس مرات في اليوم ، لمواعظ هياكل مستنيرة ، فإنني أؤثر على ذلك إلهي ،

والجنة التي وعدني بها . آنا أرى ، أخيراً ، أنني أستثيرك ، فاعذرني ، فها نحن أولاء قد وصلنا إلى الدرعية عاصمة سعود .

تنقسم هذه المدينة الصفراء إلى خمس بليدات متفرقة في وادٍ تكثر فيه أشجار النخيل . سعود وأسرته يشغل واحدة من هذه البليدات ، في قصر حزين لم أرَ فيه مظاهر الثراء التي كنتُ أمنّي النفس بها : فإذا ما كانوا قد جردوا المساجد في مكة والمدينة من زينتها ، فلم يفعلوا ذلك ليزينوا بها مساكنهم . ابن عبد الوهاب الكبير يعيش في حي آخر يراقب هذا الأعمى المحترم الأخلاق والصلاة في جميع أنحاء المملكة ، يعاونه رجالُ شرطة مرد يستعملون الهراوات بشدة . ويتوزع شعب المدينة الصغير على بقية البليدات : ساسة خيل ، وبرادعية ، وحدادون ، وكل من يعيش من العمل للجواد وللحرب يعيش مرفهاً . كل أجزائها محصنة جيداً ، فكل حي يحمي الأحياء الأخرى ، والآبار في كل مكان ، بحيث تتحمل الدرعية حصاراً طويلاً حتى ضد مدفعية الأتراك . رسمتُ لك مخططات سَيَلَذُ لكَ النظر فيها .

أعلن عداؤون عن وصولنا . رافقنا فارسان صامتان من بعد عدة أميال ، وصحبانا إلى القصر : كانت شمس المغيب تلهب تراب صلصال الأبراج الضخمة عندما اجتزنا البابَ الكبير .

كانت الساحة الواسعة تعج بجنود أشداء يقومون بتمريناتهم كالأتراك . لقد أخافوني بكفياتهم التي تعقد في الحرب حول العنق ، وببنادقهم الجديدة . إنّهم أحسن حالاً من البداة ذوي الثياب الرثة ، والذين تغلبت عليهم قرب سلمية . لو أن سعوداً أرسل إليكَ هذه القوات ، لنزل بك شر مستطير .

كانوا ينظرون إلينا بفضول . كنا قد تركنا جمالنا في الضواحي ، وبدونا على الخيل في مظهر جيد . كان ابن الشعلان مستقيم القامة ، ثابت النظر ، يتلألأ ثقة وكبراً . كان ينتظر أن يستقبله الملك نفسه ، أو أحد أولاده على الأقل . ألم يرجع جيشه ؟ ألا يتحدر من أسرة محترمة كأسرة سعود ؟ ألا تساوي قبيلة الرولة قبائل الجزيرة كلها ؟.

استقبلنا ضابط بسيط من رجال البلاط ، حاجب يحيط به

ستة موظفون لونهم كامد . حيّانا مقطب الوجه بالتحية المعتادة ، التي كانت تقطعها دعوات شكر لله ، وإرشادات وعظات تدعو إلى الفضيلة : إنهم يخلطون على هذا الشكل ، لغة القرآن الكريم باللغة المبتذلة العامية .

ردَّ أميرنا بمجاملة متعالية قليلاً . بينما قست نظرات حراسه . فعداؤو الصحراء القدامى هؤلاء ، المتعودون على الفضاء والخيام الخفيفة التي تهدم بضربة سيف في مقتل فيها ، قد أخذوا يشعرون بأنهم غير مرتاحين في هذه الساحة الحجرية ، التي تخفي أبوابها الخشنة وراءها أبهاء مجهولة . كانوا يرون خطراً جديداً ، غريباً في صفوف هؤلاء الجنود المنضبطين الذين يبدلون مواقعهم في جماعات مع شيء من الآلية . كانوا ، من دون أن يفهموا دقائق الخطب السياسية ، قد لاحظوا في صوت شيخهم الإعلان عن خطر ، والتأكيد على مواجهة ، وأمراً صامتاً بالإستعداد لاستلال السيف والموت دفاعاً عنه .

وكان ابن الشعلان يبدو ، في الحق ، قلقاً . لقد وافق على

السفر إلى الدرعيّة ، بفكرة خضوع أخويّ لسعود . فاحترامه العفويّ للقوة الحقيقية قد ساعدته على فهم التحية التي سيرفعها إلى الملك . كما كان بوضوح ذكائه ، وبالحجج التي قدمتها له ، قد استعد لهذا التحرك . إلّا أنه كان يأمل بإصلاح لذات البين ، سريع ورائق بين أخوين بدويين كما اعتدنا أن نفعل ذلك كثيراً في الصحراء : يأتي زعيم وينحني ، ويعنفه الآخر قليلاً ، ويعرض بصخب قوته ، وتسامحه وكرمه ، ثم يتعانق الاثنان ، وينتهي كل شيء . هذا ما كان أمير الرولة ينتظره . أمّا الملك فكانت له خططه الأخرى .

وقادونا ، بعد أن عهدنا بجيادنا إلى عبيد ، إلى مساكننا . الملك ، كما قالوا لنا ، يقعد الآن في مجلسه ، يدرس أخبار الحرب ضد المصريين ، الحرب التي أفزعت الحجاز . بعثة من إمام مسقط تنتظر عدة أيام المثول بين يديه . هناك قادة جيوش من عسير ، تجار فرس ، مرشدون وهابيون قادمون في المناطق الشرقية ... كل هؤلاء لهم الأفضلية : ولقد نصحونا بالتحلي بالصبر .

وكلما تقدمنا في سيرنا تحت القباب القاتمة صغر عدد جماعتنا . قادوا عبيدنا إلى مهجع واسع أرضه من الطين المضروب ، وكان على حراسنا أن يتوقفوا في قاعة ضيقة ، ووجدنا أنفسنا الأمير وأنا ، في زنزانة مستديرة فوقها برج . كان أثاث الغرفة مؤلفاً من سجادات عتيقة ، وخزانة قديمة وغطائين . ثم جلبوا لنا سريعاً وجبة طعام رديئة فيها التمر والزبدة . ولمحتُ في نهاية الممر جنديين يقومان بواجب الحراسة : نحن إذاً ، شئنا أم أبينا ، سجينان .

كان على ابن الشعلان ، كما تريد أن تقول ، أن يغلي غضباً . كان عليه أن يثور كزوبعة ، كذئب جريح ، وهو يرى نفسه مفصولاً عن عبيده ، كان عليه أن يرغي ويزبد بعد أن فهم أنه قد عزل عن حراسه . ولكن لا ، لقد بقي صامتاً ، مكفهراً ، منهوك القوى ، يتصرف ، من دون أن يتفوه بكلمة . أعتقد أن قوة سعود التي ترى جيداً في تنظيم القصر ، وتحرك الجند ، قد كانت تثقل عليه ، وتسحره في آن واحد. إنه وهو الجاد، الشجاع في وضح النهار أمام أعداء غير منظمين مثله ، قد وجد نفسه مضطرباً

بين هذه الجدران ، في يدي عاهل منظم . إنّه يشعر في هذا الاتصال الأول له مع الإدارة ، أنه أعزل من السلاح ، مغلوب على أمره ، ولكنه مفتون حتى الأعماق لأن هذا النظام عربي وليس تركياً .

وهكذا بقينا بضعة أيام أسيرين إلى حدٍّ ما ... كان ضباط يأتون ، من وقت لآخر ، ليصحبونا للقيام بزيارات إلى نخيل الملك ، وأسوار الملك ، ومرابط خيول الملك ، ومدافع الملك . كنا نظهر ، بدقة ونزاهة ، إعجابنا بهذه الأشياء الرائعة ، وكان مضيفونا يعودون بنا إلى زنزاناتنا ، مسرورين .

ودعينا في اليوم الثاني عشر إلى مجلس الملك . رفض الأمير الظهور فيه من دون موكبه . وبعد مفاوضات ملتوية سمح له بهذا الفضل التافه ، شريطة أن يعلق حراسنا سيوفهم وخناجرهم في أوتاد الخشب التي توجد في الممر المفضي إلى قاعة المجلس وانضموا إلينا سريعاً فرحين ، لأنهم عادوا إلى أميرهم إلّا أنهم شكوا بصخب من فراقنا ، ومن عزلتهم الطويلة في أرض غريبة ، ومن

الطعام الذي كانوا يجدونه شحيحاً . عانقهم ابن الشعلان واحداً واحداً ، ووعدهم بقرب عودتهم إلى الجوف . أطلعهم على سمو مهمتهم ، والفائدة التي سيجنونها طوال حياتهم ، من هذه الرحلة البطولية ، ورجا أحدهم ، بلطف ، أن يعدل من كفيته ، ويجعلها أكثر صرامة ، وأقل بهرجة . الساعة تتقدم ، والملك يمكن أن يدلف إلى المجلس بين دقيقة وأخرى ، وسرنا وراء حاجب : في العين كبر ، والرأس مرفوع فخاراً ، إلّا أنَّ في القلب انقباضاً .

يدخل إلى قاعة المجلس عبر ساحة مثمنة ، غير بعيدة عن جناح الملك الذي يغطيه برج مربع في وسط القصر . وتتفتح القاعة ، مضاءة بنوافذ عالية يتدفق منها برك من نور تتناوب مع مناطق مظلمة . يجلس الملك دائماً في الظل ، مستفيداً من ذلك في إجلاس زائريه في النور أو في الظلمة ، حسبما يرتاب فيهم أو لا يرتاب . سألتُ نفسي : أي شيء يمكن أن يخشى في مجلسه ؟ فالممرات تغص بالجنود المستلقين ، المتوحشين ، والمضطجعين الذين تكفيهم قفزة واحدة حتى يدركوا باب القاعة الوحيد . وفي

القاعة نفسها ، يسهر على الأمن ، حراس الملك ، مستندين إلى الجدران . كانت دروع غريبة تغطيهم كلية ، مما يجعل هؤلاء البداة خلف حصون من حديد يحمون ، ممتشقي السيوف ، حياةَ سيدهم . إنّه يملك ، كما يبدو ، مئات من هذه الدروع . فمن أين أتى بها ؟ من فارس ، من دون ريب ، أو أنها كنوز الفرنجة المحفوظة من أيام الحروب الصليبية : أنت وحدك ، يا سيدي ، من يستطيع أن يقول لنا الحقيقة .

كانت القاعة تمتلىء شيئاً فشيئاً . عُمانيون بعمامات صفر ، فتى شاب وحيد أتى يقدم باسم والده تحية قبيلة بعيدة ، جماعة من التجار يدلفون إلى القاعة ، كل بدوره ، إلى ما تحت القبة . يقف الجميع منتظرين أن يشير الملك إلى كل منهم بمكانه ، وعند ذاك يمكن حساب مكانته وتقدير حظوظه في النجاح أو الخوف من رد فعل العاهل إذا ما أبعدك إلى الظل في أعماق القاعة .

بقي ابن الشعلان صامتاً ، يحيط به حرسه العزل ، بينما

كنت أذرع الغرفة الواسطة وأطأ الطنافس التي يظهر أنها ثمينة ، فاحداها ، وهي صينية صفراء يتوهج حريرها أمام مكان جلوس الملك . وتتكدس على جوانب الجدران حشايا من قماش خشن : ينتشر منها شذى عرق عذب الرائحة .

ودخل سعود ـ أدهشني أولاً ، بطول قامته ، وبساطة ثيابه . ثوب نظيف حاشيته تلامس الأرض وتخفي تماماً قدميه العاريتين : يخيل إليكَ أنه يطير مرتفعاً . ليس في معطفه البني الغامق ، الذي يكاد يكون أسود ، أية زينة ، وسعة طياته النادرة وحدها تكشف عن عظمة صاحبه ومهابته . كفيّة من قماش قطنيّ أبيض تحيط بوجهه ، مبرزة اللون الزيتوني ، والشعر الغريب الذي يخفي فمه ، والوجنتين والذقن في كتلة كثة من الشعر الأسود . لم أنسَ أنهم يلقبون الملك (أبا الشوارب) ، لكنني أُصبت بالخوف عندما شاهدت للمرة الأولى هذا الوجه المذهل ، وهاتين العينين اللتين تلتمعان في أعماق عليقة قاتمة .

اتجه سعود ، بخطى واسعة ، نحو الحشايا المتراصة التي

تكوّن عرشه . واستدار ، قبل أن يجلس ، نحو الموجودين ، ونظر في وجوههم طويلاً ، من دون أن يظهر حول ذقنه أية عاطفة . لكن الحاجب يعرف ، مع ذلك ، كيف يفسر نظرة عاهله ، أو الإشارة التي تعود أن يشير بها : فأجلَسَ ، بحركة ، النبلاء ، والعمانيين ، ثم من تبقى . وعندما أتى دورنا ، دعا الملك بنفسه ابن الشعلان ، بصوت صارم ، وحدد له مكانه . قريباً منه إشارةً للتشريف ، ومغموراً بالنور إشارةً للريبة والحذر . جلستُ على يسار أميرنا ، وأقعى حراسنا في دائرة حولنا .

وافتتحتْ الجلسة ، ينظمها الوزراء والمستشارون والكتبة الذين كانوا ينهمكون في العمل حول العاهل . صرف السفراء مع الوعد بكلمات معسولة ، وبشكر محدود للهدايا التي جلبوها . قدم العُمانيون أسلحة استعراض ، والبدويّ الشاب معطفاً مطرزاً ، ورجال قبيلة (البالوش) نسخة قديمة من القرآن الكريم ، لم يستطع العلماء المتغطرسون أن يقولوا شيئاً فيها . وأبدى الملك حرارة أكبر عندما أتى دور رعاة المناطق القريبة ، فهم يكادون يكونون جميعاً أقاربه ، أتوا ينظّمون قضايا الماء والماعز . ولقد

خصص لهم وقتاً طويلاً ، سعيداً بالبت في مسائل هؤلاء الريفيين الذين يبدو أنه كان يعلق عليهم أهمية تفوق اهتمامه بالتقارير العسكرية التي تلت .

ويغادر الزائرون المجلس الواحد بعد الآخر ، مسرورين أو خائبين ، إلّا أنهم يبدون دائماً احتراماً عميقاً تجاه الملك . وبقينا وحدنا في النهاية ، كان سعود يحدث وزراءه بهدوء بينما كان ابن الشعلان ينظر ببرود ، أما أنا فقد كنت أطوي ثم أُفرد ساقيَّ اللتين تصلبتا ، قَلِقاً من الإتجاه الذي اتخذته الأحداث .

ومال الملك ، أخيراً ، نحو أميرنا ، وحدّق في وجهه مطولاً . كان الآخر قد أعطى عينيه لون الحجر الرمادي الذي نعرفه جيداً : كانت عيناه تخيفان الزعماء الثائرين الذين لا يخضعون .

أكان ابن الشعلان على خطأ عندما أراد أن يسترعي انتباه سعود ، لأنَّ هذا الذي بقي حتى الآن هادئاً جداً ، قد بدأ بقذفه فجأة بقدح قاس . المسؤولون الذين يحيطون به بدت عليهم

الرهبة ، فلقد تصاعد الغضب ، مثل ريح رملية في الصيف ، على شكل دفعات خانقة بلغت هيجاناً تحس معه أنه قد غدا مريعاً . سمعنا أولاً ضمن جمل طويلة صماء ، تقريعاً ينذر بالشؤم ، سرعان ما استبدل بهبات من لعنات قطعتها فترات صمت ساحقة ، وأقبل الانفجار أخيراً ، على شكل إعصار من الغضب المدمر المتراكم منذ أشهر عديدة . رددت قبةُ المجلس صرخاتٍ معولة ضد الرولة ، وشتائم ضد ابن الشعلان ، وأسرته ، وأجداده ، وشتائم ، أخيراً ، ضد مستشاريه : ضدك وضدي .

احتفظت بعينيَّ مطرقتين إلى الأرض . وكنتُ ، من دون أن أتجرأ على الحركة ، أرقب ، من زاويةٍ ما ، سيف أحد الحراس ، الذي لم يكن بعيداً عني ، وأنا متأكد من أنه سيقطعٍ بعد قليل رقبتي ، وأن رؤوسنا ستتدحرج أمام المجلس ، مصعوقةً بالعاصفة التي نزلت بنا .

وعندما سكت سعود ، ومن دون أن نعرف ما إذا كان قد انتهى ، أم أنه سيستأنف غضبه بهجوم جديد ... نهض ابن

الشعلان ، وبدأ في الكلام ، معلناً أن ليس من المعقول أن يستمع الانسان جالساً ، إلى مثل هذه الإهانات ، وأنه قد أتى ليحضر مجلس أخيه . إنه ينهض الآن ليسهل مهمة قاتله . فإذا ما كان سعود قد قرر أن يقتله ، ناسياً حقوق الضيافة ، والدين وثأر الرولة القويّ ، فليعلن ، رحمةً به ، أن عنقه سيقطع خارج جدران هذه المدينة الملعونة .

ومع دهشتنا الكبيرة ، لم يجب الملك أبداً . بل هز رأسه ونهض فجأة ، وهمس ببضع كلمات في أذن أحد وزرائه ، وخرج من القاعة ، من دون أن يلقي علينا نظرة . واقترب الموظف منا مبتسماً ، وأغدق علينا بعض كلمات مطمئنة ، مشيراً إلى أن بإمكان الزعماء أحياناً أن يحتدوا إلّا أنَّ على مساعديهم أن يحتفظوا بهدوء أعصابهم ، كان الملك يرغب أن أعرض أنا فتح الله ، وفي جلسة أولية.، خطوط سياستنا الكبرى على وزرائه ، وكذلك أسباب زيارتنا والنتائج التي نرجوها منها . واقتادونا مرة ثانية إلى أماكن سكننا ، فلقد كانت ساعة الصلاة قد اقتربت . وبعدها ، إن شاء الله ، سأذهب إلى اجتماع يعقد مع النبلاء السعوديين .

عدنا إلى زنزانتنا . وقد خففت عنا نوعاً ما ، نجاتنا من غضب الملك . كنا أنا والحرس نضحك ، ونحن نقطع المساحات التي كانت تردد الأذان . وتخلص ابن الشعلان نفسه نوعاً ما ، من التصلب الذي لازمه حتى الآن .

وحلَّ محلَ القلق نوع من الدهشة : فلقد وجدنا أنفسنا مذهولين من تصرف السعوديين . وإلا ما تفسير هذا الغضب الذي لا يتصور والذي لم يتبعه ذبحنا ؟ كيف يجب علينا أن نفكر بأمزجة الملك ؟ وما الهدف الذي سيتابع اتجاهه إليه ؟ كذلك أدهشتنا طريقته في استخدام مستشاريه أكثر من أيّ شيء : ألم يكلفهم ، عندنا بتوضيح وجهة نظره قبل التفاوض ، ثم السكوت والصمت ؟ ولماذا ، إذاً ، دفعهم إلى مناقشات جديدة لا نفع فيها ؟ أكان سعود وابن الشعلان طفلين حتى يفرضا مثل هذا التصنع ، ومثل هذا الرياء ؟ .

وبقي أميرنا حائراً . فلقد كان ، وهو المتدرب على المجالس البدوية ، يعرف أفضل من أيّ إنسان آخر كيف يتفاوض

الزعماء ، زعيماً أمام زعيم . إنه يعرف تقطيب الحواجب ، الذي يقلق ، والانعطافات التي تشل . يعرف ترتيب لحظات المفاجأة ، التي يستل فيها الحرس خناجرهم بعد رفة عين ... وهو يعرف ، كيف يمسك بلحظات العناق العابرة ، عندما تكنس التحفظات موجات الصداقة الجديدة . كان يأسف لأنه اضطر إلى ترك العناية بالمحادثات الأولى إلى الآخرين ، ويتألم ، من دون ريب ، لأنه لا يملك إلى جانبه سوى مسيحيّ ، بينما هو بحاجة إلى جميع ما تتحلى به جماعة الرولة من نعومة ورهافة حس . لقد زوّدني بتعليماته ، وهو يرطم ، معبراً عن سخطه تجاه حيل الديبلوماسية التي يراها غير بدوية ، محجماً عن التأكيد بأنه يراها تركية . وعادوا يطلبونني ، بعد ساعات قليلة ، من أجل لقائي الأول مع وزراء الملك .

بعون الله تعالى ، سمحت لي الاجتماعات التي تمت مع هذه الشخصيات العالية المستوى بتذليل الصعوبات ، وتقليص البغضاء بين الزعيمين . وأعددنا للقاء جديد . وظهر الملك عندما استقبلنا

في اليوم التالي ، وكأنه قد تغير ، فلقد أظهر قدراً كبيراً من الصداقة والمحبة تجاه ابن الشعلان ، وإن كان قد ظل بعيداً عني . وعنف أميرنا من جديد ، ولكن بلهجة أخوية أكثر تهذيباً . عوتب على جنونه ، وعلى حمله السلاح ضد السعوديين ، وعلى سفاهته لأنه غلبهم . فما الذي يجاب به على هذا ؟ اتهمت ، باحتراس ، القواد السعوديين ، الذين علمت بزوال حظوتهم ، فقصورهم يفسر نجاحنا ، من دون أن أقلل من كفاية المحاربين ، ولا من عبقرية الاستراتيجية الملكية التي أرسلتهم . وأضفت بغموض لو أن الملك قاد الحملة بنفسه ، كما فعل ذلك دائماً ، فإن الأمور كانت ستتخذ مجرى آخر .

أما ما يتعلق بالدين ، فأترك ذلك إلى أميري للإجابة عنه . فقد ادعى ، بلطف ، جهله بأمور الله ، وأعلن عن استعداده لتعلمها ، ووعد بفتور ، بمنع شرب الدخان ، وبحظر مظاهر الترف . ووافق الطرفان ، على أن يقوم مرسلون من نجد ، بالسفر إلى الرولة حاملين دعوة عبد الوهاب .

بعد بضعة أيام ، ذكر سعود أمامنا حلمه بالوحدة العربية . لقد أجال فينا عينين لامعتين ، معلناً حججه وبراهينه ، مقتنعاً بأن إرادة الله ، ورغبة شعبه تدفعانه إلى تحقيقها .

فالعرب ، وهم شعبُ الله ، لم يعيشوا متفرقين إلّا عندما أنكروا وحدة الله التي لا تناقش . والمنازعات ، وقتل الأخ أخاه ، والحروب ، وهي نتائج الوثنية المشؤومة ، ستنقطع عن نفسها عندما يعتنق العرب الحقيقيون جميعاً الإيمان الحقيقي . إنَّ شعب جزيرة العرب ، باعتماده أفكار عبد الوهاب الدقيقة ، والتي كان سعود وأجداده من أدواتها ، قد وجد الوحدة والسلام . وحتى تنقى الرسالة المطهرة ، عرّيت مكة والمدينة من مظاهر الوثنية التي كانت تدنسها .

كان هذا جيداً ، إلّا أنه كان قليلاً . فرسالة الله التي كلفها سعوداً يجب أن تستمر وعرب سوريّا يجب أن يحرروا من نير الأتراك . ولكن نصل إلى مدينَتَيْ دمشق والقدس ، يجب احتلال الصحراء ، والتغلب على الأتراك . إنَّ الرولة ، بعنادهم قد أضروا ، بحمق ، تحقيق مشروع يتجاوزهم كثيراً .

كان ابن الشعلان متأثراً بوضوح ، وكان مقتنعاً . أليس الهدف من رحلته عودة شعبه إلى البيت العربي ؟ امتدح الملك ، وعظمة وجهات نظره هذه ، وأقسم له على إخلاص جميع القبائل التي تدين له بالولاء من الجوف حتى الموصل .

ولقد كلفت بتقدير الأعشار التي تحتملها كل قبيلة ، وبإعداد احصاء لقوتها العسكرية مع قواد الملك : فلقد كانوا يعدون العدة لمعركة جديدة في الشمال . وأعد الكتبة نصّ الإتفاقات بينما كان الملك وابن سعود يقومان برحلة صيد عجيبة .

كنت قد أخرت ، مطولاً ، اللحظة التي أردت فيها أن أتحدث إلى سعود عن فرنسا ونابليون . كنت أراه في كل صباح ، إلّا أنني كنت أخشى إثارة رجل متدين مثله ، بغرضي التحالف مع كافر . وكان عليَّ أن أفعل ذلك : فلم أنسَ بعد دروسك ، يا معلمي ، وسأبقى ، وإنْ لم تقر بذلك ، تلميذك ، وناشر أفكارك .

يجب علينا إذاً أن نكشف عن أوروبا ضباب الشمال الذي

يحجبها ، من دون ريب ، عن عيون هذا الشرقي ، وتحديد الأمم التي يعارض بعضها بعضاً على الراين والدانوب والفيستولا . يجب أن يحيا ظهور نابليون رجلاً استثنائياً . إنَّ معركة مصر قد أصبحت تحية للإسلام ، وفتح أوروبا انعكاس لاحتلال أجداد سعود لجزيرة العرب . وبإمكاني أيضاً مقارنة الأفكار مبيناً أنَّ الشعوب قد سلمت نفسها لنابليون باسم الحرية ، كما تدعو شعوب أخرى سعوداً باسم الإيمان الحقيقي .

استمع العاهل إليَّ بصبر مكار ، ثم أفهمني بجمل قليلة أنه يعرف عن نابليون أكثر مما كنتُ أظن . حدثني عن حربه ضد الإنكليز الذين هزموه في إسبانيا ، وهن هجومه على الروس ، الذي يعتبره مثيراً للاعجاب . كنا في تشرين الأول ولم نكن لا سعودٌ ، ولا أنا ، نعرف ماذا كان يجري هناك ، فوق سهول الجليد الواسعة .

ووصلنا إلى الإنكليز : الملك يعرفهم بصورة أجود . أليسوا جيران أتباعه في عُمان ؟ ألا تعج مسقط والبحرين والكويت

بعملاء هذه القوة ؟ إنَّ سفراءنا قد وصلوا الدرعية قبلي . أحس سعود منذ وقت طويل بقسوة السلطة البريطانية ، وذلك عندما دمر الإنكليز في عام ١٨٠٩ أسطول الخليج ، وضربوا بالمدافع مؤسساته في رأس الخيمة . فهو لذلك معجب بهذا الشعب ، قبل جميع العالم .

ولقد حدثني مطولاً عن مكانة الأمم الأوروبية ، وعن العون الذي يمكن أن تقدمه لمهمته . إنَّ مشروع الإنزال الفرنسي في سوريّا ، والذي كان لدهشتي ، على علم به ، سيوفر له الفرصة المناسبة لاحتلال دمشق والقدس . إلّا أنَّ حرب الحجاز تؤرقه أكثر من أيّ شيء آخر وهو يخمن أنَّ فرنسا تؤيد مصريي محمد علي ، وهذا ما دفعه اليوم للميل إلى إنكلترا ، والتخلي عن احتلال دمشق في القريب العاجل . إن هذه التحالفات الغربية ، مهما كان نوعها ، مؤلمة بالنسبة له . إن عقله يقبل أن يعتمد اليوم على أوروبة ، إلّا أن قلبه يقطر دماً لأنه يلتمس ، لنشر فكرته ، معونات أخرى غير معونة كتائب الله .

كنا نفكر في رحيلنا عندما علمنا ، في الدرعية ، بخبر سقوط المدينة المنورة ، في أيدي المصريين . أصبحت الفوضى في القصر لا توصف . ألغيت الاجتماعات ، وأخذ سعود يعقد الجلسات بلا انقطاع مع قواد جيشه .

لقد أخذت حرب الحجاز حجماً جعل مساندة الرولة لا يُستغنى عنها . لقد أجلت العمليات باتجاه دمشق ، وعلى ابن الشعلان أن يعد ، على العكس ، بارسال وحدات إلى الجزيرة العربية تنفيذاً للمعاهدة التي لم يَجِفَّ حبرها بعد . وكان علينا ، على كل حال ، أن نرحل في أقرب وقت ، وأن نعود إلى الجوف وإلى مخيماتنا ، لإعداد القوات المحددة للدفاع عن مكة ، والتفكير خاصة ، مع زعماء القبائل بنتائج التحالف . وهذا ما يفعله أميرنا في الوقت الحاضر ، في الجنوب ، حيث تركته قبل أن أكمل طريقي نحو حلب .

أمّا أنا ، فقد فهمتُ ، بعد تفكير هادىء أثناء مراحل العودة الطويلة ، أن تاريخ الرولة قد انتهى ، وأنّهم سيعودون ، من

جديد ، إلى مركزهم القديم قبيلةً صغيرة . كنا نود السيطرة على سوريّا ، وتحريرها ، وإنقاذها . وكنّا بحاجة إلى حلفاء . أنت تنتظر نابليون ، وأنا اخترتُ سعوداً ، ولعلهما قد أتيا ، لعلهما . ففي مكان بعيد ، بعيد جداً عن سيوفنا ورماحنا ، فوق صخور المدينة المنورة وغابات الروسيا كان التاريخ قد نشر كمائنه وأفخاخه . من سيذكر ، في مراحل الفوضى التي ستلي ، مشروع الرولة التافه ؟.

الفصل الخامس

القهوة الرديئة

(١٨١٣ـ١٨١٧)

(أنهى الشوفاليه « دوفانتيميل » مهنته الغامضة في القاهرة ، حيث كان يعلم اللغة الفرنسية لاسماعيل باشا) .

أرشيف وزارة العلاقات الخارجية ، مراسلات الإسكندرية (١٨١٣ ـ ١٨١٩)
(المجلد التاسع عشر) .

لاسكاريس ، (مذكرات تشرين الأول ١٨١٥)

تجرأتُ على فتح محفظة الجلد السوداء ، المظلة الثمينة التي أخفي فيها الملاحظات التي كتبتها عن الصحـراء ، ورسائـل دروفيتي ، وصور السفتجات على الاسكندرية ، وبـعض رمـوز الشيفرة . حفظت فيها أيضاً رسيمات فتح الله المخربشة : مشاهد مخيمات ، ترسيمات معارك أو قلاع ، رسيمات سريعة لصور بدوية نصفية . وصور جانبية لابن الشعلان ، رفيقنا الكهل ، في الكثير من المعارك ، والمخططات الرائعة للعاصمـة السعوديـة ، الدرعية .

كنتُ قد منعت نفسي ، لمدة طويلة ، من النظر إلى هذه الأوراق التي أنقذتها ، بمعجزة ، من محن الأشهر الأخيرة : كنت أخشى أن أجد فيها حنيناً مدمراً يمكن أن ينتزع الدموع من عيني ، وحدث العكس . فهي المصفرة بفعل الشمس ، والمشبعة ، حتى الآن ، برائحة الجمال ، قد أثارت في روحي ، ريح الصحراء التي أدفأتني .

أما وقد هاجمتني الذكريات الكثيرة التي تفجرت من هذه المحفظة السوداء ، فإنني أردت أن أضع نقطة وجودي الفقير ، وأقيم ميزان أموري . آمل ، بصورة غامضة ، أن يحرضني فحص مصيري المحزن هذا على الثورة ، ويضطرني إلى اتخاذ قرار ضد القدر : ولكنها الذبذبة ، وضعف الإرادة كما هو شأني دائماً . لقد غيّرتُ من رأيي ، بعد أن أجّلتُ ، يوماً بعد يوم ، لحظة مباشرة هذه الصلة الثقيلة باخفاقات حياتي ... لقد غيّرتُ من رأيي أول البارحة ، بعد صدمة مقابلتي المخيبة للآمال مع (روفيغو)، كما لو أن الدوق الجنرال قد ملأ كأس الذل حتى الحافة ، ثم جعلها تطفح .

هأنذا أكتب ، في هذه الغرفة الصغيرة المستأجرة لدى يوناني حذر في ضواحي مدينة إزمير .

صندوقي هناك ، مع محفظتي السوداء ، وصورة كاتينكو ، ومسدساتي ، وبضعة أربطة . لقد بعث من زمن بعيد هدايا ابن الشعلان ، وهدايا سعود ، وبقايا ذكريات معاركي في سوريّا . كان يمكن لهذه الخردوات أن تقودني إلى المشنقة ، ولقد فهمت بسرعة أن الحماية الإنكليزية لا قيمة لها إذا ما تمكن الأتراك من كشف محرّض البدو القديم ، تحت ستار شخصية الشوفاليه لاسكاريس . فبلاط سان جيمس لا يحمل من شعور الأمومة أكثر مما يحمل بلاط شارع (باك) في باريس ، بالنسبة لجواسيسه ، لا سيّما عندما يصلون بعد المعركة : فلقد غدا الوقت متأخراً جداً ، في عام ١٨١٣ من أجل تغيير المعلم .

نُقلتْ إليّ رسالة القيادة الإنكليزية في البحر المتوسط ، في شهر نيسان ، عن طريق الليدي ستانهوب . فالمرأة الفظة ، بعد أن نسيت مشاجراتنا في الشتاء ، غدت أكثر لطفاً ، وأكثر

نكداً : أنا أعتقد أنها قد بدأت في تمثيل تعقيد الصحراء في تصرفاتها . وهكذا حملتُ حسب تعليماتها ، الرسالةَ إلى قنصل إنكلترا في حلب ، وهو رجلٌ يدعى (باركر) ، ولقد سجنني في الحال في بيت محصن قرب النهر .

لقد قضيتُ ثلاثة أشهر خلف هذه الجدران ، في هذا البستان الساحر . كان صيف عام ١٨١٣ ، أجمل صيف عرفتُ في سوريّا . وهكذا وجدتُ نفسي ، في الوقت الحاضر ، وبعد سباقات جامحة ، طوال عامين ، فاترَ الهمة ، بسبب قلة الحركة ، والحرارة ، ووشوشة المياه . تداعب الشمس في المساء ورق أشجار التين الخشن ، وتتوقف طويلاً بين ورق شجرة الجوز الوارفة . كان لدى الخدم أوامر بالصمت : كنتُ وحيداً ، لا يصحبني أحد سوى عظاية كان السيد باركر قد أحضرها من جامايكا . إنها بمشيتها الاحتفالية ، ومشفرها الذي يعود إلى عهد ما قبل الطوفان ، قد انتهت إلى مشابهة صاحبها . إنها تذرع دروب الحصباء ، سجينةً مثلي ، وخاليةً مثلي من أيّة فكرة .

وافقني هذا الأسر الاحترازي كثيراً . حماني من العالم الخارجي ، والعالم الخارجي ، هذا الصيف ، لم يكن يخلو من منغصات . فلقد كان الأتراك يفتشون عن المسيحي الغامض الذي يشير إليه سجناؤهم البدو . ودروفيتي قلق بالطبع من سكوتي وهو يشم الأخبار ، من دون ريب ، لمعرفة سبب غيابي . عميلا باريس الجديدان ، نوسيا وبوتان ، يفتشان عني أيضاً . لا شيء لديَّ أخافُ بسببه من الأول ، فهو معلم شيخ يفكر دائماً في التلذذ بقصص جهالاته : لم نرَ مثله مغروراً منذ عهد المملكة المحبوبة . أمّا بوتان ، فأنا أمام عدو يُخشى بأسه . إنه ماكر مثل محام من الريف ، مخادع مثل إنكليزي يرفع ثياب خادمة ، شجاع ، مع ذلك شجاعةَ الصياد ... بوتان هذا يملك كل ما يؤهله ليكون جاسوساً جيّداً . أنا أعرفه لأنه من جنسي ، وأخاف منه كثيراً . إنه لا يتردد لحظة في تدبير أمر قتلي ليحصل على أوراقي . فالحذر يلزمني حقاً بالاختفاء ، وباركر قد قدم لي الوسائل لذلك .

ويظهر رجال إنكليز أحياناً في البستان ، مبعوثين من

القاهرة أو القسطنطينية ليتعرفوا إلى المنتسب الجديد إليهم . كانوا يستجوبونني ، طوال ساعات ، بصبر الموظفين العاطلين . كانوا يريدون معرفة كل شيء : من الذي أرسلني إلى الصحراء ، ومن كان يدفع لي النفقات ، وإلى من كنت أقدم حساباتي، ، وعن أيّ طريق ؟ كثير من التفاصيل التي تبدو لي ساخرة ومضحكة .

لم يحيّرهم شيء مثلما حيرهم سبب خيانتي : فماذا يمكن أن أعترف لهم به ؟ أأقول لهم : إنَّ دروفيتي قد سخر مني ؟ وأنني لم أكن أؤمن بمشروعات الامبراطور الشرقية ، وأنني أحسستُ ذات يوم أنني رولي أكثر من فرنسي ، وأنني أردت ، في لحظة ما ، تقديم سوريّا موحدة لسعود ، حتى يشكل العرب دولتهم ؟ كيف كان على هؤلاء الأغبياء أن يفهموا ؟ قدمت لهم البواعث التي ينتظرونها ، الحماية والمال . ستانهوب وعدتني بجواز سفر إنكليزي . قدموه لي من دون إبطاء . أما المال ، بالطبع ، فقد كان أمره أصعب قليلاً .

اعتقدتُ فترةً أنَّ لرسائل دروفيتي قيمةً ما ، فهي أدلة

المؤامرة التي دبرها نابليون ضد الأتراك . إلّا أن إنساناً ما لم يعد بحاجة إلى الأتراك اليوم . فالامبراطور الذي غلب مرتين ، قد ترك أوروبا للروس ، والعالم للانكليز ، وهم يسخرون اليوم من مظاهر غضب الأتراك الصغيرة .

ولم يعودوا بحاجة اليوم إلى جاسوس : لذلك أطلقوا سراحي في شهر أيلول . لقد أكلت تين باركر ، ولم أتمتع بجوزاته . لقد وعدوني بمهمات غامضة في البَصرة ، أو في القسطنطينية ، إلّا أن ما كنتُ أفتش عنه حقاً هو وسيلة للعودة إلى القاهرة أو حتى إلى نيس . لقد أعطاني الشرقُ كثيراً واسترد مني كثيراً بحيث أنني أستطيع مواجهة شيخوختي بهدوء .

وكان بوركهارت ، تقيُّ دمشق المزيف ، يأتي غالباً ليراني في الأيام الأخيرة من إقامتي الإجبارية لدى باركر . إنه أحسن الذكريات عن هذه الأشهر من الاستجوابات في ظل شجرات التين الظليل . لم يكن روسيّاً ، كما قدرتُ من قبلُ ، بل سويسريّ تدفع له لندن ، وهو جغرافي أكثر منه جاسوساً . لقد استعدتُ

من دون صعوبة ، نغمةَ صداقة حديثنا في دكّان اليهوديّ الخلفي ، أيامَ كان أبناءُ الولدْ علي ، والآخرون ، يطيعونني : كم تؤلمني هذه الذكريات الآن !.

أعطيته كل شيء . لقد حصل على قائمة القبائل ، مع عدد خيامها ، وفرسانها ، وجمالها . لقد حصل على نسب زعمائها وعلى عملياتهم الحربية ، وعلى وصف أسلحتهم ومخططات آبار المياه . حصل على أمثالهم ، وأغاني ترحلهم وقصائدهم : كان ينصت إليَّ مستشاراً ويسجل كل شيء بجنون ، كما لو أنه كان يريد تأليف موسوعة عن الصحراء .

ولم نتكلم في اليومين الأخيرين إلّا حول الدين : كان يطهّر حواره بحكم وَرِعَة جعلتني أراجع شكي . كنت أحس أنه مسحور بالاسلام ، بالاستسلام ، كما كان يسميه ، ومستعداً ، من دون ريب ، إلى قبوله برضى ، وإلى التخلي عن كالفينيته . أما أنا ، فقد اعترفت له بأن هذا الدين قد مسّني أحياناً بنفحته الكريمة . فبعض النظرات الطاهرة جداً ، وبعض الابتسامات

الرحيمة حتى الأعماق ، قد هزتني أحياناً ، هذا صحيح . إنني لم أعرف أكثر من ذلك ، ولم أرد أن أذهب إلى ما هو أبعد منه : فلقد كنا نقرأ فولتير كثيراً في شبابنا ، وكان الاسلام في عالم فرسان مالطا البسيط هو الجحيم . لقد هيؤونا للقتل ، قتل جميع المسلمين الذين يمكن أن نأسرهم في عرض مدينة (لافاليت)* . كانوا يسمون هذا الأمر (ترتيب قوافل) وأذن بربريّ تعني ثلاثين يوماً من الغفران المطلق . ثلاثين يوماً ...

أثرت فيَّ شجاعة بوركهارت كثيراً ، وكذلك حبه للعرب ، وإيمانه الوليد . فلقد فهم أكثر مني ، ما كان كلٌّ منا قد حاول أن يجده ، إنّما بطرق مختلفة ، وباستخدام أساتذة أعداء . كان يفكر ، وهو نصف المسلم ، بزيارة مكة التي استعادها المصريون من السعوديين . من يعرف إذا كان قد توصل إلى ذلك في النهاية .

فبين جميع هذه الكائنات المبحرة في ذاكرتي من محاربين

* عاصمة مدينة مالطا .

قساة ، وجواسيس مهرة ، وصيادين وأتقياء ، ومتحمسين لجميع الأديان ، يبقى هذا الشاب الوحيد الذي أقول عنه من أعماق القلب (فلتتنزل بركة الله عليك!) .

عدتُ إلى النبك بعد أن أطلق باركر سراحي ، كانت الأفكار في الخارج قد هدأت : وبإمكان لاسكاريس أن يعود إلى ظلمة حياته . كان بوتان أشد أعدائي خطورة ، قد رأى من المناسب أن يزور جبل لبنان لتفقد طوائفه وشيَعَهُ ، فقتل هناك . كانت ستانهوب قد استحسنت الكولونيل الغامض ، فاستثارتها نهايتُه ، وطلبت من الأتراك ثأراً كبيراً ، فجلبوا لها رؤوس ثلاثمائة من الجبليين .

أنا أشعر أنني ، على جميع الجهات ، قد غدوت ، وبصورة نهائية ، أكثرَ هدوءاً واطمئناناً .

أمضيتُ ما يقرب من سنة في النبك ، منتظراً أوامر باركر لمهمة جديدة ، من دون أن أؤمن بصحة ذلك . لا أريد البتة أن أكتب عن هذه الفترة الغامضة . كانت زوجتي تنتقم يومياً ،

وبدقة متناهية من ترك الناس لي ، من فقري ، من قبحها ومن شيخوختنا . لقد نسي أولادها اللغة الفرنسية : إنهم يتحدثون إليَّ بالعربية، أو يتآمرون عليَّ باللغة الجورجية مع أمهم هل كتبت في مكان ما ، أنها كانت قد ولدت في القوقاز ؟) .

كاتينكو أصبحت حاملة ، وأحياناً متحفظة ، وهي تشك في حب أبيها ، وتخشى فراره الجديد .

وكان يحدث أن أفر من الصراخ ، وأتجه فأدخل الصحراء ممتطياً حماراً ، وسيلة الركوب الوحيدة التي كان فقري يسمح بها . كنت أؤمل بشيء لا أعرفه . لقاء قاطع طريق من بني حسن ، يقلقني من دون أن يتعرف إلي ، أو ، بكل بساطة الضياع والموت عطشاً . ولم يحدث شيء من هذا البتة : فلقد كان عليَّ دائماً ، أن أعود إلى النبك ، وألجأ إلى كوخي الصغير ، وأستمع إلى نباح السيدة لاسكاريس .

كان المستقبل ينتصب أمامي مثلَ جدارٍ محير ، كنت

أعترف دائماً بأنه غير قابل للاجتياز أو الدوران حوله ، أو نسيانه بكل بساطة .

يضاف إلى هذا أن الآخرين قد أخذوا على أنفسهم مهمة توبيخي .

كان الأطفال هم الذين لاحظوا الشرطة التركية ، قبلَ الجميع . كانوا ينزلون إلى النبك أزواجاً ، أشخاصاً فاسدين ينتعلون جزمات سوداء . كانوا يشمون الأسواق ، ويسبرون أغوار التجار ، ثم يعودون إلى دمشق . عندما تعرفت إليهم بدوري ، عرفتُ ما الذي يفتشون عنه ، وبدأت بإعداد الأعذار والحجج .

ثم استدعاني الأسقف ذات يوم . قدّمني إلى صف ضابط من الفرسان ، كانت مفرزته تلعب في الساحة . كان بإمكانهم أخذي من منزلي ، إلّا أن الشرطة التركية ، في هذه السنة ، كانت تظهر شيئاً من التسامح تجاه النصارى ، ثم إنَّ جواز سفري الانكليزي قد حثهم على التزام الحذر .

صحبوني معهم إلى دمشق . استجوبني (كابوتشي باجي) يرتدي بذة حمراء . أُرسل على عجل من القسطنطينية ، بعد سنتين من التأخير ، في محاولة منه لمعرفة ما إذا كانت الاضطرابات البدوية ، في عام ١٨١٢ ، قد حركها نصرانيّ .

أنكرت كلَّ شيء تقريباً ، ما عدا تجارتي لدى بني حسن ، التي لم تكن ممنوعة ، أو تعرض صاحبها للشبهة . وقضيتُ ما تبقى من الوقت في القريتين وتدمر . كنت معروفاً جداً ، ولقد وجد من أكد ذلك . كانوا يعرفون أنني محميّ ، وأنني صديق ستانهوب : فليسألوها بدورها ، فستضمن ، بالتأكيد ، إخلاصي للسلطات .

كنت أريد أن أكسب مزيداً من الوقت ، وكان يلزمهم أسابيع لكي يتحققوا من هذا كله ، وسيكون بإمكاني العودة ، وإخطار باركر ، أو مغادرة الشرق ، والفرار إلى الصحراء ، إذا ما وجدت في نفسي شجاعة البحث عن ابن الشعلان وقبيلته الرولة .

وبدأ الاستجواب يتخذ منحىً جديداً عندما بدأووا يتحدثون إليَّ عن فتح الله . لم أشاهده منذ لقائنا في تدمر في

كانون الأول من عام ١٨١٣ ، إلّا أن أمه ، التي لقيتها في سوق قد أبلغتني أنه لا يزال يعيش في الصحراء مع الرولة . أكان الأتراك يعرفونه ؟ وهل هذا المسكين بين أيديهم ؟ استجوبني (الكابوتشي باجي) تعباً ، وعيناه تستقران فوق خواتمه التي كانت تلتمع تحت شعاع من النور . ((هل عرفت شخصاً يدعى فتح الله صايغ؟))
ـــ نعم هذا الشاب الذي عمل معي خادماً لفترة قصيرة إلا أنني لم أره منذ ثلاثة أعوام ، وأجهل ماذا حصل له . ((هل تعرف أن جميع شرطة الامبراطورية تفتش عنه اليوم ، لتحريضه على الثورة ؟)) ـــ لا وهذا لا يعنيني البتة . ((هل تعرف أنّ الصدر الأعظم يفكر في وضع غرامة على جميع موارنة الولاية حتى يسلّم هذا الثائر؟)). إلى الأسقف يجب أن يتحدث في مثل هذه الأمور ، لا إلى تاجر كاثوليكي تحميه بريطانيا . سألتُ نفسي عندما أطلقوا سراحي ، مع أمري بألّا أغادر النبك ، فيما إذا كانوا حقاً غير أكفاء كما يظهر عليهم. (أتتني فكرة غامضة، مستبعدة الحدوث ومذلة بغموض ، فكرة أنهم لم يروا فيّ سوى كومبارس ، قطعة تبديل ، وأنّ فتح الله وحده قد كان الطريدة

الوحيدة التـي تهمهـم) . يجب علـيَّ ، على كل حال ، أن أختفي . يمكن للآغا أن يدقق في أقوالي ، ويستدعي الشهود ، ويقابل البدو . ويمكن له ، بصورة خاصة ، تخيل علاقات مستمرة مع فتح الله ، ورصد اتصالي به ، لقد فقد صبره في انتظاره : وليس هناك أكبر خطراً من آغا فاقد الصبر .

كان ذلك في خريف عام ١٨١٤ ، أي منذ عام . كان الشرق كله يبدو هادئاً . لم يعد السعوديون يشاهدون ، وأخذت قوافل بغـداد تمر دون معوقـات ، أمّـا البـدو فقـد تفرقـوا في صحرائهـم ، ولم يغير باشا دمشق منذ سنتين . ويا للهيمانِ مع ذلك ، لدى الغرباء عن دمشق ! فأحداثُ أوروبا كانت تقذف إلينا اضطراباتٍ غريبـة ، تُقَـلِبُ العـادات ، وتدمّـر الثروات ، والوجدانات أحياناً . فمن القسطنطينية إلى يافا ، كان الانكليز يرفعون رؤوسهـم عالياً . وكان الروس والنمساويون يفتشون فجأة عن خصام مع الفرنسيين الذين يلتقون بهم في الطريق . كان التجار قلقين ، يستردون ما لم يدفع ثمنه . ويرون المخاطر تذر قرنها . وتأرجحت جميع الأرصدة ، وكان المتبادلون من التجار يرقبـون الفرص المناسبة .

كنت ترى العسكريين المطرودين الذين أنزلهم آل بوربون من عليائهم ينزلون في الموانىء، كانوا يبيعون سيوفهم لم يريد أن يشتريها : كان العمداء الشقر ينقلبون إنكشاريين، والعقداء البروتونيون يبدلون سحناتهم إلى ألبانيين قساة....

وكانت ثلاثة من السفن التي ترفع زهرة اللوتس تمر أمام الموانىء . لقد أتت تطلب من قناصل الامبراطور تقديم حساباتهم . كان أغلب هؤلاء قد بدلوا من سحناتهم : لقد أنزلوا العلم الثلاثي الألوان ، وأخذوا يقيمون حفلات رقص لضباط الملك ، وانتهى كل شيء ... غداً توضع بتصرفهم الوثائق والأرقام ، ويحضر ضباط أتراك حلفاء ، عملية فرز الملفات ، وجمع ما يمكن أن تهتم به شرطتهم .

لم أكن أنتظر خيراً من إفشاء أسرار عشرين عاماً من البيروقراطية القنصلية . كان اسمي موجوداً كثيراً في رسائل دروفيتي ، وعلى تعليمات بوتان ، وعلى مائة تقرير بسيط يخصني ، وعلى الوصولات الموقع عليها لدى المصرفي (كاتا فاغو) ، بمبالغ تسترعي الانتباه . التخفي والتستر الحاميان ، واللذان أنشأتهما

منذ خمس سنين ، يهددان بالخراب . وهكذا ترتفع أوراق متفرقة نحو القسطنطينية ونحو باريس بعد أن تكون قد ترنحت على السفن أو على البغال .

وهكذا تحضر ملفات ، من مكتب ، إلى مكتب ، بعد أن يقابل بينهما موظفون بليدون . ملفات كانت تحمل اسمي ، وتزينها أختام غير مشجعة ، سيتسلمها (الكابوجي باجي) يوماً ما ، وسيغضب لأنه أساء الحكم عليَّ . أما الفرنسيون فسيرسلون استنتاجاتهم إلى الساردينيين ، لأنني عدت من جديد من رعية ملك ساردينيا .

يجب أن أتخلى عن فكرة الذهاب إلى نيس للموت فيها : كنت أحب ، مع ذلك ، أن أرى من جديد (سانتا روباتا) ومقرناً في (كاستلار) حيث كنت ألاحق العظايا بين الشقوق .

كتبتُ إلى باركر طالباً مساعدته . لم يكن لدى الانكليز أي شيء من أجلي في مصر : فمحمد علي قد غدا ذا أهمية عظيمة بالنسبة للندن . لن يرسلوا إليه عميلاً يشيخ ، لا يثقون به إلّا ثقة محدودة .

لقد عرضوا عليَّ إزمير. فأرض اليونان، كما يبدو، ستلتهب ، ويجب معرفة عواطف الشعب الهيليني في الأناضول . كنت قد أثّرت في باركر كثيراً عندما كشفت له تحدري من الامبراطور تيودور ، كان يجدني أهلاً للذهاب وإثارة رجال المرفأ . كنت أشعر بالتهديد التركي ، وأبديت له خطأه : إزمير إذاً ، هل لي من خيار ؟.

غادرتُ النبك في إحدى الليالي . خروجي من بين البساتين ساعدني على تضليل الحراس . كان حماري على طريق حلب يئن تحت ثقل الصندوق ، وساقايّ تؤلماني ، وأعتقد أنني بكيتُ قليلاً : كان عليَّ أن أرحل دون أن أعانق كاتينكو مودعاً .

كنت أعرف أنني لن أراها أبداً . ستكون جميلة بعد سنتين أو ثلاث سنوات . وستبيعها أمها ، دون ريب ، لأحد التجار الأتراك . سيضربونها قليلاً ، ثم تكبر مع نساء الحريم في إحدى المقاطعات . ستتسلى بالأقمشة الجديدة والحلوى ، وستغمض عينها محاولة أن تتذكر كيف كان والدها . والدها الذي غادرها وراء حلم يتموج كالرمال .

أوقفتُ ، بعدما وصلت إلى إزمير ، كل جهد لفهم شيء عن الاحتجاجات اليونانية . كانت تقاريري للانكليز ، المحررة ببرود تحت أشجار توليب الساحة الكبرى ، لن تثير الرأي العام للمتعاطفين مع اليونانيين . والأتراك ، مع ذلك ، سينتبهون إلى من يحررها . ويحدث أن أقع ، غالباً ، تحت تأثير الخوف . كنت أتخيلُ ، وأنا أمرُّ بالقوات العسكرية ، تحت الأروقة ، أقبيةً مقببة ، وجدراناً تخفي وراءها أصوات التعذيب . كنت أحس بثقل السلاسل ، وبالهروات تسحق أصابع الأرجل ، وأسمع تنفس المعذبين المتحمسين ، وأقرأ في نظرهم المشتعل ، آلاف الأشياء التي قد تنزل بي ذات يوم .

أهذا هو السن الذي يفترض الشجاعة ، على هذا الشكل ، أم هي الوحدة ، أم هو بكل بساطة ، التاريخ ؟ كنت أشجع من الآن في سنيّ السابقة ، هذا حق . ثم إنَّ ضربة رمح في البطن تجعلك تلتهم التراب اثنتي عشرة ساعة ، أو رصاصة تذهب بساقك وتستنزف دمك بعيداً عن أي جراح ... كل هذا أقل قسوة من الموت ببطء أمام الأغوات المتخمين ، أو على هذا الرأس

الوحشي للقاعدة الشيطانية (التي لا أجرؤ على كتابة اسمها) والتي تفتح في الأسفل من جسمي طريقاً مدمراً .

لن ينجيني من هذا كله إلّا وصولي إلى مصر ملجئي الوحيد .

أبلغني قنصل فرنسا ، في يوم آخر ، بمقدم بونابرتيين إلى إزمير . إنه وهو المرتبط بآل بوربون بقوة ، يتردد في استقبالهما : فهل بإمكاني مساعدتهما ؟ لقد فرّا من مالطا ، وهما يعرفان الشرق ، لأنهما خدما الكورسيكي في مصر .

واعتقدتُ ، للحظة ، أنَّ الخطر قد استدار ، وأنَّ بالإمكان إنقاذي : رفاق مصر القدامى ، يا للنعمة غير المتوقعة ! ستتمكن من استعادة أخبار شجاعتنا القديمة ، ورسم خطط المستقبل ، والتحرك ، والحديث أخيراً .

الكلام ، خاصة . فالصمت أقسى ما فرض عليَّ في حياتي . لديَّ الفخر بأعمالي في سوريّا ، ولديَّ الرغبة في أن أقص

حكايتها . ولديَّ الثقة المنحوسة بأنها ستقودني إلى الخازوق (ها هي ذي الكلمة مكتوبة) ، إذا ما أعطيتها إلى أحد ما . فتح الله ، الشاهد الوحيد ، يلهو في الكثبان ، وأقاتل أنا ، كلَّ مساء الرغبةَ بتسليم نفسي إلى الأتراك ، ثمناً لحقي في أن أحكي لهم حكاية (لاسكاريس) .

التقيتُ الناجيَين من الخطر ، لدى التاجر البندقي الذي يؤويهما ، بعد أن اتخذتُ بضعة احتياطات ضد حالة محتملة يكون فيها معلميّ الإنكليز يراقبونني .

تعرفت بسرعة إلى (لالمان) : لقد رافقتهُ عندما كان يتبع كليبر نقيباً في سلاح الفرسان عام ١٧٩٩ . ثم غدا لواء وباروناً ، بعد أن استطاع الإفلات من رصاص النمساويين ، ومدي الإسبان ، ورماح القوقاز .

إنه يبدو وبشاربيه ، وبشعره الطويل ، وبالندبة الجميلة في وجهه ، في مظهر فارس ألمانيّ مرتزق . وكان الآخر هو الدوق (روفيغو) مساعد (دوزي) القديم: رجل فخم أحمر يتعرق

كثيراً . لقد دمرت سنواتُ عمله في الشرطة ومظهرُ غروره الأحمق ، شيئاً فشيئاً ، كلَّ أثر للإنسانية في وجهه . لقد طرد ، ولوحق ، لذلك كان يتعلق بالشعارات ، كما يتعلق الانسان بصاري سفينة فوق محيط هائج .

وما استبعدت برودة اللقاء المتغطرس ، حتى أردت تقديم مراحل خدمتي ، وحكاية أنباء معاركي ، وإظهارِ القوة التي كانت بإمرتي ، والمعاركِ التي قدتها بنفسي .

إلّا أن (روفيغو) كان يكذبني في كل جملة ، ويظهر ادعاءاتي المتهافتة ، مذكراً بتواريخ وبأوامر ، منكراً نيات الامبراطور حول الشرق . لقد كان يظنني دجالاً ، خرفاً قليل الذكاء ، تتكشف مآثري وانتصاراتي ، مع الافتراض بأنها حقيقية ، عن أعمال سخرية وكذب . لقد صنع التاريخ في باريس ، وفي باريس يجب أن يعيش الإنسان ، والذي لم يتح له أن يتناول طعام العشاء مع الامبراطور ، يكون قد أضاع وقته بالنسبة للدوق (روفيغو) .

كان (لالمان) يصغي ساكتاً ، كان ينظر إليَّ بفضول ،

ويبدو عليه التأثر ، أو الاهتمام . أعتقدُ أنه كان يخشى سخريةَ زميله فلا يجرؤ على سؤالي عن الأعمال التي كان الآخر يسميها ترهات .

فكرتُ في إقناعهما بمرافقتي إلى مصر . بإمكاننا استئجار قارب في الليل ، والوصول به إلى الإسكندرية ، عن طرق قبرص ، فمع مثل هاتين الشخصيتين الساميتين أتمكن من الوصول إلى الخديوي : محمد علي يجند ، في هذه الأيام ، الناسَ جميعاً . حاولت أن أغري الدوق بولاية ، واللواء بجيش ، وأبقيت لنفسي بعض الفتات .

كانا لا يكادان يصغيان إليَّ . فروفيغو لا يفكر إلّا في وسيلة يعود بها إلى باريس ، واستعمال أيّ نوع من الدناءة والخداع ليقبله آل بوربون . ولالمان مستسلم إلى هَوَسٍ غريب ، ولا يفكر إلّا في أمريكا . إنه يريد إنشاء جمهورية في صحارى المكسيك . ويقدر تسخير جماعة من الفرسان المتوحشين فيها ، من البداة

التائهين ، قطاع الطرق ، وسالبي القوافل . كان يسميهم (الكومانشه) . وتمنّيتُ له الوفيق والسعادة .

وافترقنا فجأة . لم أكن أتوقع هذا الاحتقار لأعمالي ، ولا هذه اللامبالاة بمشاريعي . ووجدت وحدتي نفسَها كاملة من جديد ، وغدا مستقبلي أكثرَ غموضاً .

أنباءُ حرب الحجاز تصل إلى هنا على شكل مقتطفات غامضة ، تحورها الدعاية التركية لصالحها . لقد جنّدوا فرقاً من أجل الحرب ، وأساطيل في الموانىء ، وفرضوا على الأسواق ضرائب جديدة . ووصل محمد علي نفسه إلى الطائف ، قريباً من مكة . واستلم إبراهيم ابنهُ قيادةَ الجيش ، وأقسم بأنه سيدمر الدرعية .

الدرعية التي وصفها لي فتح الله جيداً ، والتي رسمها فتح الله جيّداً ، بدقة مهندس عصامي لا ينسى معقلاً ولا حصناً . الدرعية التي أملك مخططاتها في صندوقي . أهيَ فرصة تنتهز ؟.

لاسكاريس ، (مذكرات آذار ١٨١٧)

الموت يطوف حولي . أود إحباط عمله . ولكن كيف ؟ من النيل إلى مقياس الروضة تطير رائحة سم على القاهـرة . عاشت هذه المدينة عصر الفخاخ ، وأطبقت بمهارة على أعناق المتآمرين الذين يختفون ، وعرفت نضح الدم اللزج . وهذه القلعة التي أعيش فيها قد تشربت كلّ شيء . نحن الآن في عصر السم (القهوة الرديئة) التي تقدم باحترام ، وينتظر مقدمها ، بعين قلقة الأعراض الأولى : الإعيـاء المفاجـىء ، والتشنجـات ، ثم تحول الدم ، والإغماء ، وأخيراً يأتي الخدم بسرعة لتنظيف كل شيء .

كنت في هذه المدينة شاباً ، وغنيّاً ، وكنت جميلاً في أعين بعض الناس ، ومحسوداً على كل حال . وهأنـذا أجـد نفسي شيخـاً ، فقيراً ، مريضَ الجسم ، والـروح كذلك ، من دون ريب . ولكني ، مع هذا ، صاحٍ ، وأشعر جيداً بالمخاطر التي تتحرك في الظلام .

اعتقدت لفترة بالحظ ، وبإمكانية تحقيق مصيري النهائي ، عندما أصل إلى المرفأ . كان ذلك منذ سبعة عشر شهراً ، في يوم قاتم من أيام كانون الأول . وبعد انتظار امتدَّ أسابيع ، استمع إبراهيمُ ، ابنُ الخديوي محمد علي ، والسيّدُ القويُّ ، والقائدُ الفذُّ الذائع الصيت ، لتوسلاتي . استقبلني ، تفحصني بنظره الرهيب ، واستجوبني بجمل قصيرة . رفعت رأسي أمام هذا العسكري : تكلمنا عن المعارك ، عن الجيوش التي تتحرك ، والهجمات التي تتكسر أمام مشاة شديدي العزم . وانتشى إبراهيم حماسة ، واستشار خرائط ، ومخططات ، فأبوه التعب من الحرب ضد السعوديين قد قرر أن ينهيها : سيذهب الابن ، سيقود الجيش . ستسقط الدرعية ، وسيستأصل الوهابيون ، وأتباعهم المتفرقون سيعودون ، من جديد ، رعاةَ جمال : لقد وعد إبراهيم بذلك .

ما الدورُ الذي ينبغي عليَّ أن أقوم به أمام هذا الأمير الكريم المتقلب ؟ أعليَّ أن أنظر نظرة عريضة ، أن أكشِفَ ماضيَّ ، وأفرض نفسي ضابطاً : ((لقد هزمتُ السعوديين في سلمية ،

يا سيدي ، وأنا أعرف كيف أستأنف عملي خدمةً لمجدك)).هل عليه ، على العكس من ذلك ، أن يحذر تربيتَه لدى الأتراك ، وأن يفكر بالصلات التي لا تزال تربطه بالبابِ العالي ، وأن يكون متحفظاً ، وأن يسكت قليلاً ، ويقنعَ بحماية بعيدة .

لم أختر المجد أو لم أجرؤ على المخاطرة . لقد خيَّبت ظنه ، لكن أربع سنوات من الوساوس قد حطمت اندفاعي . إنني أتطلع إلى تقاعدٍ مريح ، وأخشى ، في عمري هذا ، ألا أستطيع تحمل الصحراء . وهكذا عهد بي إبراهيم إلى أمناء سرِهِ ، بعد أن تعب من وجودي ، لكي نتعمقَ معاً في دراسة المخططات التي تركتُها له ، لقاءَ مكانٍ يمنحني إيّاه . استمر وهمُ الشيخوخة الهادئة عدةَ أسابيع : عينوني مدرساً في بيت اسماعيل : شقيقِ إبراهيم الصغير . ولقد عزيتُ نفسي ، وأنا أفكر (بفينيلون) (وجان جاك روسو) ، عزيتَها بهذا العمل التافه . إلّا أن اسماعيل كان صبيّاً غبيّاً يكره الدراسة أكثر من أيِّ إنسان . وكانت عصبة الساقطين ، الذين يحيطون به ، قد طردوني بسرعة من المساكن الأميرية . أقصوني إلى حجرة السلم المخصصة للخدم . لقد

تعفنتُ فيها مع المارقين ، ومع الجرذان ، حاسداً العبيد الذين كانوا يطعمونهم بشكل أجود ، والذين كانوا ينامون مطمئنين .

كَثُرَ حولي الجواسيسُ ، وكثرت المكائد والأحابيل . كانت طغمةٌ من الفرنسيين تطن حول الخديوي محمد علي وولده : موظفون بليدون طردهم آل بوربون ، أنصافُ جنود مبارزون بالسيف يبحثون عن الآلام والحرب ، بضعةُ متنورين يفتشونَ في الرياضيات عن سعادة شعب القاهرة . تعرفتُ إلى الكثيرين منهم : لقد برزت علاقاتٌ قديمة تعودُ إلى الأيام التي كنا نحكم فيها القاهرة . كان جوازُ سفري الإنكليزي يثيرهم ، فيهمسونَ محرضين الناسَ ضدي . وكان يوجد بونابرتيون شيب تستثيرهم حقارتهم ، يتآمرون علناً ضد الخائن (النيسي) . كما لو أنني كنتُ مديناً لفرنسا بشيء ، فرنسا البلد الذي خدعني كثيراً .

حرصتُ ، مع ذلك ، على الاعتماد على الحماية الإنكليزية . فلقد أغضب رحيلي السريع ، من إزمير ، سادتي الإنكليز : (فآلبيون) يتسامح مع الكسالى ، ولكنه قليلاً ما يغفر

لعدم الطّاعة . كان قنصل جديد قد وصل إلى القاهرة ، رجل يسمى مستر (سالت) رسام كبير للأهرامات ، ولص قبور كالآخرين . كان يستدعيني من آن لآخر ، ليخيفني ، ويدفعني إلى المزيد من الحماسة للإنكليز . الرجل متسلط حقود ، يهدد بانتزاع جواز سفري مني ، وبضربي من قبل عملائه ، إذا لم أتوصل إلى التأثير على تلميذي لصالحه .

وهذا ، تقريباً ، ما كان دروفيتي يطلبه في رسائله التي تذلني وترهقني . فلقد التصق بالإسكندرية بعد طرده من العمل في عام ١٨١٥ ، مدافعاً ، بالحق وبالباطل ، عن مجموعاته ضد جشع الإنكشارية . إلّا أنّ هذا الحقير قد فقد وطنه ، بعد أن فقد قنصليته . إنّه ليس فرنسيّاً أكثر مني ، فلماذا يضغط عليَّ لأمدح فرنسا لدى اسماعيل . إنني أعلم ما يفتش عنه دروفيتي هذا . إنّه يفتش عن رسائله المتأججة تمجيداً لنابليون ، وعن تعليقاته المسمومة ضد ألبانيي محمد علي ، الذين وصلوا إلى السلطة ، والذين فقد السيطرة عليهم ، فأصبح بإمكانهم ، أن يطردوه يوماً ما .

إلا أنَّ لاسكاريس يقدر مذكـرات الماضي هذه . هذه الأوراق التي يركض فيها خط مصفَرّ لرفيق قديم . إنَّ لاسكاريس لن يعيد إليه هذه الأوراق ، فهذا درس تعلمه جيداً من نظام جزيرة مالطا .

وكان هذا كله يخلق حولي مخاطر لا يمكن لرأسي الفقير التعب أن يتنبأ بها . فالفرنسيون لكي يدمروني ، يختارون حدَّ السيف ، لطمةً عنيفة في مشاجرة حمقاء ، حولَ كلمة ، لا معنى لها ، يزعمون أنهم يرونها مهينة . و (سالت) سيضربني حتى الموت للحصول على أوراقي ، وإدعاء شرف نشرها في لندن . وألقى بعض جلساء إسماعيل ، ذاتَ يوم ، البارودَ النفطيَّ في صحن طعامي ليُسَلّوا الأمير ويحرروه من دراسةٍ مضجرة .

أيوفق هؤلاء المتنافسون العنيفون في قتل لاسكاريس يوماً ؟ أيوفقون يوماً ما ؟ فالطاعون ، وهو أشد فتكاً من مكائدهم ، يعانق السويس ، ويحوم حول القاهرة : أأموت مقطعَ الأوصال ، بخراج طاعون ، قبل أن أسقط صريعَ كمينٍ قتلة ؟.

يجب أن أرحل ، بالتأكيد ، ولكن إلى أين ؟ فنظام القديس يوحنا قد تفرق ، وباريس في أيدي أعداء ، ومدينة نيس صريعة تحت حذاء سردينيا ، وحلب يسيطر عليها الأتراك دائماً ، ولم يبقَ لي سوى مصرَ ، مصرَ التي تفوح منها رائحة الموت . فلندع هذا ، فحظي لا يعرف حدوداً ولا عاصمة : إنه خيمة قبيلة الرولة ، وقد غادرتُها إلى الأبد . فتح الله بقي هناك . إنه على حق ، والأمر سهل عندما يكون الإنسان شاباً .

الرحيل . إبراهيم في جدة متورط في حرب لا تنتهي ضد السعوديين . ليس لديه ما يكسبه ، مادام قد احتل الحجاز ومدن الحج المقدسة . فليس ما تبقى من جزيرة العرب ، بالنسبة إليه ، سوى صحراء وقرى محرقة . وهو يبغي المفاوضة إذا عُرِضَ الأمرُ عليه بتروّ .

التروي ، من الذي يقدمه إليه سوايَ ؟ فبفضل فتح الله ، حمل الرولة إلى سعود تأييد قبائل الشمال في حربه ضد مصر . سنجد ، من دون ريب ، في بلاط الدرعية زعماء هذه القبائل التي

أستطيع التعرف إليهم . وابن الشعلان نفسه ، يمكن أن يكون هناك ، هو أو أحد أبنائه . وسأجد فوقَهم مرتقايَ ، وعن طريقهم سأصل إلى الملك ، وسأنتزع منه السلام ، سلامهم ، وسلامي .

وعليَّ ، من جديد ، أن أختفي ، كما فعلتُ دائماً ، عليَّ أن أغادر القاهرة في الليل ، لأصل إلى البحر الأحمر ، في الجنوب ، لأتجنب الطاعون ، ومن هناك أنتقل إلى جدة ثم أجد الوسيلة لأتحدث إلى ابراهيم ، مذكراً إيّاه بمن يملك مخططات الدرعية ، ومقنعاً إيّاه بالتفاوض عن طريقي .

وبعدَ هذا مئتا ميل من الصحراء ، حتى أصل إلى العاصمة ، آبار مالحة ، وبداة معادون ، ولكن الخلاء ، والصمت والشمس . فياله من فرح ! ويالها من سعادة !.

هل بإمكاني الوصول إلى ذلك ؟ جسدي من دون ريب ، لا يُطيعني : فركبتاي المتألمتان ، وظهري السهل الكسر ، تتطلب مراحل أقصر ، هذا كلُّ ما في الأمر . وأعترف بأنني لستُ متأكداً من ذلك .

لقد شكوت من أعدائي في هذه السطور غير الحذرة ، يجب أن أتلفها . إلّا أنني لم أتجرأ ، بعد ، على ذكر الآخرين ، أعدائي الذين يهددونني من الداخل ، هذه الفوضى القذرة التي تجتاحني في كل ساعة . أشعر بأن أشياء تتجمهر ، وهي تريد بي الشر . أسمع في روحي هدير الفلك الأسفل ، صدمة طرشاء لملقط على ورق ، أزيزاً رخواً لمحجم . تنتابني لحظات غيابٍ عن الوعي ، أمور مريعة .

هاجمتني ، وأنا أجمع الأعشاب من أجل إسماعيل ، على طريق الجيزة ، رؤيا مرعبة . دروفيتي ، وسالت ، وإسماعيل والآخرون ، بدلاً من أن يخنقوني ، يبتسمون لي ، بهدوء ، كما يبتسمون لشيخ يغفرون له نزواته .

كان فرسانٌ من الرولة يمرون بي ، من دون أن يتعرفوا إليَّ متجهين إلى بساتين نخيل مدينة السلمية ، وقد أقلقهم جيش سعودي ، تقلصتْ أهميتُه إلى غزوةٍ لا أهمية لها . كان فتح الله إلى جانبي يبيع الكفيّات ، كما لو أنه لم يكفّ عن ممارسة تجارته ...

كما لو ... يا إلهي . الفكرة تفقدني العقل في الوقت الحاضر ، كما
لو أننا ، أنا وهو ، لم نذهب ذاتَ يومٍ إلى الصحراء .

خاتمة

مات لاسكاريس في القاهرة في آذار من عام ١٨١٧ ، لربما مات مسموماً ، ولكن من الذي سمه ؟ لقد خانَ كثيراً . وعاد فتح الله ، بعد أن رحل مع الرولة لبعض الـوقت ، إلى حلب . مات فيها بعد مدة طويلة ، وبعد أن غدا موظفاً في قنصلية فرنسا .

وبدا (دروفيتي) ، الذي طرد من الخدمة الديبلوماسية بعد سقوط نابليون ، إنساناً لا يستغنى عنه ، فأعيد إلى قنصليته . لقد احتفظ بمجموعات من التحف المصرية ، وانتهى به الأمر ببيعها إلى شارل العاشر : وهي الآن في متحف اللوفر .

ضاع الدبيلوماسيون الآخرون روسو وكورانسيه وكاتافاغو وشابوسو وباركر ... في رمال النسيان .

لم يرحل (بوركهارت) أبداً مع قافلة (فزّان) التي كانت ستقوده إلى قلب إفريقية ، رحلة كان قد أعد نفسه لها منذ عشرة أعوام . لقد اختطفه الطاعون بعد عدة أشهر من موت لاسكاريس . وبقي المسلمون يحترمون قبره لمدة طويلة .

لم تصبح ليدي ستانهوب ملكةً على دمشق أبداً . انعزلت في دير لبناني قديم ، وفقدت فيه ، في مدى عشرين عاماً ، أصدقاءها ، وثروتها ، وآخر خدمها ، وأخيراً عقلها .

مات (روفيغو) عضواً في مجلس الشيوخ ، وأسس (لالمان) حقاً جمهوريته في تكساس .

مات الملك سعود في عام ١٨١٤ ، في قصر الدرعية تاركاً لولده عبد الله مصيراً حزيناً ، مصير رؤية الجيوش المصرية تجتاح بلده ، وتحتل ، في عام ١٨١٨ ، عاصمته . ونُصّبَ أحد

المتحدرين من سلالته ، بعد مائة عام ، ملكاً على الجزيرة العربية ، كان يدعى عبد العزيز ، وأحد أبنائه يملك اليوم في الرياض ، عاصمة المملكة العربية السعودية .

لا يعرف شيء عن مصير ابن الشعلان ، فقبائل الرولة لا تكتب تاريخها .

عن المؤلف والمترجم

المؤلف

جان سوبلان ، موظف يعمل في أحد المصارف العربية في باريس . اهتم بقضية الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث ، ومضى يطالع في أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية ، فاستوقفه ملف (لاسكاريس) ، فانكب على دراسته ، وتتبع أنباءه في مصادر أخرى معاصرة ، عربية وفرنسية وإنكليزية ، واستفاد من ذلك كله في كتابة هذه الرواية التي ترجمناها ، والتي هي روايته الأولى .

المترجم

ـــ من مواليد ادلب في شمالي سورية عام ١٩٢٧ ، وفيها

تلقى تعليمه الابتدائي ، ثم أتمّ تعليمه الثانوي في حلب .

ــ تخرج من الجامعة السورية (جامعة دمشق حالياً) في عام ١٩٥٠ ، حيث درس اللغة العربية وآدابها ، والفلسفة ، والتربية ، والتاريخ .

ــ عمل في وزارة التربية مدرّساً ثم مديراً ، ثم موجهاً اختصاصياً لمادة اللغة العربية وآدابها (منذ عام ١٩٦٤ حتى الآن) .

ــ عضو اتحاد الكتاب العرب ، ومعهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب .

ــ يشمل اهتمامه الآثار والأدب والفن والتاريخ والفلسفة والتربية وتاريخ الحضارة بشكل عام ، وتاريخ الحضارة العربية بشكل خاص .

ــ ترجم عن الفرنسية كتباً عديدة آخرها رواية جان سوبلان هذه . وقد طبع منها : (التاريخ الحقيقي للعرب ، القدس ، حلب) .

ــ من مؤلفاته المطبوعة : العروبة في شعر المهجر ، الحنين

واللقاء في شعر المهجر ، كتب أنصفت حضارتنا ، فيكتور هوغو ، الياس قنصل ، سيرة ابن سينا ، تراثنا العربي القديم في ميدان علم النبات ، من حديث العقل والقلب ، الغزالي .

ــ من مؤلفاته غير المطبوعة : الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر ، أعلام الأدب والفن ، مدارس الفنون التشكيلية ، دراسات عن ابن خلدون ، وسيف الدولة ، والشابي ، والبتاني ، وستاندال .

الفهرس

الفصل الأول

المِطْيَرة

(١٨٠٦ــ ١٨١٠)

الفصل الثاني

الصحراء

(١٨١٠ـ١٨١٢)

الفصل الثالث

الناقة السوداء

(مايس ــ تموز ١٨١٢)

الفصل الرابع

ملكة دمشق

(١٨١٢ ــ ١٨١٣)

الفصل الخامس

القهوة الرديئة

(١٨١٣ــ١٨١٧)

اسم الكتاب باللغة الفرنسية

JEAN SOUBLIN

LASCARIS D'ARABIE

لاسكاريس العرب = Lascaris d'Arabie رواية / تأليف جان سوبلان ؛ ترجمة فريد جحا . ـــ ط. ١ . ـــ دمشق دار طلاس، ١٩٨٧ . ـــ ٤٣٨ ص. ؛ ١٨ سم .

١ ـــ ٨٤٣ ف س و ب ل ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ سوبلان ٤ ـــ جحا

مكتبة الأسد

رقم الايداع ـــ ٥٨٤ / ٦ / ١٩٨٧

رقم الاصدار ٢٧٧

هذه الرواية

تحكي هذه الرواية قصة جاسوس فرنسي عاش في البادية الشامية بين عامي ١٨١٠ ـ ١٨١٥ ليمهد لنزول حملة فرنسية تحتل بلاد الشام والعراق وتقطع طريق الهند، على انكلترا.

وفي الرواية وقائع تاريخية، وخيال أديب، وسيجد فيها القارىء المتعة والفائدة، والدليل الجديد القديم على اهتمام العالم بوطننا العربي لما له من موقع استراتيجي ممتاز، وتراث حضاري هام.

المؤلف كاتب فرنسي، استمد احداث الرواية من أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، حيث عثر على ملف (لاسكاريس). وبعد البحث والتدقيق اخرجه في هذا الكتاب بالفن الروائي.

